عباس مصطفى عمّار

سيناء
المدخل الشرقي لمصر

طي الذاكرة



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

هذا الكتاب

شكّلت سيناء المعبر الشرقي لمصر. وتاريخيًا كانت معظم الغزوات تأتي من ذاك المعبر الذي تحول مع الزمن إلى حلقة اتصال بالبلدان المجاورة ومحيطها الحضاري. ويقدم هذا الكتاب مسحًا شاملًا لموقع سيناء وأهميتها الحربية وطرق المواصلات وخطوط التجارة ومعابر الهجرات البشرية منذ العبرانيين والهكسوس إلى الحرب العالمية الأولى علاوة على التكوين الاجتماعي لسكان سيناء وقبائلهم وأساليب عيشهم. واليوم بعد نحو 70 سنة على نشر الكتاب بإشراف "الجمعية الجغرافية الملكية المصرية" يعيد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات إصداره في إطار سلسلة "طي الذاكرة" في وقت عادت سيناء لتحتل من جديد موقعها الاستراتيجي بوصفها الممر الجغرافي من مصر إلى فلسطين.

عباس مصطفى عمّار

ولد في إحدى قرى المنوفية سنة 1904، وحاز الدكتوراه في علم الأجناس من جامعة كيمبردج في سنة 1942. أمضى تسع سنوات في سيناء يدرس جغرافيّتها وتكوينها السكاني. له مجموعة كتب منها **علم الأجناس**، و**أبو نواس**.

السعر: 8 دولارات

ISBN 978-9953-0-3012-8



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

المدخل الشرقي لمصر

أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات
ومعبر للموجات البشرية

ملاحظة: نلفت القارئ إلى أنّ المحرّر حافظ على النّص كما ورد في الطبعة المعتمدة، ولم يتدخّل إلّا في حال وقوع غلط طباعي أو نحوي. أمّا ما أضافه المحقّق من شروح وإيضاحات، فقد وضع في الهامش مشارًا إليه بعلامة (*) أو حرف (م). أما المراجع فقد تم تحقيقها بالطريقة العلمية.

المدخل الشرقي لمصر

أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للموجات البشرية

عبّاس مصطفى عمّار



الفهرسة أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

عمار، عباس مصطفى

المدخل الشرقي لمصر : أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للموجات البشرية / عباس مصطفى عمار.

239 ص. : إيض. ، خرائط ؛ 24 سم. - (طي الذاكرة)

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 211-221) وفهرس عام.

ISBN 978-9953-0-3012-8

1. سيناء - تاريخ. 2. سيناء - الحدود السياسية. 3. المواصلات - سيناء. 4. الطرق التجارية - سيناء. 5. الجغرافيا السياسية - سيناء. 6. الجغرافيا البشرية - سيناء. 7. سيناء - الهجرات. أ. العنوان. ب. السلسلة.

915.31

العنوان بالإنكليزية

Egypt's Eastern Gateway:

The Sinai Peninsula as an Avenue for Transportation and Human Migration

by Abbas Mustapha Ammar

الناشر



شارع رقم: 826 ـ منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية ـ الدفنة، ص. ب: 10277 ـ الدوحة ـ قطر
هاتف: 44199777 ـ 00974 فاكس: 44831651 ـ 00974
جادة الجنرال فؤاد شهاب ـ شارع سليم تقلا ـ بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 ـ 11 ـ رياض الصلح ـ بيروت 2180 1107 ـ لبنان
هاتف: 8 ـ 991837 1 ـ 00961 فاكس: 991839 1 - 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org - الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب
عن مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1946

الطبعة الثانية
بيروت، تموز / يوليو 2014

سلسلة «طي الذاكرة»
من طي النسيان إلى طي الذاكرة

بين الذاكرة والتاريخ مسافة زمنية ونفسية تفصل بين حالتين: حالة التذكر عبر استحضار الذاكرة صورًا وأفكارًا ونصوصًا من الماضي، وحالة النسيان حيث يطوي الزمن صفحته على الذاكرة فيقفل عليها، فكأن شيئًا لم يكن من ذكريات ونصوص وصور. ذاك ما يمكن أن نسميه الفراغ في الذاكرة أو الانقطاع في التاريخ، وهذا غير ما يسميه الابستمولوجيون القطيعة التاريخية أو المعرفية، فهذه الأخيرة هي تواصل وتجاوز في الوقت نفسه.

أما المقصود بالانقطاع هنا فهو انقطاع الأفكار ذات الأهمية في المعنى أو الدور، والتي كانت لها ذات يوم، أو أيضًا الأفكار التي كان يمكن أن تحمل جديدًا من المعرفة، أو تميزًا في الموقف، لكن لم يقدّر لها أن تشيع أو تواصل ديمومتها عبر المراحل، فانقطعت عن التداول لسبب من الأسباب. فقد تكون حوربت أو حوصرت أو خضعت لمقص الرقابة أو المنع، أو لم يتيسّر لها قوى اجتماعية (قراءٌ أو ناشرون) تروّج لها أو توصلها إلى الأوساط العلمية والثقافية.

خلال أزمنة النهضة العربية، وخلال ما شهده عمر المطبعة العربية، وهو ليس بالطويل، صدرت منشورات كثيرة، بعضها قُدّر له أن يكون له شأن في الثقافة العربية ولا يزال يصدر، وبعضها الآخر أدى دورًا في لحظة ما، ولكن نسي، وبعضها كان يمكن أن يؤدي دورًا ولكن لم يُنتبه له فأهملته المطبعة ونسي أيضًا.

وإذ درج القول عن شيء نسي إنه «طي النسيان» أي إنه غاب عن الذاكرة أو غُيّب، فنفته هذه الأخيرة إلى عالمٍ مجهول، فإن «طي النسيان» بهذا المعنى

النفسي يبطن معنى اللاوعي؛ ولهذا فإن البحث، في المقابل، عن المنسي من الإصدارات العربية، يفصح عن جهدٍ واعٍ، أي عن وعي منقّب في مجاهل الذاكرة، لاكتشاف معالم ما نسي أو كاد يُنسى ووضعه «طي الذاكرة» لا «طي النسيان»، أي لإعادة الوعي به في تاريخ تسلسل الأفكار العربية وتواصلها، وكي لا تنقطع أزمنة النهضة العربية بين مراحلها وبين كتبها.

بناءً عليه، يُعلن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات عن اعتماد هذه السلسلة «طي الذاكرة» في إصداراته باحثًا عن المنسي والمفيد من الكتب وناشرًا المتميز فيها، منذ بدأت المطبعة العربية بنشر بواكير كتب النهضة وحتى خمسينيات القرن العشرين وستينياته، أملًا بترميم الجسور المعرفية وردم الهوات والثغرات بين عوالم الأفكار ومراحلها وإعادة الوعي والاعتبار لما نُسي أو كاد يُنسى منها.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

المحتويات

تقديم

مداخل سيناء شرقًا وغربًا

أصيبت أوروبا بصدمة ثقافية وساد قادتها حالات من الهلع، حين انتهت حروب الفرنجة في المشرق العربي إلى الفشل في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي (1096-1291). وطرحت تلك الأزمة أسئلة كثيرة: لماذا تعثّرت الحملات؟ ما هي الأخطاء التي ارتكبت؟ كيف السبيل إلى تصحيحها؟ وكان السؤال الكبير: كيف يمكن تجنّب الأخطاء في حال قرّر قادة أوروبا إعادة التجربة وتكرار الحملات؟

آنذاك، أقدمت الكنيسة البابوية على تكليف المؤرخ مارينو سانتو تأليف كتاب عن تلك الحروب والإجابة عن سؤالين، الأول: لماذا فشلت؟ والثاني: ما هي الاقتراحات الواجب اتّباعها للوصول إلى النجاح؟

حصل التكليف في مطلع القرن الرابع عشر، وانتهى سانتو[1] من تأليف موسوعته بين الأعوام 1321 و 1326. الموسوعة تقع في 13 مجلدًا وتشرح أدق التفصيلات التي جرت في فترة الحروب وصولًا إلى تقديم اقتراحات لقادة الدول توضّح أسباب الفشل وتضع الخطط اللازمة لتجنّب السقوط فيها.

المجلّد الأخير هو الأهم لأنّه يفسّر العوامل الجغرافية - البشرية التي أحبطت خطّة السيطرة على المنطقة (القدس وبلاد الشام). ويقدّم الكتاب

(1) Marino Sanudo Tonsello, *The Book of the Secrets of the Faithful of the Cross.*

المشروع البديل في حال قرّرت أوروبا استئناف الحروب وأخذ زمام المبادرة في لحظة الهجوم المضاد[1].

أخطر ما تضمّنه الجزء الأخير من الموسوعة تحديد سانتو السبب الرئيس للفشل وتمثّل برأيه في خطوط مسار الحملات التي تركّزت جغرافيًا على احتلال ساحل بلاد الشام للوصول برًا وبحرًا إلى القدس وإهمال موقع مصر وأهمّيتها الاستراتيجية ووزنها الديمغرافي. ورأى سانتو أن مصر تشكّل قاعدة جغرافية - ديمغرافية للمنطقة وتحتوي على أكبر خزّان بشري يغذّي بلاد الشام باحتياط من الجيوش القادرة على الحماية أو التصدّي أو قيادة المواجهة. وهذا ما فعله صلاح الدين الأيوبي حين قرّر تأجيل المعركة وتأخيرها إلى ما بعد تأمين الجانب المصري (الجبهة الخلفية) وتوحيده مع بلاد الشام قبل أن يباشر هجومه المضاد على الفرنجة. وعلى أساس هذه القراءة قدّم سانتو مشروعه الذي يتضمّن اقتراحات عملية ونصائح للكنيسة وقادة أوروبا في حال قرّروا استئناف المواجهة. وأخطر ما ذكره في خطة مشروعه تركّز على تصويب جغرافيا الحملات فاقترح أن تعطى مصر الأولوية، وبعدها تنطلق الهجمات من سيناء لاحتلال فلسطين والسيطرة على القدس.

حين أنجز سانتو تأليف موسوعته في مطلع القرن الرابع عشر كانت أوروبا تعاني الضعف والفقر وتفشي الأمراض والبطالة. فأوروبا لم تكن في وضع يسمح لها باتّخاذ قرارات مكلفة لمواجهة طرف نجح في إعادة تشكيل قوّته بعد تخبط سياسي شهدته بلاد الشام نتيجة التنافس العباسي - الفاطمي على دمشق والقدس. لذلك قرر قادة أوروبا البحث عن بدائل (ممرات جغرافيّة) وتجنّب الدخول في مواجهات مباشرة مع مراكز خطوط التجارة التي تعبر العالم الإسلامي. وبسبب هذا الضعف أهمل مشروع سانتو ودخل في طي النسيان.

المشروع البديل كان يحتاج وقتًا ويتطلّب تعديل موازين القوى أيضًا حتى لا تصاب أوروبا بالفشل وخيبة الأمل. ولم يمضِ الوقت الطويل حتى أخذت المعادلة تتبدل وبدأت تظهر على السطح علاماتَ ضعف في الجانب العربي - الإسلامي ومعالم قوّة في الجانب الأوروبي.

---

(1) ترجم الجزء الأخير من الموسوعة الأب سليم رزق الله تحت عنوان كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة. وقدّم له سمير علي الخادم، وصدر عن مؤسسة الريحاني للطباعة والنشر في بيروت عام 1991.

قبل ذلك كانت بلاد الرافدين تعرّضت في القرن الثالث عشر إلى موجات من الغزوات المغولية فسقطت بغداد في عام 1258م (656هـ)، وتفككت بلاد الشام إلى دويلات إلى أن نجح المماليك في الحد من آثارها السلبية حين تصدّوا للمغول في معركة عين جالوت (1260م/ 658هـ) ووضعوا حدًا لخطّة تقدّمهم نحو القدس. إلا أنّ المشكلة الكبرى لم تقتصر على غزوات المغول وتفكّك المنطقة إلى دويلات ومراكز قوى مترافقة مع انهيارات في الأندلس، بل زاد الطين بلّة اجتياح الطاعون المشرق العربي والمغرب العربي وموانئ البحر المتوسّط ما أدّى إلى تعطيل خطوط التجارة (النقل والقوافل) وانتشار الذعر خوفًا من اقتراب الحساب ونهاية العالم.

من يقرأ تاريخ ابن خلدون عن المغرب وتاريخ ابن كثير عن المشرق في تغطية حوادث القرن الرابع عشر يجد التشابه بينهما في وصف اندثار القرى وفراغ المدن وانهيار الزراعة والتجارة ورحيل شرائح واسعة من النخب (كبار العلماء والفقهاء والقضاة والأساتذة) بسبب تفشي الوباء الذي اجتاح شواطئ البحر المتوسط. إنّ لحظة الطاعون شكّلت بداية الافتراق. العالم العربي - الإسلامي واجه الوباء بالبكاء والتعاويذ، بينما أوروبا راحت تبحث عن دواء لمقاومته. واختلاف الاستجابة للتحدي بين الطرفين رسم خطوط تمايز أخذت تتسع وتتعمق وصولًا إلى القرن الخامس عشر وبدء البرتغال في اكتشاف خطوط ملاحة بديلة في عهد هنري الفاتح تستغني عن الممرات البحرية والبرية القديمة التي تربط أوروبا بالهند والصين (طريق الحرير). وشكّلت لحظة الدوران حول أفريقيا (رأس الرجاء الصالح) خطوة مفارقة في توازن القوى، إذ أضافت قوة كان لها تأثيرها في انهيار الإمارة الأندلسية الأخيرة في إسبانيا. وسبقت لحظة تسليم غرناطة (مفاتيح القصر الأحمر) وصول كريستوف كولمبوس إلى أميركا في العام 1492، وبدء السفينة عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى التي كان لها الفضل في توسيع الأفق الأوروبي ورفعه عالميًا إلى الأعلى.

لا تعرف اللحظة التي أعيد فيها اكتشاف أوراق سانتو، ولكن المشروع (الأفكار والاقتراحات) استخدم في عملية الهجوم المضاد على المشرق العربي انطلاقًا من مصر وسيناء. فالخطط كانت جاهزة حين بدأ الفيلسوف الألماني غوتفريد فيلهلم ليبنتز (1646-1716) جولته في العواصم الأوروبية

لحثّها على توحيد الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية وتشجيعها على تصدير فائض القوة من القارة إلى دول الجوار في حوض البحر المتوسط.

إنّ مشروع إعادة إحياء الحروب مع الشرق كان في البداية مجرّد فكرة قال بها بعض قادة أوروبا ونخبها، لكن الفكرة كانت تحتاج إلى وقت حتى تصبح جاهزة لتحمل تبعاتها وتداعياتها. واستلزمت لحظة الهجوم المضاد كثيرًا من الوسائل والأدوات، واحتاجت أيضًا إلى خطّة عمل قادرة على كسر معادلة التوازن التي استقرّت عليها ضفاف البحر المتوسط وامتداداته الحضارية من المغرب إلى المشرق.

لم يمض الوقت الطويل حتى جاءت اللحظة حين أخذ فائض القوة في جرجرة الدول الأوروبية الناهضة إلى الاقتتال للسيطرة على القارة الأوروبية. فالمواجهات الممتدة دفعت القادة والنخب إلى البحث عن بدائل والتفكير بحلول تنقل الصراع من داخل القارّة إلى خارجها. والخطوة الحاسمة كانت تحتاج قرارًا يتّخذه جنرال يتمتع بحس المغامرة ويمتلك القدرة على تحمّل المسؤولية، بغض النظر عن الأثمان والنتائج. وجاءت اللحظة التاريخية حين قرر نابليون بونابرت توسيع آفاق المواجهة مع بريطانيا ونقلها من الغرب إلى الشرق بغية التحكّم بمعابر التجارة وخطوط الملاحة البحرية والبرية. واتّجهت البوصلة نحو مصر، فهي مركز الثقل الجغرافي - الديمغرافي وهي المدخل الغربي إلى الشرق، ومن يسيطر عليها يفتح الطريق إلى سيناء وفلسطين (القدس) وساحل بلاد الشام. وهكذا عادت الدائرة إلى المربع الأول حين بدأت الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801) بهدف قطع الطريق بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند وآسيا. فشلت الحملة التي استغرقت ثلاث سنوات في تحقيق أهدافها، وأسفرت عن عودة القوّات الفرنسية إلى أوروبا، ودخول بريطانيا على خط استعادة زمام المبادرة في مصر (بدأ الانتداب في 1882) والبحر الأحمر (خليج عدن) ما أعاد التذكير بالماضي الذي شرح سانتو ثغراته وملابساته وبدائله.

سيناء هي «المدخل الشرقي لمصر» وسيناء أيضًا هي «المدخل الغربي لفلسطين». سابقًا كانت الغزوات (موجات متبادلة) تأتي من بلاد الشام فتعبر سيناء إلى مصر. في العصر الحديث انعكس خط المسار الجغرافي

وبدأت الحملات تأتي إلى مصر ومنها تعبر سيناء للدخول إلى القدس وبلاد الشام.

معابر سيناء

حين صدر كتاب عباس مصطفى عمّار في عام 1946 عن «المدخل الشرقي لمصر - أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للموجات البشرية» كانت مصر وفلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني، ولبنان وسورية تحت الانتداب الفرنسي. والمنطقة كانت منهكة سياسيًا ومنهارة اقتصاديًا وضائعة في خياراتها وتحديد هويّتها.

وضع الكتاب في لحظة انتقالية كان الانتداب فيها يستعد للرحيل، والمنطقة كانت تائهة ولا تعرف ما ينتظرها من صدمات سياسية ستزعزع استقرارها وتعطّل نموّها وتعرقل وحدتها. وجاء كتاب «المدخل الشرقي لمصر» في لحظته، لكنّه لم يلتقط الجانب الآخر من الصورة؛ وهو أن سيناء تشكّل «المدخل الغربي» إلى فلسطين أيضًا. آنذاك كانت مصر بعد خسارة جيشها معركة التل الكبير في عام 1882 تحت الانتداب. وأعقبها أزمة 1906 حين أمر السلطان عبد الحميد الثاني، قبل فترة وجيزة من نهاية عهده، قائد جيشه رشدي باشا بالسيطرة على منطقتي طابا ورفح وضمّهما إلى السيادة العثمانية. أنذرت بريطانيا اسطنبول بضرورة إخلاء المنطقتين، وتألّفت لجنة لفك الاشتباك، وكان نعوم شقير (1864-1922) أمين سرّها العام فاقترح ترسيم الحدود وإقرار حق مصر بالسيادة على طابا ورفح (الحدود الشرقية). وانتهت الأزمة في تشرين الأول/أكتوبر 1906 بتوقيع اتّفاق بين السلطنة العثمانية ومصر يقر بالسيادة المصرية على سيناء[1].

بعد انتهاء الأزمة عكف شقير على تأليف كتاب عن سيناء في العام 1907 مستفيدًا من الخرائط والمعلومات التي تجمّعت لديه في خلال مرحلة التفاوض. لكن الكتاب تأخر صدوره إلى العام 1916. وفي خلال تلك الفترة أخضعت خريطة المشرق العربي لإعادة الهيكلة السياسية بعد أن فشل جمال

(1) راجع في نهاية الكتاب نص اتفاقية 1906 التي وقعتها الدولة العثمانية والحكومة الخديوية بعد احتلال بريطانيا مصر في العام 1882.

باشا (1873-1922) التركي - العثماني في حملته لتحرير السويس سنة 1915 والقضاء على السيطرة البريطانية.

فشل حملة ترعة السويس الأولى (1915) وفشل حملة ترعة السويس الثانية (1916) في معركة رمانة على ضفاف القناة كانت لحظة التراجع التركي - العثماني عن المشرق العربي وبداية الدخول الأوروبي إلى فلسطين وبلاد الشام. فالقوات البريطانية التي كان يقودها أدموند أللنبي (1861-1936) نجحت في عبور سيناء إلى بئر السبع والفوز بمعركة غزة (1917) والتغلغل عسكريًا إلى أن دخل القدس في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1917.

بعد نهاية الحرب العالمية الاولى (1914-1918) انكشفت الأوراق الصفراء، فظهر اتّفاق سايكس - بيكو الذي وقعته بريطانيا وفرنسا في عام 1916 وقضى باقتسام بلاد الشام والعراق بعد تفكك السلطنة العثمانية، كذلك أعلن عن «وعد بلفور» الذي جاء في رسالة وجّهها وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 إلى اللورد ليونيل دي روتشيلد لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

جاء الوعد قبل اتّفاق سان ريمو الذي وقع في المدينة الإيطالية في نيسان/ أبريل 1920 وقضى بمنح فلسطين لبريطانيا لأنّها أرادت إنشاء معبر متواصل من السويس إلى سيناء وحيفا والبحر الأحمر (خليج العقبة) وصولًا إلى اليمن (خليج عدن). وبعد ذلك أقرّت عصبة الأمم، بموجب معاهدة سيفر، الانتداب على فلسطين في 11 أيلول/ سبتمبر 1922 ما أعطى فرصة عمل لبريطانيا لفتح باب الهجرة لليهود وشراء الأراضي بهدف إقامة وطن قومي كما وعد بلفور في رسالته.

عندما كتب عباس مصطفى عمّار (مطلع أربعينيات القرن الماضي) الأستاذ في كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول) أوراقه عن سيناء بوصفها «المدخل الشرقي» لمصر، بناءً على تشجيع من رئيس قسم الجغرافيا في الجامعة الأستاذ مصطفى عامر وسكرتير الجمعية الجغرافية الملكية المصرية المسيو مونييه، كانت فلسطين تعاني سياسة القضم تحت الانتداب البريطاني ولم تكن المنطقة قد تعرّضت للنكبة.

أمضى عباس مصطفى عمّار تسع سنوات في سيناء يدرس جغرافيّتها وتضاريسها وممرّاتها وتشعّب تكوينها السكّاني، إلى أن أنجز دراسته ونشرها في مجلة الجمعية الجغرافية، ثم عاد وجمعها في كتاب. بعد صدور الكتاب في عام 1946 (قبل سنة من صدور قرار التقسيم) جرت وقائع كثيرة، وسيشهد المشرق العربي ومصر تداعيات لا تزال آثارها باقية حتى الآن. فالحرب التي نشبت في فلسطين ضد ميليشيات البلماح والأرغون والهاغاناه وشتيرن ستنتهي إلى فشل وستؤدي إلى ضياع فلسطين في 1948 بناءً على قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1947.

لم تقتصر النكبة على فلسطين بل امتدّت إلى حدود سيناء حين حاصرت القوّات الإسرائيلية في حرب 1948 قرية الفالوجة (تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة غزة) ولم تستسلم إلا بعد مفاوضات خرجت بعدها القوّات المصرية من القرية بقيادة الضابط سيد محمود طه ومعه جمال عبد الناصر. وبعد الفالوجة اتّسع نطاق المواجهة حين شنّت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل العدوان الثلاثي في عام 1956 فاحتلت سيناء بالكامل وصولًا إلى قناة السويس ردًا على إعلان عبد الناصر قرار تأميم قناة السويس. وانتهي العدوان بخروج بريطانيا وفرنسا من المنطقة وانسحاب إسرائيل من سيناء بعد صدور قرار من الأمم المتحدة قضى بنشر قوات طوارئ دولية في منطقة شرم الشيخ المطلة على خليج العقبة.

بعد العدوان الثلاثي ستشهد المنطقة حرب 5 حزيران/ يونيو 1967 التي ستنتهي باحتلال الضفة الغربية والجولان وقطاع غزة وسيناء وسيغلق خط الملاحة في السويس.

لا يعرف إذا كان عباس مصطفى عمّار (توفي 1974) قد تابع بدقّة حرب الاستنزاف (حرب الألف يوم) التي اندلعت على ضفتي قناة السويس بين الجيشين المصري والإسرائيلي، لكن الحرب التي استمرّت نحو ثلاث سنوات انتهت في آب/ أغسطس 1970 حين وافق عبد الناصر على مبادرة وزير الخارجية الأميركي ويليام روجرز. لكن المبادرة فشلت في تأمين حل لأزمة الاحتلال، فاستمرّت مناوشات اللاحرب واللاسلم إلى أن اندلعت حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973.

قلبت حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، وهي الرابعة بين الدول العربية وإسرائيل، المعادلة وغيّرت اتّجاه البوصلة. فبعد أن واجهت مصر حملات من «المدخل الشرقي» تحوّلت القناة وسيناء إلى معبر من «المدخل الغربي» حين نجحت القوات المصرية في اختراق خط بارليف وعبور القناة إلى الضفة الشرقية والتوغل في سيناء بعمق 20 كيلومترًا قبل صدور قرار وقف إطلاق النار (القرار 338) في 22 تشرين الأول/ اكتوبر 1973.

انتهت الحرب رسميًا بفك الاشتباك في أيار/ مايو 1974 وتشكيل قوّة خاصّة للأمم المتحدة للفصل والمراقبة بعد فتح القناة وعودة الملاحة الدولية في حزيران/ يونيو 1975. واستمرّت الهدنة إلى أن تمّ توقيع اتّفاق كامب ديفيد في أيلول/ سبتمبر 1978 إثر مبادرة أنور السادات وزيارته القدس في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1977. وانتهى الاتّفاق بتوقيع معاهدة سلام في 26 آذار/ مارس 1979 بإشراف الولايات المتحدة، تضمّنت تسع مواد رئيسة نصّت على إنهاء حال العداء وجدولة الانسحاب من سيناء واعتبار مضائق تيران وخليج العقبة ممرّات دولية. وتمّ الانسحاب من سيناء على مرحلتين؛ وتضمّنت كل مرحلة جداول فرعية تشمل التوقيت والمساحات وخريطة توضّح أمكنة تمركز القوّات المصرية إلى أن انتهى الانسحاب الشامل والكامل في 25 نيسان/ أبريل 1982، باستثناء شريط طابا الحدودي. لكن مصر استرجعت الشريط بناءً على قرار تحكيم صدر عن محكمة العدل الدولية. غير أنّ ترتيب أبواب «المدخل الشرقي» لم يوقف الحروب، إذ استغلّت إسرائيل لحظة استكمال الانسحاب من سيناء للهجوم على لبنان في 6 حزيران/ يونيو 1982 ومحاصرة بيروت وإجبار القوات الفلسطينية على المغادرة بحرًا والقوات السورية برًا، ما فتح المجال لنمو مقاومة أخذت بالضغط على الاحتلال وصولًا إلى إخراجه من لبنان في 25 أيار/ مايو 2000.

على الجانب الفلسطيني - الإسرائيلي استمرّت المناوشات والضغوط والانتفاضات إلى أن تمّ توقيع اتّفاق أوسلو في 13/ 9/ 1993 الذي تضمّن حق إسرائيل في العيش بسلام مقابل الاعتراف بمنظمة التحرير وحقّها في إقامة سلطة حكم ذاتي انتقالي في الضفة وقطاع غزة. وبعد أوسلو وقع اتّفاق طابا (في سيناء) في 28 أيلول/ سبتمبر 1995 لوقف المواجهات الدامية التي اندلعت بعد مجزرة الحرم الابراهيمي.

شكّل قطاع غزة، بحكم موقعه الجغرافي على خط تماس الحدود، ثغرة تقليدية ساهمت في إعادة صورة سيناء إلى الخريطة. فالقطاع المقطوع الصلة بالبر الفلسطيني منذ سنة 1948 والمطل على المتوسط لا يملك منافذ سوى تلك الممرات التي تربطه بمصر. فالممرات الوعرة في سيناء تحتاج إلى قوّة خلفية لحماية طرق العبور وهذا غير متوافر بسبب منع اتّفاق كامب ديفيد انتشار الجيش المصري بقوة وكثافة على الحدود الفلسطينية - الإسرائيلية.

شجّعت هذه الثغرة الناس على فتح معابر (أنفاق سرية) لربط غزة بالمدى الجغرافي المفتوح على سيناء والسويس ما ساهم في تجسير تلك الهوة وأثار غضب إسرائيل، فأقدمت على محاصرة غزة بعد فوز حماس في الانتخابات التشريعية في عام 2006. اشتدّ حصار غزة وتواصل بعد نجاح حماس في السيطرة على القطاع في 2007 ما دفع الآلاف من السكان إلى اقتحام معبر رفح على الحدود المصرية في 23 كانون الثاني/ يناير 2008 للتزود بالوقود والمواد الغذائية والطبية. لكن إسرائيل لم تتكيّف مع كسر جدار الحصار واختراقه بالمعابر والأنفاق، بناءً على هدنة انتهت في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 2008، فقررت العدوان على غزة ما أدّى إلى اندلاع مواجهات بدأت في كانون الأول/ ديسمبر 2008 وانتهت بوقف إطلاق النار في كانون الثاني/ يناير 2009.

بعد 2009 جرت في سيناء أمور كثيرة، لكونها منطقة مفتوحة على مداخل جغرافيا مصر والمتوسط والبحر الاحمر وفلسطين. فسيناء تعتبر، جرّاء اتّفاق السلام، منطقة رخوة وسهلة الاختراق ما أعطى مساحتها الجغرافية الواسعة والوعرة تلك الأهمية لعبور المجموعات المسلحة بهدف تنشيط العمليات العسكرية وتعزيز قدرات غزة والإمساك بالمجال الحيوي الذي بسببه تتمتع سيناء بمكانة استراتيجية تربط مصر بعمقها العربي المشرقي. وظهرت هذه الأهمية الجيو - سياسية بقوة بعد انتفاضات «الربيع العربي» في 2011 وتعديل صورة النظام في مصر في 2013.

تحوّلت سيناء في وضعها الحالي إلى ما يشبه الأرض المفتوحة على احتمالات واتّجاهات، فهي «المدخل الشرقي» إلى مصر وكذلك هي «المدخل الغربي» إلى فلسطين وبلاد الشام. ولهذه الأسباب مجتمعة يحتل كتاب عباس

مصطفى عمار أهمية خاصّة لكونه أعطى انتباهه المبكر لموقع سيناء ودورها الحيوي في تشكيل ذلك الرابط التاريخي الاستراتيجي - الجغرافي بين أفريقيا وآسيا.

الكتاب غني بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والانثروبولوجية ويستند إلى مصادر تراثية قديمة (ابن إياس، ابن خرداذبة، الأصطخري، حمزة الأصفهاني، القلقشندي) ومراجع عربية حديثة (جرجي زيدان وحسين صادق وعارف العارف ومحمد لبيب البتانوني ونعوم شقير) إضافة إلى وثائق عربية وبريطانية وفرنسية وألمانية ترجع إلى فترات مختلفة، وتقارير رسمية صادرة عن مصلحة خفر السواحل أو مصلحة الحدود أو محفوظات في مكتبة دير سانت كاترين، أو خرائط أشرف على رسمها وجمعها يوسف كمال سنة 1933.

يعرض الكتاب لأهمية شبه جزيرة سيناء الجغرافية (المدخل الرئيس الشرقي) بوصفها كانت المعبر التاريخي الذي اتّخذته الموجات المختلفة من البشر (الغزوات) للدخول إلى مصر (وادي النيل)، أو للخروج منها للغزو أو صد الهجمات. كذلك يعرض لتاريخ مرور التجارة والقوافل ونقل البضائع والمنتوجات بين آسيا وأفريقيا. ويشرح الكتاب جغرافيًا ومناخيًا ممرات سيناء ودروبها ومحطاتها التي كانت تسلكها قوافل الحجاج من بلاد المغرب. كذلك يأتي على ذكر القبائل المهاجرة أو اللاجئة أو المستوطنة (قضاعة، بلى، الصوالحة) مع خرائط وجداول ولوائح توضح توزيعها.

لجميع تلك الأسباب كان لا بد من إعادة تحقيقه، لأنه يضيف معلومات غنية عن أرض شبه منسية، كذلك يقدّم فكرة عن منطقة مهمة تعرّضت للإهمال. فالكتاب جاء في توقيت ملائم، خصوصًا بعد المتغيّرات السياسية في مصر منذ سنة 2011 فصاعدًا، والتي أفسحت في المجال لنمو الفوضى والبؤر المسلحة على قاب قوسين من فلسطين.

وليد نويهض

بيروت، كانون الثاني / يناير

2014

عباس مصطفى عمّار (1904 - 1974)

- ولد في قرية شماء (المنوفية).

- حصل على ليسانس في الآداب (مدرسة المعلمين العليا) سنة 1930، وليسانس في الجغرافيا سنة 1931.

- حصل على الدكتوراه في علم الأجناس من جامعة كيمبردج في شباط/ فبراير سنة 1942. وبدأ التدريس الجامعي بعد عودته من بريطانيا.

- درّس في جامعة فؤاد الأول (القاهرة).

- أمضى تسع سنوات في سيناء يَدرس جغرافيّتها وتكوينها السكّاني.

- تولى وزارة الشؤون الاجتماعية في مصر (1951-1952) في عهد محمد نجيب، وتولى الوزارة ثانية في عهد جمال عبد الناصر (1952-1954).

- تولى وزارة المعارف (1954).

- شغل منصب مدير منظمة العمل الدولية في جنيف، وتولّى موقع نائب الرئيس.

- له مجموعة كتب منها «المدخل الشرقي لمصر» و«علم الأجناس»، و «أبو نواس».

سيناء: الجغرافيا والسكّان

تمثّل سيناء (أرض الفيروز) 6 في المئة من مساحة مصر، ويسكنها 554 ألف نسمة بحسب تقديرات 2011. مركزها الإداري مدينة العريش.

تنقسم إلى محافظتين: شمال سيناء وجنوب سيناء، وثلاث مناطق: العريش في الشمال، وبلاد التيه في الوسط (مركزها مدينة نخل)، والطور في الجنوب وفيها تقع الجبال المرتفعة (جبل موسى وجبل القديسة كاترينا).

يحدّ سيناء شمالًا البحر المتوسّط، وغربًا قناة السويس، وجنوبًا البحر الأحمر. وتعتبر الرابط بين أفريقيا وآسيا عبر الحدود المشتركة مع فلسطين شرقًا.

ذكر بعض المؤرّخين أنّ كلمة سيناء تعني الحجر، ووردت في التوراة باسم حوريب (الخراب). ويرى بعض المؤرّخين أن الاسم مشتق من الإله سين (إله القمر في بابل القديمة).

السكّان

98 في المئة من سكّانها من البدو. وأبرز القبائل البدوية «الترابين» وهي الأكبر في سيناء والنقب، وقبائل السواركة والتياها والعزازمة والحويطات وغيرها. وتوجد عائلات من الجيزة والشرقية سكنت شبه الجزيرة في خلال القرن الماضي فاختلطت بالقبائل. وتوجد مجموعة من العرايشية وهم من نسل الجنود الألبان الذين قدموا مع محمد علي باشا في مطلع القرن التاسع عشر.

الى روح الرائد الأوّل

أحمد محمد حسنين

اعترافًا بما له من أثر كبير في الكشف الجغرافي وارتياد الصحراء

مقدمة

هذا بحث مفصّل في موضوع يمس الدراسة الجغرافية لإقليم من أقاليم القطر المصري، كانت له أهمية كبرى، باعتباره حلقة هامة من حلقات الاتّصال بين مصر وما يجاورها من بلاد الشرق الأوسط والأدنى، كما كان دائمًا المدخل الرئيسي، الذي استخدمه الغزاة دخولًا وخروجًا، واتّخذته الموجات المختلفة معبرًا لها إلى وادي النيل الخصيب.

وسيشعر القارئ بأن هنالك اقتضابًا في بعض النقط وتقصيرًا في استيعاب البحث فيها، وهو في هذا صادق في شعوره مصيب في حكمه؛ وتفسير ذلك أن ما ينشر هنا عن «أهمية سيناء كطريق للمواصلات، ومعبر للهجرات البشرية» إنما هو جزء من بحث طويل، عالج – إلى جانب هذه الناحية التي تدور حولها مادّة هذا الكتاب – جغرافية سيناء الطبيعية والجيولوجية، كما تعرض بالتفصيل لظروفها المناخية ولمصادر الماء وتوزيع العيون والآبار؛ وكل هذه نواح أساسية لفهم الجانب البشري في جغرافية شبه الجزيرة؛ ولو أن الظروف سمحت بنشر البحث كاملًا لاستطاع القارئ أن يرجع في تفاصيل ما اقتضب من بعض أجزاء هذا البحث إلى موضعها الطبيعي من الدراسة.

لقد كان هذا البحث ثمرة لتوجيه أستاذنا الجليل (مصطفى بك عامر)، عندما كان رئيسًا لقسم الجغرافية بجامعة فؤاد الأول، وعندما كنت أعمل تحت إشرافه في كتابة رسالتي لدرجة الماجستير، إذ شاء عزته أن يسد قسم الجغرافية بالجامعة المصرية هذا النقص في دراسة مصر القومية، وأن يقوم طلاب البحث فيه بدراسة أقاليم القطر ومناطقه المختلفة؛ وبذلك يساهمون

في توفير مادة كافية، يمكن أن تكشف عن تفاصيل الحقائق الجغرافية لهذا الجزء من حوض النيل.

وكان لهذا التوجيه الحكيم أثره، فقام طلبة الماجستير بقسم الجغرافية بجامعة فؤاد الأوّل بعدة بحوث جغرافية تعالج عددًا من الأقاليم في الدلتا والصعيد، ولا تزال سياسة الجامعتين ترمي إلى الاستمرار في تشجيع هذا اللون من البحث حتى يشمل أجزاء القطر جميعًا؛ وكل ما نرجوه هو أن تيسر السبل لينشر على الناس أكثر ما يمكن نشره من هذه البحوث، حتى لا تظل المكتبة العربية فقيرة في الدراسات الجغرافية المحلية - كما هي فقيرة في المراجع الجغرافية العامة - ، وحتى لا يبقى هذا النتاج العلمي مقصورًا على القليلين الذين يستطيعون الاطّلاع على أصول هذه الأبحاث... وإذا كان هنالك نشاط مشكور في نشر المخطوطات القديمة، فلا أقل من أن يسير إلى جانب هذا جهود مماثلة لنشر الثقافة الجغرافية، وتعريف المصريين بمقومات البيئة التي شكّلت مجتمعهم، وأثّرت في تطوّرهم، ووجهت تاريخهم القديم والحديث.

ولا يسعني هنا إلا أن أسجّل خالص الشكر للجمعية الجغرافية الملكية المصرية على جهودها في هذا الاتّجاه، وعلى تفضّلها بنشر كتابي عن «أهل مديرية الشرقية»، ثم السماح لي بإعادة طبع هذا البحث عن شبه جزيرة سيناء، وهو بحث نشر بمجلّتها في المجلّدين الحادي والعشرين والثاني والعشرين...

لقد كان لصديقنا الراحل (مسيو مونييه) - الذي أخلص في سكرتارية الجمعية وأفنى حياته في خدمتها - الفضل الأول في تدبير المال اللازم لنشر البحثين في سني الحرب الأخيرة، رغم ندرة الورق وصعوبة الطبع وارتفاع الأسعار.

عباس مصطفى عمار
قسم الجغرافية بجامعة فؤاد الأول
سبتمبر سنة 1946

المدخل الشرقي لمصر
أو
أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات
ومعبر للهجرات البشرية

موقع شبه جزيرة سيناء

ترتبط أهمية المنطقة كطريق للمواصلات بموقعها الجغرافي، وتزيد أهميتها في ذلك أو تنقص تبعًا لما تمليه البيئة الجغرافية من علاقات كبيرة أو صغيرة بين أجزاء ذلك الوسط الذي توجد فيه، وتبعًا لما يكون لتلك المنطقة ذاتها من أهمية تجعل الاتّصال بها مقصودًا لذاته أو تجعلها مقصورة على مجرّد المرور بها إلى غاية أخرى خارج حدودها. وتؤثر طبيعة المنطقة ذاتها في حركة المواصلات بها: فهي تزيدها إن كان الانتقال فيها سهلًا ميسّرًا وهي تضعفها إن كثرت الصعوبات بها فإن استمرت الحركة بها لكونها طريقًا لا غنى في الانتقال عنه فذلك الاستمرار ينقطع حين يوجد طريق آخر أقل صعوبة وأشد تيسيرًا.

والآن ما موقع شبه جزيرة سيناء؟ وما مدى هذه العلاقات التي تمليها البيئة الجغرافية بين الأجزاء المختلفة لهذا الإقليم الذي تقع فيه؟ وهل ننظر إليها كأنها مجرّد طريق للمرور بين الجهات المحيطة بها أم أن في شبه الجزيرة نفسها ما يمكن أن نعتبره غاية تقصد في المواصلات لذاتها؟ ثم إلى أي حد تسهّل طبيعة سيناء الانتقال فيها أو تصعّبه، وما تأثير هذا في حركة المرور بها وتطوّر أهمية النقل فيها تطوّرًا ينتهي إلى ما نراه الآن؟

تقع شبه جزيرة سيناء بين ذراعي البحر الأحمر، إلى شرقي دلتا النيل، وشمال غربي بلاد العرب، وإلى الغرب والجنوب الغربي لشرق الأردن

وفلسطين وسوريا (بلاد الشام)، أي أنها نقطة اتّصال بين الجنوب الغربي لقارة آسيا والشمال الشرقي لقارة أفريقيا. وأهمية هذا الموقع إنما تظهر لنا حين نقارن بين هذه الجهات التي تتوسّطها سيناء لنرى مبلغ التباين في ثروتها وإنتاجها ومقدار الاختلاف في غناها وغلاتها، فذلك هو الذي يحدّد مبلغ ما بين تلك المناطق المختلفة من علاقات، وهذا ما يظهر لنا أهمية سيناء كطريق هام للمواصلات.

أما دلتا النيل فمنطقة تعرف بخصوبتها منذ القدم، يسكنها منذ العصور التاريخية القديمة سكان مستقرون يشتغلون بالزراعة ويتّخذونها حرفة أساسية لهم، والأراضي التي إلى شرقي الدلتا – وإن لم تكن لها أهمية كبيرة في الزراعة – كانت أراضي غنية بمراعيها لا يعتمد نمو حشائشها على ما يسقط من أمطار، وإنما كانت تفيض فروع النيل الشرقية في زمن الفيضان على جوانبها فإذا غاض النهر نمت حشائش كثيرة يمكن أن يعيش على رعيها عدد كبير من الحيوانات[1].

أما المناطق الأخرى التي تحيط بسيناء في آسيا فإذا نحن استثنينا هذه المساحات المحدودة التي تدخل في دائرة الهلال الخصيب، فهي في جملتها مناطق صحراوية يصعب أن تقوم بها زراعة، ويتعذر تبعًا لهذا أن يسكنها قوم مستقرون، وإنما كان – وما يزال – يسكنها في أغلب الحالات جماعات متنقّلة وبدو رحل تتوقف مواردهم الطبيعية على ما يربونه من حيوانات تعيش على هذا الكلأ الذي ينمو على المطر والذي يتوقّف توافره وعدم توافره على ما يصيبهم منه... وشبه جزيرة سيناء نفسها – فيما تدل الدراسة المناخية والنباتية لها – تدخل إلى حد كبير ضمن هذه المناطق الصحراوية، وما يمكن أن يسكنها – كما سنرى في دراسة سكانها – إلا بدو رحّل، إن وجدت بينهم جماعات مستقرة فهي جماعات قليلة العدد، تنحصر مناطق سكناها في جهات محدودة في سيناء لا يمكن أن تتعداها.

---

(1) تقع أرض جاسان (Goshen) التي كان يسكنها الإسرائيليون ويشتغلون بالرعي فيها إلى شرقي الدلتا. والمؤرخون يختلفون في تعيين حدودها بالدقة وهذا لا يعنينا كثيرًا في هذا البحث وإنما الذي يهمنا أن نلاحظ أن أرض جاسان هذه كانت مناطق غنية بمراعيها.

راجع: R. H. Brown, *The Land of Goshen and the Exodus* (1899), pp. 28-33.

هذا التباين بين جهات زراعية غنية في وسط الدلتا ومراع تضمن حشائشها إلى الشرق منها، وبين مناطق صحراوية لا يضمن الكل فيها، من شأنه أن يغري سكان الصحراء بأن يزحفوا على المناطق الزراعية طمعًا في ثروتها. وهذا أمر يشير إليه علماء الجغرافية الاجتماعية دائمًا، ويعرفه الذين يدرسون البيئات المختلفة ويحللون حياة الجماعات فيها[1]. بل أن تاريخ غرب آسيا – فيما يقول الأستاذ برستد[2] – إنما يمكن وصفه بأنه صراع وتنازع بين سكان الجبال وسكان الصحراء على امتلاك أراضي الهلال الخصيب التي تحف بالصحراء[3]. وإذا كان «برستد» قد تكلم على هذا الصراع وعلاقته بغزو السهول الخصيبة في بلاد الجزيرة وسهول الشام، فإن تاريخ مصر قد شهد لونًا من هذه الغزوات السّامية المتتابعة، تشتد حينًا وتضعف حينًا آخر، لكنها فيما يؤكّد المؤرّخون كانت دائمة مستمرة. وإذا كان سكان سيناء كثيري الإغارة على مقاطعات مصر الشرقية، يهددونها ويقلقون راحة سكانها، وكان حكام مصر يضطرون إلى تجريد الحملات الكثيرة لتأديبهم، فإن غزوات للبدو كانت تأتي من خارج سيناء، تقطع شبه الجزيرة وتغير على الأراضي الغنية في الدلتا بشكل خاص... ومن الصعب علينا أن نعين بالضبط بدء هذه الغزوات إذ لم يدون منها إلا الغزوات الكبيرة ذات الأثر في تاريخ مصر كغزوة (الهكسوس)[4] مثلًا، لكن الوثائق والكتابات المصرية تدل على أن تلك الغزوات سابقة لعصر الأسرات[5]؛ بل إن بعض الكتاب يغلو فيرجع هذه الغزوات إلى الأيام

---

(1) راجع الفصل الرابع عشر سيما الصفحات من 490 إلى 493 في كتاب: Ellen Semple, *Influences of Geographic Environment* (1911).

(2) ج. هنري برستد (1865–1935) عالم آثار ومؤرخ أميركي. حصل على دكتوراه من جامعة برلين 1894 ودرَّس في جامعة شيكاغو. عيّن في 1951 مديرًا لمتحف هاسكل الشرقي في شيكاغو. تركّزت دراساته على مصر. أصبح في 1905 استاذًا وشغل أوّل كرسي للمصريات والتاريخ الشرقي في الولايات المتحدة. أسّس في 1919 المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو (م).

(3) راجع: James H. Breasted, *Ancient Times, a History of the Early World* (1916), p. 101.

(4) الهكسوس شعوب بدوية من أصول مختلفة دخلت مصر من الشرق (سيناء) ويرجّح أنّهم من أصول آسيوية متعدّدة الأعراق. احتلّ الهكسوس مصر نحو مئة عام وخرجوا بعد مقاومة عنيفة من الشعب في عهد الملك أحمس الأول (1550–1525ق.م.) (م).

(5) عصر الأسرات يضم الأسرتين الأولى والثانية اللتين يبدأ بهما التاريخ المدوّن لمصر (3200–2780ق. م.). بدأت هذه الفترة مع توحيد الملك مينا لمصر العليا والسفلى وإنشاء عاصمة سمّيت منف (م).

التي كانت تحكم فيها مصر بالآلهة - كما تشير (الميثولوجيا) المصرية - حتى لقد كان على الآلهة أن يقوا أنفسهم شر هؤلاء البدو الغزاة !![1].

هذه الغزوات كانت متتابعة مما اضطر فراعنة مصر إلى تحصين حدود مصر الشرقية ببناء حائط كامل - في رأي بعض المؤرخين - أو بناء حاميات وقلاع حربية في رأى كتاب آخرين. ولا أدل على كثرة هذه الغزوات من أن هذه المقاطعة الشمالية الشرقية في مصر السفلى كانت تأخذ اسم (المقاطعة العربية)، ومن أن القساوسة كانوا يشيرون اليها في كتبهم المقدسة على أنها مكان سكني (تيفون Typhon) العدو اللدود للخصوبة والعائق الأكبر لسعادة مصر[2]؛ وكان يشجع هذه الغارات ويقويها ضعف مصر من ناحية، وسوء الحالة النباتية في الصحاري من ناحية أخرى. وإذا كان (هنتنجتون) يربط هذه الغزوات بنظريته في الجفاف ويعتبر أن تلك الغارات المختلفة إنما دعت إليها تغيّرات في الحالة المناخية، فإنا لا نستطيع أن نقبل هذا الرأي إطلاقًا بل نرى أن من هذه الغزوات ما لم يكن بحاجة إلى تغيّرات مناخية في المناطق الصحراوية؛ إذ أن مجرد التباين بين غنى الأراضي الزراعية وبين فقر الصحراء كاف، كما قلنا، لأن يغري البدوي بأن يغير على الجهات الزراعية[3] عندما يلمس في حكام المناطق الزراعية المجاورة ضعفًا.

تلك إذًا هي أول أهمية لسيناء في المرور: كان البدو يقطعونها في طريقهم إلى الأراضي المصرية في شكل موجات فردية وجماعات قليلة، أو في شكل غزوات كبيرة منظمة أظهرها غزوة الهكسوس. كما أن غزوة العرب أيام التوسع الإسلامي في نظر كثير من الكتاب لا تختلف عن الغزوات السابقة، إلا في أنها أكثر تنظيمًا وإلا في أنه قد يكون للدافع الديني شيء من الأثر إلى جانب ذلك الدافع الاقتصادي الذي لا نستطيع له إنكارًا... وإذا كانت شبه جزيرة

---

(1) راجع: G. Maspero, *The Dawn of Civilization* (1896), p. 357.

(2) راجع: Jean-François Champollion, *L'Egypte sous les Pharaons*, vol. 2. pp. 87-88.

(3) راجع: Ellsworth Huntington: *The Pulse of Progress* (1926), and *Palestine and its Transformation* (1911).

يربط (هنتنجتون) غزوات البدو بتغيير المناخ، ويأخذ هذه الغزوات برهانًا يؤيد به رأيه. وإذا كنا لم نسايره إلى هذا المدى البعيد الذي ذهب إليه، فذلك لا يمنع من أن بعض الغزوات سببها تغيير في حالة المناخ، لا سيما تلك الغزوات الكبيرة العدد التي يأتي البدو فيها ومعهم أطفالهم ونساؤهم.

سيناء قد شهدت مرور هذه الجماعات البدوية في عنفها تعبرها بدافع الاستيلاء على خيرات الأراضي الزراعية، فقد شهدت كذلك موجات أخرى سلمية، ما جاءت لتغزو وتنهب وإنما جاءت لتسكن وتعيش في مناطق تفيض بخيراتها؛ من تلك هجرات «الكنعانيين» التي شجّعها حكم الهكسوس في مصر، ومنها هذه القبائل التي سمح لها بأن تهاجر من (ايدوميا) لترعى قطعانها ولتعيش في أرض فرعون مصر (منفتاح[1])[2]، وتلك القبائل العربية التي كان يشجعها ولاة مصر في العهد[3] الإسلامي على أن تهاجر من بلاد العرب وبلاد الشام لتسكن مصر وتستقر فيها والتي ظلت تفد إلى مصر حتى عهد قريب.

أهمية سيناء الحربية

على أن مرور الغزاة عبر سيناء لم يقتصر على هؤلاء البدو الرعاة، بل لقد شهدت شبه الجزيرة في الزمن القديم وفي العصور الوسطى والتاريخ الحديث غزوات جيوش منظمة، قطعتها قادمة إلى مصر حين لمست في حكامها ضعفًا وقطعتها راجعة إلى آسيا ثانية حين قوي ملوك مصر على طردها. بل ان مصر نفسها كثيرًا ما اتّخذت سيناء طريقًا لتوسعها الخارجي حين يشتد بأسها فتمد نفوذها على بلاد الشام، وتبسط سلطانها على أراضي الجزيرة وتخضع الأشوريين والبابليين. والذي يتتبع تاريخ مصر في مراحله المختلفة ويدرس الحوادث التي مرت بها، يرى أن مصر بعد طرد (الهكسوس) في أيام «أحمس»[4] قد دخلت في طور فتح جديد في آسيا وأن حرب الاستقلال

---

(1) منفتاح ابن رمسيس الثاني من الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة. وخلال حكمه خرج بنو إسرائيل من مصر في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد (م).

(2) هذا مأخوذ من ورقة بردي محفوظة الآن بالمتحف البريطاني تعرف باسم «The Papyrus of Anastasi VI».

راجع: Brown, p. 35, and Henery Spencer Palmer, *Sinai from the Fourth Egyptian Dynasty to the Present Day* (1892), p. 154.

(3) راجع كتاب البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزي.

(4) أحمس فرعون مصر القديمة ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة. ابن الفرعون سقنن رع وشقيق الفرعون الأخير من الأسرة السابعة عشرة. في عهد والده تمرّدت طيبة على الهكسوس، وتولى الحكم بعد وفاة شقيقه الملك كامس. طرد في خلال فترة حكمه الهكسوس من منطقة الدلتا نحو العام 1580 ق. م.، واستعادت طيبة سيادتها على جميع أنحاء مصر، وبدأ بوضع الأسس لعصر الدولة الحديثة، ووصلت مصر إلى ذروتها (م).

والتخلص من هؤلاء الرعاة قد نفخ في المصريين روحًا حربية قوية، ومن هنا ظهر نشاط الأسرة الثامنة عشرة أيام «تحتمس الأول»[1] الذي قطع سيناء إلى بلاد النهرين، وأيام «تحتمس الثالث»[2] الذي خلدت غزواته على جدران معبد الكرنك... وإذا كان حكم «اخناتون»[3] قد أضاع على مصر شيئًا من أملاكها في آسيا، فإن ملوك الأسرة التاسعة عشرة - سيما رمسيس الأكبر[4] - قد حملوا حملاتهم عبر سيناء فأدبوا (الحيثيين) وأعادوا إلى مصر رهبتها وأخضعوا تلك البلاد لمصر خضوعًا تامًا.

ثم تدخل مصر في فترات ضعفها، ويتنازع حكمها الشعوب المجاورة، فيظهر الأشوريون في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ويقوى الفرس فيتغلبوا على جهات آسيا الغربية ويدخل «قمبيز»[5] مصر منتصرًا عام 525 قبل الميلاد، وتظل مصر خاضعة للفرس إلى أن تنتقل إلى حكم «الاسكندر»[6] الذي قطعت جيوشه سيناء ووصلت إلى مصر في الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد.

---

(1) تحتمس الأول هو الفرعون الثالث (1506-1493ق. م.) من الأسرة الثامنة عشرة. اعتلى العرش بعد وفاة الفرعون امنحتب الأوّل. قام بحملات في بلاد الشام والنوبة، وبنى المعابد في وادي الملوك (م).

(2) تحتمس الثالث سادس فراعنة الأسرة الثامنة عشرة (1425ق. م.) ويعتبر أعظمهم. أسّس أول امبراطورية في ذلك العصر واستمرّت من العام 1070 قبل الميلاد حتى عهد رمسيس الحادي عشر (م).

(3) اخناتون عرف أيضًا بـ أمنحتب الرابع. كان فرعوناً من الأسرة الثامنة عشرة. حكم مصر 17 عامًا، ويرجّح أنّه توفي في 1336ق. م. اشتهر بتخلّيه عن تعدّد الآلهة وإدخال عبادة توحيديّة جديدة تركّزت على آتون. بعد وفاته تمّ استعادة الممارسة الدينيّة التقليديّة تدريجًا (م).

(4) رمسيس الأكبر هو رمسيس الثاني (1303-1213ق. م). كان الفرعون الثالث من حكّام الأسرة التاسعة عشرة، وينظر إليه على أنّه الأنوى طيلة عهد الإمبراطورية المصرية. قاد حملات إلى بلاد الشام وأعاد السيطرة على أرض كنعان. عرف عهده ببناء المدن والمعابد وأسس مدينة بي رمسيس عاصمة جديدة في دلتا النيل (م).

(5) قمبيز ملك الفرس ابن الملك قورش. غزا مصر سنة 525ق. م.، ولقّب بـ حورس (موحّد الأرضين). قام بتهديم معابد هليوبوليس وحرقها. عاد إلى بلاده لقمع ثورة قادها شقيقه سمردس. ومات مسمومًا بسهم (م).

(6) الإسكندر هو الإسكندر الثالث المقدوني الأكبر (ذو القرنين). هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق. خلف والده فيليب الثاني (الأعور) على عرش البلاد سنة 336ق. م. ولد في مدينة بيلا نحو سنة 356ق. م. أشرف الفيلسوف أرسطو على تعليمه. أسّس امبراطوريّة واسعة وغزا العراق وفارس والهند وساحل الشام ومصر. بنى أكثر من 20 مدينة تحمل اسمه أشهرها مدينة الاسكندرية. توفّي في مدينة بابل سنة 323ق. م. (م).

ويحكم «البطالسة»[1] مصر بعد موت «الاسكندر» فتعود مصر إلى التوسع الخارجي، وتعبر جيوشها شبه الجزيرة لتسترد بعض أراضي فلسطين، وتنتقل السلطة إلى روما فتستمر مصر في يدهم حتى تأتي جيوش المسلمين قاطعة سيناء فتسقط مصر في أيديهم عام 641 بعد الميلاد... وكذلك تستمر حركة الجيوش عبر شبه الجزيرة من مصر وإليها في أيام الصليبيين والمماليك والأتراك العثمانيين، وتأتي الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر فيجرد (نابليون)[2] حملته على بلاد الشام، ويحكم «محمد علي» فتتجه أطماعه إلى الشرق وتصل جيوشه إلى بلاد الأناضول، فإذا وقعت مصر تحت الحكم البريطاني عقب الاحتلال أصبحت سيناء حلقة الاتّصال بينها وبين أملاك الدولة العثمانية. ولما كانت الحرب الماضية وحاربت تركيا ضد الحلفاء، ظهرت الحملة التركية في سيناء وقطعت شبه الجزيرة مرتين لتهاجم القناة. ثم رأى الإنجليز ألا بد من أن يجعلوا هذه القناة بعيدة عن الغزو فتحركت جيوشهم قاطعة شبه الجزيرة لتجعل خط الدفاع عن القنال في أرض فلسطين.

مثل هذا التلخيص للحملات المختلفة التي عبرت سيناء يرينا في وضوح الأهمية الحربية لشبه الجزيرة، ويبرز لنا المكانة التي تأخذها سيناء كطريق مرور للجيوش بين آسيا وشمال أفريقيا الشرقي. ولقد حاول (جارفس بك) - محافظ سيناء السابق - في مقدمة كتابه عن شبه الجزيرة أن يصور لنا هذه الأهمية الحربية تصويرًا أساسه المقارنة، ونحن نثبت هنا الفقرة التالية من كلامه فهي تعبير لرجل حربي نقيم لكلامه في هذه الناحية وزنًا كبيرًا. وسنراه يحكم حكمًا تؤيده تلك الغزوات الكثيرة التي عددناها في الفترات المختلفة من تاريخ مصر.

---

(1) البطالسة نسبة إلى بطليموس. اسم أطلق على ملوك مصر الهلنستيين من ذوي الأصول الإغريقية. حكموا مصر من 306-30 ق. م. وعددهم 16 حاكمًا، أشهرهم بطليموس الأول (360-283ق. م.)، وبطليموس الثاني (282-246ق. م.)، وبطليموس الثالث (246-221ق. م.)، وكليوباترا التي حكمت مصر من 51-30 ق. م. (م).

(2) نابليون بونابرت الأول قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين (1804-1815). ولد في جزيرة كورسيكا في 1769، وأنهى دروسه الحربية سنة 1785 وبزغ نجمه في عهد الجمهورية الفرنسية الأولى. شنّ حملة عسكريّة على مصر في 1798 زاعمًا أنّه اعتنق الإسلام. وقام بغزو فلسطين وفشل في احتلال عكا (في زمن أحمد باشا) فتراجع إلى مصر سنة 1799. وعاد بعدها إلى فرنسا ليتوّج لاحقًا على عرشها الإمبراطوري. خاض الحروب في أوروبا وضد روسيا إلى أن هُزم في معركة واترلو عام 1815 (م).

"Though a desert – or. to be more exact. a wilderness – Sinai, by reason of its Geographical position as the link between Asia and Africa. always has been and will be of considerable importance, and as a battle – field has seen more invading and retreating armies passing through than any other country in the world – Belgium is not excepted"[1].

وهناك نقطة ينبغي أن نشير إليها لما لها من أهمية في إعطاء شبه الجزيرة مركزًا حربيًا ممتازًا لم يكن لها من قبل: ذلك أنه قبل حفر قناة السويس كان الدفاع عن مصر يركز في برزخ السويس، في تلك الحصون والقلاع القائمة على حدود شبه الجزيرة الغربية، وما كانت الجيوش التي تقطع المنطقة لتجد حاميات لها قيمة إلا إذا وصلت مدينة (بيلوز) التي كانت أهم الحصون في الدفاع عن مصر ضد غارات المغيرين. لكن حفر القناة غيّر من هذا تغييرًا كليًا وجعل الذين يهتمون بسلامة القناة ينظرون إلى حدود سيناء الشرقية كمنطقة للدفاع عن القناة، وبهذا زادت أهمية سيناء الحربية وأصبح الإنجليز ينظرون إليها كمنطقة لا غنى عنها لتأمين القناة، الشريان الهام في جسم الإمبراطورية. فهذه القناة طريق مواصلات هام وليست قناة يقصد بحفرها أن تكون كالخنادق تقف في وجه العدو المهاجم لمصر من الشرق وتعطل تقدمه فيكتفي بتحصين شواطئها الغربية ليتم بذلك الدفاع عن مصر، ومن الضروري إذًا أن تظل حركة الملاحة فيها مستمرة تنقل لإنجلترا في أوقات الحرب المواد الغذائية والجند المحاربين، وتسهل مرور الأساطيل لحماية أجزاء الامبراطورية في الهند وأستراليا بشكل خاص؛ فإذا جعلت القناة منطقة دفاع تدور رحى الحرب على ضفّتيها عاق ذلك حركة القناة من غير شك وهدد السفن التي تمر بها، وإذا استطاع العدو أن يغرق بها سفينة واحدة عطلت حركة المرور بها، وقد يكون لذلك في أوقات الحروب أثر في تغيير مجرى الحوادث تغييرًا تامًا[2].

ولقد ظهرت هذه النقطة واضحة تمامًا في الحرب الماضية. إذ كان هنالك رأيان في مسألة الدفاع عن القناة: أحدهما يرى ألا ضرورة للتقدّم في سيناء، والثاني يقول بذلك ويلح فيه[3]. وإذا كان الرأي الأول هو الذي تغلب في الفترة التي تولى القيادة فيها السير مكسويل (Sir J. MAXWELL) حيث رأى إن خط

---

(1) راجع: C. S. Jarvis, *Yesterday and Today in Sinai* (1933), p. 1.

(2) راجع: R. A. M. C. Serjeant-Major, *With the R. A. M. C. in Egypt* (1918), p. 83.

(3) P. G. Elgood, *Egypt and the Army* (1924), p. 121.

الدفاع عن حدود مصر الشرقية إنما ينبغي أن يكون قناة السويس نفسها فما نظن أن ذلك يناقض ما ذهبنا إليه، بل كل ما في الأمر أن أنصار ذلك الرأي كانوا يستبعدون غزو الأتراك لمصر من ناحية سيناء لأن تلك الصحراء في نظرهم لا يسهل على الجيوش أن تقطعها. ولو أنهم كانوا يرون إمكان ذلك لما وجدنا هذا الخلاف على ضرورة التقدم في سيناء يظهر بين رجال الحرب في منطقة القناة[1]، ولذا نجد أن تقدم الحملة التركية الأولى (أوائل سنة 1915) من «بئر السبع» وهجومها على القناة في منطقة «الإسماعيلية» وإن انتهى بالفشل إلا أنه غير الرأي في مسألة الدفاع عن القناة تغييرًا تامًا. وها هو نص ما جاء في الجزء الأول من تاريخ الحرب العظمى الذي يعتمد على الوثائق الرسمية وهو يؤيد هذه الوجهة التي ذهبنا إليها:

"In Dec. 1915 (بعد هجوم الحملة التركية الأولى) the policy of defending the Suez-Canal upon its own banks had now been definitely abandoned. It had been decided, as has been recorded, that the line of resistance must be far enough to the east to deny the Canal to the fire of hostile artillery..."[2].

ولم يكد السير مري (Sir A. MURRAY) يتولى القيادة في أوائل سنة 1916 خلفًا للسير (مكسويل) حتى رأينا هذه السياسة الجديدة تتغلب ورأينا الخطط اللازمة لذلك التقدم على سيناء ترسم: فتُشترى الإبل، ويُفكر جديًا في مد الخط الحديدي شرقي القنطرة إلى «قاطية» أولًا ثم إلى «العريش» وما بعدها...[3] ويكفي أن نثبت هنا هذه الفقرات من خطاب أرسله السير (مري) بتاريخ 15 فبراير سنة 1916 إلى القيادة العليا ففيها رأيه في تلك النقطة صريحًا جدًا:

"It is clear that the security of Egypt against an attack from the east is not best assured by the construction of a great defensive position in proximity to Suez – Canal... In order to effect the object aimed at. it would be far preferable to push out across the Sinai Penin. towards the Egyptian frontiers"[4].

---

(1) راجع: Elgood, p. 67.

(2) راجع: History of the Great War (Based on the Official Documents): *Military Operations*: *Egypt and Palestine*, Compiled by George Macmunn and Cyril Falls, 2 vols in 3 (1928-1930), vol. 1, p. 89.

(3) راجع الكتاب السابق صفحة 157 وستجد فيه خطابًا من (السير مري) إلى (سير روبرتسن) في 15 فبراير سنة 1916 يصرح فيه بأن خير طريقة للدفاع عن مصر من الشرق هي التقدم إلى العريش.

(4) راجع كتاب تاريخ الحرب العظمى السابق جزء أول صفحتي 170 و 171. وراجع: Sergeant-Major, p. 84.

أهمية سيناء في مرور التجارة

وسنترك الآن أهمية سيناء كطريق لمرور الجيوش والغزوات إلى أهمّيتها كطريق لمرور القوافل التجارية ونقل البضائع والحاصلات بين أفريقيا وآسيا. وهنا يحسن أن نفرق بين مرور تجارة الشرق الأقصى والأوسط وبلاد العرب في طريقها إلى مصر وبلاد الغرب من جهة، وبين مرور تجارة شمال بلاد العرب وبلاد العراق والشام بشبه جزيرة سيناء في طريقها إلى مصر من جهة أخرى، فنصيب سيناء من مرور تجارة هذه المناطق بها ومدى تفوق الطرق الأخرى عليها في اجتذاب تلك التجارة يجعلنا نميل إلى ذلك التفريق.

أما تجارة الشرق الأقصى والأوسط وجنوب بلاد العرب فما نظن أن سيناء قد أصابها من مرور تجارتها حظ كبير: لأن تجارة الشرق الأقصى في طريقها إلى أوروبا كانت تفضل طرقًا أخرى كثيرة منها ما يقطع وسط آسيا ويحف ببحر قزوين، ومنها ما يصل إلى الخليج الفارسي ويأخذ طريقه في الهلال الخصيب والصحراء السورية إلى البحر الأبيض، وجزء قليل من التجارة - فيما تقول الكتابات الصينية - كان يدور حول الجزيرة العربية إلى موانئ البحر الأحمر الشمالية مثل (هواره 'Leuce' Come) و(ايله) على رأس خليج العقبة ثم تنقل منها إلى موانئ البحر الأبيض وموانئ سوريا وفينيقيا ليتم صناعتها قبل أن تعرض في الأسواق[1]. فإذا كان يصل إلى مصر شيء من هذه التجارة فالغالب أنها ما كانت تقطع سيناء متفرعة من التجارة الذاهبة إلى موانئ الشام على ساحل البحر الأبيض، وإنما كان يفضل أن تنقل من موانئ البحر الأحمر على شاطئ بلاد العرب إلى موانئ مصر الواقعة على هذا البحر.

والتجارة بين الشرق الأوسط وبين أوربا، تلك التجارة التي كانت لها أهميتها منذ القدم والتي كانت تغري التجار بأرباحها الطائلة، إذ كانت العطور مثلًا تباع بمائة أمثالها ذهبًا، مما أدى إلى تنافس شديد بين الطرق عليها.

---

(1) يرى F. Firth إن Ta Ts'in التي تقول الكتابات الصينية أن تجارة الصين كانت تنتهي إليها على البحر الأحمر هي (ايله) وليست إحدى الموانئ المصرية الواقعة على خليج السويس، وهو يعتمد في ذلك على أن البضائع الصينية تختلف عن البضائع الهندية في أن الأولى معظمها من المنسوجات الحريرية التي يجب أن تتم صناعتها وأن يعاد نسجها قبل أن تطرح في الأسواق (راجع صفحة 100 من رسالة الأستاذ حزين عن العلاقات الثقافية والتجارية بين الشرق العربي والشرق الأقصى في الفترتين الإغريقية الرومانية والفارسية العربية التي كتبها في 1933) وراجع أيضًا كتابه: S. A. Huzayyin, *Arabia and the Far East; their Commercial and Cultural Relation in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times* (Cairo: [s. n.], 1942), p. 101.

تُرى هل كان يمر بسيناء شيء كبير من هذه التجارة؟ الجواب على ذلك بالنفي أيضًا. فنحن إن تركنا الطرق الأخرى التي كانت تسلكها تجارة الشرق الأوسط بعيدًا عن منطقة البحر الأحمر وركزنا بحثنا في تلك المنطقة وحدها، فالكتابات المختلفة وإن أشارت إلى الصعوبات التي كانت تلقاها السفن في الوصول من الهند إلى البحر الأحمر قبل اكتشاف الرياح الموسمية في القرن الميلادي الأول، تجمع على أن تجارة هذا الشرق الأوسط من توابل وعطور وبعض المنسوجات والأحجار الكريمة كانت تتجمع في موانئ الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية ليتحكم فيها ملوك سبأ و«الحميريون» أو في (هواره Leuce' Come') إلى الشمال من ذلك ثم ينقل جزء منها بالطرق المختلفة إلى المركز التجاري المعروف (بالبطراء) في بلاد النبط لتحف بشبه جزيرة سيناء من الشرق في طريقها إلى موانئ البحر الأبيض. ونصيب مصر من هذه التجارة كانت غالبيته تنقل بالسفن من موانئ البحر الأحمر العربية إلى موانيه المصرية المختلفة فلا يأتي إليها عبر سيناء من تلك التجارة إلا جزء قليل... وإذا كان هناك ما يدعو إلى أن تفضل التجارة طريق سيناء في بعض الفترات فإن المجهودات التي قام بها البطالسة والرومان في تحسين الموانئ المصرية على البحر الأحمر وتسهيل اتّصالها بداخل مصر بطرق المواصلات المختلفة، من شأنه أن يضعف ذلك ويحول عن سيناء ما كان يمر بها من تجارة المحيط الهندي[1]... وما قيل عن تجارة الشرق الأوسط يمكن أن يقال تمامًا عن منتجات جنوب بلاد العرب التي كان المصريون يحتاجون إليها في التحنيط والطقوس الدينية: فالمر والعطور وما إليها كانت تنقلها السفن إلى الموانئ المصرية على البحر الأحمر مثل (برنيس) و(Myos Hormos) تلك الموانئ التي كانت تتبادل الأهمية فترة بعد أخرى.

على أنه إذا كان حظ سيناء من مرور متاجر الشرق الأوسط وجنوب بلاد العرب قليلًا، فما يجب أن ننسى أن الجانب الغربي لشبه جزيرة سيناء كان في بعض الفترات التاريخية طريقًا مهمًا لمرور تلك التجارة إلى القطر المصري، وأن الحاصلات التي كانت تأتي من المحيط الهندي وجنوب بلاد العرب

(1) يمكن الرجوع إلى مجهودات البطالسة والرومان في تحسين موانئ البحر الأحمر المصرية والطرق التي كانت تربطها بالداخل في كتب التاريخ التي كتبت عن مصر في عصر البطالسة والرومان مثل:
Edwyn Bevan, *A History of Egypt, 4: Under the Ptolemaic Dynasty* (Londonn: Methuen, 1927) pp. 154-155, and Martin P. Charlesworth, *Trade-Routes and Commerce of the Roman Empire* (1926).

فتخزن في موانئ البحر الأحمر العربية، كانت في تلك الفترات تنقل بالمراكب إلى ميناء (الطور) – Raithou – قديمًا لتحملها القوافل إلى القطر المصري بمحاذاة الجانب الأيمن لخليج السويس... حقيقة إن المعلومات عن ميناء (الطور) حتى العصور الوسطى معلومات ضئيلة لا يمكن أن يستنتج منها شيء عن مركز تلك الميناء[1]، لكنّها تظهر في كتابة جغرافيي العرب (كالقلقشندي[2] والمقريزي[3]) وغيرهما منافسة ميناء السويس من جهة ومينائي «عيذاب» و«القصير» من جهة أخرى مدة النصف الأول من القرن الحادي عشر، وابتداء من النصف الأخير من القرن الرابع عشر (1358 في رأي المقريزي و1378 في رأي القلقشندي). ويمكن أن نميز في تاريخ نقل التجارة بين الشرق الأوسط ومصر عن طريق البحر الأحمر أربع فترات تتناوبها الموانئ المصرية المختلفة

---

(1) راجع: Claude Ptolémée, *Geographia*, Edited by C. Muller, vol. 16, pp. 993-995.

(2) القلقشندي، شهاب الدين (أبو العباس) ولد في (756-821هـ/ 1355-1418م) في قرية قلقشندة في محافظة القليوبية (من قبيلة فزارة الغطفانية العربية) ودرس في القاهرة والاسكندرية وبرع في الأدب والبلاغة والإنشاء والفقه على المذهب الشافعي. التحق بديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر برقوق سنة 791هـ واستمر في منصبه إلى العام 801هـ. بدأ بتأليف موسوعته «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» سنة 805هـ وفرغ منها في سنة 814هـ. رتب القلقشندي موسوعته على عشر مقالات مع مقدّمة تناول فيها المسائل التمهيدية عن فضل الكتابة وصفات الكتّاب وآدابهم وتاريخ الإنشاء وتطور فنه عبر العصور. وله أيضًا «مآثر الأنافة في معرفة الخلافة» و «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب» و «قلائد الجمان في معرفة عرب الزمان». وكتب في الفقه الشافعي وله في هذا الحقل كتاب «الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع» (م).

(3) المقريزي، تقي الدين (أحمد بن علي) ولد وتوفي في القاهرة (764-845هـ/ 1364-1442م). مؤرّخ على المذهب الشافعي، بحث في أصول البشر والديانات. اتهمه السخاوي بعدم الدقة في روايات الحوادث، بينما مدحه ابن حجر (شيخ السخاوي) وشهد له بقوة النظم والنثر. ألّف كثيرًا في التاريخ وزادت كتبه على 200 مجلّد. شغل عدداً من الوظائف وعمل مع الظاهر برقوق ودخل دمشق مع ولده الناصر سنة 810هـ.

ترجم المستشرق كواتر مير قسمًا كبيرًا من كتاب «السلوك» وخصوصًا ما يتعلق بمرحلة حكم المماليك لمصر. كذلك ترجم المستشرق بلوشيت بعض ما كتبه المقريزي عن تاريخ مصر. تتلمذ كثير من المؤرخين بإشرافه مثل يوسف بن تغري بردي (أبو المحاسن) صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». أهم مؤلفات المقريزي «السلوك لمعرفة دول الملوك» و«عقد جواهر الإسقاط من أخبار مدينة الفسطاط» و«اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا» و«إغاثة الأمة بكشف الغمة» و«شذور العقود في ذكر النقود» و«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» و «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب» و «المقفى الكبير». عاش المقريزي شطرًا من حياته في عهد المماليك البحرية وشطرًا في عهد المماليك البرجية. وتميّزت كتاباته بالتركيز على الجانب الاجتماعي – المعيشي في حياة الناس والمدن، وأخذ بمبدأ السببية منهجًا في التفكير (م).

التي تقع عليه وتتفوق فيها ميناء الطور مرتين فيصبح الجانب الغربي لسيناء هو طريق مرور تلك التجارة:

1- فترة كانت تنتهي التجارة فيها إلى نهاية خليج السويس في ميناء «القلزم» و«السويس»، تستمر حتى نهاية القرن العاشر، ويكتب (ابن خرداذبه) حوالي سنة 900 ميلادية في كتابه «المسالك والممالك» فيصف «القلزم» بأنها ميناء الملاحة إلى الهند والحجاز.

2- والظاهر أن خطورة الملاحة في خليج السويس لكثرة شطوطه المرجانية، وهبوب الرياح الشمالية في جزء كبير من السنة على ذلك الخليج، جعل التجار يتلمّسون موانئ أخرى إلى الجنوب، فرأينا «الطور» في العصور الوسطى تظهر أهمّيتها في فترة تنتهي حوالى عام 1050 في نظر (المقريزي).

3- ثم يأتي دور «عيذاب» و«القصير» فيذكر (المقريزي) أنه منذ سنة 1047 وفي القرنين التاليين كانت «عيذاب» ميناء الحج إلى مكة، والملاحة إلى اليمن والهند، ويوافقه كثير من الكتاب وإن أشار بعضهم إلى أنه كانت هنالك ميناءان على البحر الأحمر هما عيذاب والقصير.

4- ولعل قبائل (البجاه) التي كانت تتحكم في المنطقة - منطقة عيذاب والقصير - ويقاسي المسافرون والتجار منها كثيرًا[1] تسأل عن شيء كثير من أسباب تحول التجارة عن تلك الموانئ، فتظهر أهمية «الطور» من جديد منذ حوالي منتصف القرن الرابع عشر ويصفها (أبو الفداء)[2] بأنها ميناء عظيمة؛ وأنه يوجد فيها سوق يتجمّع فيها التجار[3]...

---

(1) راجع رحلة (ابن بطوطة) لترى أنه أراد أن يسافر بطريق (عيذاب) فوجد أن سلطان (البجاه) يحارب الأتراك المماليك وقد حرق المراكب وهرب الترك أمامه، وراجع ص 29 من كتاب الرحلة الحجازية للبتانوني - 1909 - لترى أن البجاه كانوا يحيدون بالقافلة في الصحراء الشرقية عن موارد الماء ليموت المسافرون عطشًا فيستولوا هم على بضائعهم وأن الملاحين كانوا يملأون السفن بأكثر مما تطيق وكثيرًا ما أدى إلى ضياع أرواح الناس غرقًا.

(2) أبو الفداء، اسماعيل بن علي (عماد الدين) ولد في دمشق (672-732هـ/ 1273-1331م). عاش في حماة ورحل إلى مصر واتّصل بالسلطان الناصر في عهد المماليك وعهد إليه بولاية حماة وإرجاعها إلى الأسرة الأيوبية. كان مولعًا بالعلوم والآداب ودرس الفقه والتفسير والطب والتاريخ، وكتب 12 كتابًا أهمها المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء و تقويم البلدان وسمي جغرافيا أبي الفداء، و «الكُنّاش» في النحو والصرف (م).

(3) راجع: Imad Al-Din Ismail Ben Ali Abu Al-Fida, *Géographie d' Aboulfeda*, traduite par M. Reinaud (Paris: L'Imprimerie Nationale, 1848).

كذلك يذكر (Piloti) عام 1440 أنه حتى حوالى تلك الفترة كانت تنزل البضائع أولًا في عدن - يقصد بضائع المحيط الهندي - ثم كانت تنزل بعدئذ في «جدة» لسوء معاملة حكام اليمن، ومن «جدة» تنقل البضائع الخفيفة إلى مصر بطريق البر أما البضائع الثقيلة فتنقل بطريق البحر إلى «الطور» لتأخذها القوافل المختلفة وتوزعها حيث تشاء[1].

ثم يأتي بعد ذلك عصر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فتضعف أهمية الطور، وتضمحل حركة مرور التجارة على جانب خليج السويس في سيناء - كما ضعفت أهمية مصر كلها في تجارة المرور - وما تستعيد تلك المنطقة بعد ذلك أهميتها في مرور التجارة بالشكل الذي كان لها من قبل.

وإذا كنا قد أشرنا إلى الفترات المختلفة في أهمية موانئ البحر الأحمر المصرية وعلاقتها بتجارة الشرق الأوسط وجنوب بلاد العرب، فما ينبغي أن يتطرق إلى أذهاننا أن انتقال التجارة من ميناء إلى أخرى كان يأتي مفاجئًا، أو أن الميناء الجديدة كانت تقضي على الموانئ الأخرى قضاءً تامًا، بل إن الانتقال إنما كان يجيء تدريجيًا، فالطور كانت لها شيء من الأهمية رغم تقدم «عيذاب» و«القصير» عليها... و(المقريزي) الذي يذكر عام 1358 كتاريخ لاضمحلال «عيذاب» و«قوص» يذكر في مكان آخر من كتابه أن طريق «قوص» لم يهجر تمامًا إلا في عام 1397، بل أن بعض الكتاب يشير إلى أنه حوالي ذلك التاريخ كان الطريقان يستخدمان، مما يدل دلالة واضحة على أن الفترة إنما كانت فترة انتقال[2].

نخرج من هذا كلّه إذًا بأن سيناء ما كان يعبرها شيء كثير من تجارة الشرق الأوسط وجنوب بلاد العرب، وكل ما كان يصيبها هو هذه التجارة التي تتبع الطرق الواقعة إلى شرقيها والتي كانت تنتهي بموانئ بلاد الشام على البحر الأبيض، وتلك التجارة التي كانت تتبع الساحل الشرقي لخليج السويس في الفترات التي تتقدم فيها ميناء «الطور» على موانئ البحر الأحمر المصرية الأخرى... ويؤيد هذا تمامًا الخرائط التي رسمها الأستاذ (حزين) للطرق التجارية في البر والبحر بين الشرق

---

(1) راجع: Raymond Weill, *La Presqu'ile du Sinai* (1908), p. 94.

وراجع من نفس الكتاب ما ذكره Von Harff من أنه حوالي عام 1497 كان يصل البهار إليها (الطور) مرتين في العام بانتظام (ص 105).

(2) يستأنس في دراسة هذه النقطة بـ : Weill, pp. 85-105.

العربي والشرق الأوسط والأقصى في الفترة الإغريقية الرومانية والفترة الفارسية العربية وما يلي ذلك حتى أوائل عصر الاستكشاف، إذ لا نجد فيها خطًا واحدًا يعبر سيناء في تلك الفترات الطويلة، وكل ما نصادفه هو ذلك الخط الذي يبدأ من ميناء «الطور» محاذيًا لخليج السويس حتى مدينة «القلزم» على رأس الخليج، وهذا نفسه لا يظهر إلا في فترات قليلة محدودة[1].

على أن شبه جزيرة سيناء وإن ضعفت حركة مرور التجارة فيها بين جهات الشرق الأوسط والأقصى وجنوب غربي بلاد العرب من ناحية، وبين مصر والبحر الأبيض من ناحية أخرى - إذ كانت تجد تلك التجارة طريقها إلى موانئ الشام أو موانئ مصر على البحر الأحمر ثم بالنيل إلى البحر الأبيض - ، فإن حركة تجارية قديمة كانت تمر بها بين بلاد النهرين والشام وشمال بلاد العرب من جهة وبين وادي النيل من جهة أخرى، حركة كانت تقوى فترة وتضعف فترة أخرى، تقوى حين تستتب الأمور بين مصر وبين تلك الجهات المحيطة بها، وتضعف حين تسوء الحالة بينها، بأن يقل المطر في تلك المناطق الصحراوية فتنبعث منها غارات سكانها ويكونون عاملًا يهدد الحركة التجارية ويوقفها، أو بأن تكون مصر في حرب معها، تتقدم الجيوش منها لتغزو وتفتح فيقف مرور التجارة إلى أن تعود الحالة إلى ما كانت عليه ويسود السلم من جديد. ويضع الأستاذ «حزيّن» قاعدة يتمسّك بها فيما يختص بتأثير الجفاف والمطر في العلاقات التجارية والثقافية بين مصر وبلاد العرب، فيذكر أن فترات المطر كانت فترات ترتقي فيها التجارة بين مصر وما جاورها، على حين أنه في أيام الجفاف كان يضطر البدو إلى أن يهاجموا الطرق التجارية ويزحفوا على الدلتا فيفر سكانها إلى الجنوب، وتنتقل قوتهم لتتركز حول (طيبة) فتزيد قوتها الدينية وتزداد الحاجة إلى العطور، وتكون معظم العلاقات التجارية مع بلاد (بنت). وفي رأيه أن في إمكاننا أن نتخذ التغييرات المناخية التي قال بها (هنتنجتون) في شمال بلاد العرب - وهو يسلم بآراء ذلك الكاتب على

---

(1) راجع الخرائط المرفقة بكتاب الدكتور حزيّن: Huzayyin, *Arabia and the Far East* (1942).

طول الخط ويغلو أحيانًا فيها - أساسًا ثابتًا للتغيير الذي طرأ على العلاقات التجارية بين مصر وبين تلك المناطق التي تأثرت بتلك التغييرات[1].

أما تأثير الحروب في إضعاف العلاقات التجارية فأمر طبيعي أشار إليه كثير من كتّاب تاريخ مصر القديم، لكن إذا كانت تلك الغزوات قد أضعفت التجارة في الفترات التي تلتحم الجيوش المصرية فيها بجيوش الحيثيين والأشوريين والبابليين، فإنها من ناحية أخرى - في رأي المؤرخ ماسبيرو[2] - كانت عاملًا يقويها وينشطها، لأن الأهالي قبل هذه الالتخامات ما كانوا يأخذون صورة واضحة عما يمكن أن يتبادلوه، فلما وصلتهم المتاجر بطريق أولئك الباعة الذين كانوا يرافقون الجيوش ويسيرون معها، أو بطريق أولئك الذين كانوا لا يكتفون بغنائم الحرب بل يبيعون ما معهم ليزيدوا في لذتهم ويشبعوا رغباتهم، زادت الحركة التجارية[3]. وكلام (ماسبيرو) على هذا الوضع فيه شيء من الغلو، فما نظن أن العلاقات التجارية بين مصر القديمة وما جاورها ترجع إلى أيام التوسع ونشر نفوذ مصر خارج حدودها، وما نظن أن المتاجر التي يمكن أن تتبادلها تلك الشعوب كانت مجهولة حتى تأتي الحروب فتظهرها، وإنما يرى كثير من البحاث أن العلاقات التجارية أقدم من عصر التوسع المصري في الخارج بكثير، ترجع إلى أيام الاسرات الأولى، بل لعلها ترجع إلى فترات ما قبل الأسرات وإن لم يدون عن ذلك شيء كبير.

والقوافل التي كانت تمر قديمًا بسيناء في طريقها بين مصر والبلاد المحيطة بها من الشرق كانت تأتي من بلاد الشام بالجواري اللائي يعملن في الحريم وبثيران الحيثيين والخيل والسمك والملح والخشب والآلات الموسيقية والمصنوعات الجلدية والزيوت والنبيذ، وكانت هنالك قوافل كثيرة تأتي من بلاد النهرين ومنطقة الخليج الفارسي، تقطع الصحراء وتمر بأرض اليهود وشرق الأردن، تحمل إلى مصر من بلاد الكلدانيين المصنوعات الصوفية التي احتكروها حتى أيام الرومان، وتحمل من بلاد بابل شيئًا من الجلود والحصير

---

(1) راجع: Huzayyin, pp. 30-31.

(2) غاستون ماسبيرو (1846-1916) عالم فرنسي من أشهر علماء المصريات، وصاحب المصطلح الشهير «شعوب البحر» الذي أطلقه في ورقة بحثية في العام 1881 عن أصول الفلسطينيين (م).

(3) راجع: G. Maspero, *The Struggle of Nations: Egypt, Syria and Assyria* (London: [s. n.], 1925), p. 282.

والزيوت، أما بلاد العرب فالظاهر أن حظ سيناء من مرور تجارتها بسيط مقصور على شيء من المر والعطور. وهنالك سلعة تحدّث عنها (ديودور الصقلي)، وأخذ عنه بعض المؤرخين أمثال (شارب) - في كتاب عن مصر[1] - الذي ذكر أن بلاد (النبط) التي كانت فقيرة في كل فترات تاريخها والتي كانت تعتمد على وساطتها بين تجارة المحيط الهندي والبحر الأبيض، كانت تحتكر إنتاج مادة (الأسفلت L'asphalte) التي كانت تؤخذ من البحر الميت - بحيرة الأسفلت فيما كانوا يسمونه قديمة - والتي كان قدماء المصريين يحتاجون إليها ويستوردونها بكثرة ليخلطوها ببعض المواد الأخرى وليحنطوا بها أجسام موتاهم فما تبلى. لكن (Kammerer) في كتابه عن (البطراء والنبط) ينكر هذا إنكارًا تامًا ويخرج من بحوثه إلى أن (ديودور) كان خاطئًا، وإلى أن هذه المادة لم يشتهر بتصديرها إلى مصر النبطيون[2].

أمّا تجارة مصر التي كانت ترسلها عبر سيناء إلى تلك الجهات التي إلى شرقيها فكانت أهم وأعظم بكثير مما كان يرد إليها منها، وذلك نتيجة طبيعية لغناها وكثرة إنتاجها مقارنًا بغنى تلك المناطق المجاورة وإنتاجها... كانت القوافل تحمل من مصر الحبوب التي اشتهرت مصر بها والتي تدل قصة «يوسف» التي وردت في الكتب المقدسة على مظهر من مظاهرها، كما كانت تحمل المنسوجات الدقيقة والأدوات الذهبية وبعض الزجاج والأواني الفخارية وما إلى ذلك مما عرفت مصر بإنتاجه واشتهرت بالإتجار فيه منذ الزمن القديم، أو مما كانت تصنعه من بعض الخامات التي كانت تأتيها من الشرق فتعيد تصديرها مصنوعة إلى ما يجاورها من الجهات[3]. وكانت هذه التجارة حين تصل إلى حدود مصر أو البلاد التي تتاجر معها تدفع ضرائب لا يقصد بها مجرد كثرة دخل الولاة وزيادة إيراد الحكام، بل كان يقصد منها -

---

(1) راجع: Samuel Sharpe, *The History of Egypt*, 2 vols. (London: [Moxon], 1852), vol. 1, p. 3.

(2) راجع تعليقه على كلام ديودور إذ يقول:

"... à ces histoires fantaisistes ne correspond aucune réalité...
Il faut sans hésiter, rayer cet article des listes du trafic nabaténe".

انظر: A. Kammerer, *Pétra et la Nabaténe: L'Arabie Pétrée et les arabes du Nord dans leurs rapports avec la Syrie et al Palestine jusqu'à l'Islam*, 2 vols. (Paris: [P. Geuthner], 1929-1930), pp. 50-52.

(3) يرجع في العلاقات التجارية القديمة بين مصر والجهات المجاورة لها إلى كتب التاريخ القديم مثل: Maspero: *The Dawn of Civilization*, pp. 470-471, and *The Struggle of Nations*, pp. 282-286; Sharpe, vol. 1, pp. 8, 32-40 and 121, and E. A. Budge, *Babylonian Life and History*, p. 177.

فيما يقول ماسبيرو - حماية التجارة المحلية وتمكينها من أن تنافس بضاعة الدول الأخرى[1].

هذه التجارة - سيما ما كان يأتي منها من بلاد الشام - قد أضعف مرورها بشبه جزيرة سيناء رقيّ الملاحة في البحر الأبيض بين شواطئ بلاد الشام وشواطئ القطر المصري الشمالية، فقد تحول حديثًا إلى ذلك الطريق البحري السهل كثير من حاصلات الشام بوجه خاص، ومع ذلك فلا تزال بعض الإبل والخيل والغنم من نجد وشمال بلاد الحجاز وسوريا تأتي عبر سيناء لتباع في أسواق مصر في بلبيس[2] وشبين القناطر وما إليها[3]، يصادفها المسافر في طريق القوافل الشمالي بكثرة. لكن ما كان يأتي منها قاطعًا خليج العقبة إلى مرسى «النبك» فالسويس قد قل في الأيام الأخيرة قلة محسوسة، لعلها نتيجة تلك المراقبة الشديدة التي تفرضها الحكومة المصرية مخافة أن تنقل هذه الحيوانات بعض الأمراض إلى مصر من الجهات التي تأتي منها من الحجاز.

ولقد ظهرت لسيناء أهمية جديدة في المرور حين ظهر الإسلام وانتشر في مصر وفي بلاد المغرب، ذلك الدين الذي فرض على المسلمين فريضة الحج من استطاع إليه سبيلا... كان الحجاج يجتمعون في مصر فيأتي المغاربة من بلادهم لينضموا إلى إخوانهم من مسلمي مصر، ثم تبدأ القافلة سيرها إلى أرض الحجاز... ولقد تطور طريق الحج إلى مكة كما يأتي:

أوّلا - أقدم طرق الحج كان إلى «قفط» أو «قوص» بالنيل، يستغرق الحجاج في ذلك عشرين يومًا تقريبًا، ثم يأخذون بعد ذلك طريق الصحراء الشرقية فيصلون في خمسة عشر يومًا إلى ميناء «عيذاب» أو «القصير» على البحر الأحمر ومنها إلى ميناء «جدة» ثغر بلاد الحجاز. كان ذلك هو الطريق حتى منتصف القرن الثالث عشر تقريبًا، وإذا كان بعض الحجاج يأخذون السفن الشراعية من السويس إلى «جدة» مباشرة فقد كان عدد هؤلاء قليلًا

---

(1) راجع: Maspero, *The Struggle of Nations*, p. 286.

(2) بلبيس مدينة في محافظة الشرقية في مصر. من أقدم المدن المصريّة، وتعتبر منذ العصور الأولى معبر الوافدين (بوابة مصر الشرقية). أوّل مدينة بني فيها مسجد في أفريقيا عرف بـ سادات قريش (م).

(3) راجع كتاب نعوم بك شقير في جغرافية سيناء وتاريخها في دراسة علاقات مصر التجارية بين مصر وما جاورها في الأيام الحديثة، انظر: نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها: مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بينها من العلائق التجارية والحربية وغيرها عن طريق سيناء من أول عهد التاريخ إلى اليوم (القاهرة: مطبعة المعارف، 1916)، ص 753.

بدرجة لا يمكن معها أن نعتبر ذلك الطريق البحري منافسًا لطريق الصحراء. وكان الحجاج يلاقون صعوبات كبيرة جدًا في الوصول إلى مكة: فعرب البجاه الذين كانوا يسيطرون على الطريق إلى البحر الأحمر ويتولون نقل الحجاج حتى البحر على ابلهم، «كانت أخلاقهم - فيما يقول البتانوني - فظة، وربما بلغ بهم الأمر إلى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع هو أن ركابها يموتون عطشًا ليستولوا على متاعهم... وكان الحجاج يقيمون في عيذاب أو القصير نحو شهر من الزمان في انتظار «الفلايك» لتحملهم إلى جدة، وكانت هذه سفنًا غير محكمة، شراعها من الحصير غالبًا، يتعسف أهلها بالحجاج ويشحنونها بأكثر من حمولتها، وكثيرًا ما كانت تغرق وسط البحر فيهلك من عليها، ومن وصل إلى جدة وصل بعد أسبوعين يتقلب في أثنائها بين تحكم الملاح وتبرم الرياح وانزعاج الماء واضطراب الهواء»[1]. وكثيرًا ما كان يثور هؤلاء «البجاه» على حكام مصر أيام ضعفهم، فيضطرب الأمن في تلك المنطقة ويعطل طريق الحج إلى عيذاب فإما أن يؤجل الحجاج سفرهم، وإما أن يفعلوا ما فعله (ابن بطوطة)[2] حين أراد أن يحج عن طريق عيذاب، فلما وصلها وجد البجاه يحاربون الأتراك المماليك وقد خرقوا المراكب وهرب الأتراك أمامهم فتعذر سفره بطريق البحر واضطر إلى أن يسافر بطريق الصحراء وقطع شمال سيناء في طريقه إلى الحجاز[3].

ثانيًا- ثم ظهر طريق وسط سيناء «درب الحج» الذي يمر بعجرود شمال مدينة السويس، يقطع هضبة التيه، ويمر بنخل ثم يصل إلى العقبة ليدخل بعدئذ في أرض الحجاز. بدأت أهمية هذا الطريق تظهر حين حجت به «شجرة

---

(1) راجع: محمد لبيب البتانوني، الرحلة الحجازية (1909)، ص 28-29.

(2) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (اللواتي الطنجي) ولد في طنجة (703-779هـ/ 1304-1377م). رحّالة، مؤرخ، قاض وفقيه. بدأت رحلته سنة 725هـ وعاد إلى المغرب فاتّصل بالسلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي في مدينة فاس سنة 756هـ. وحملت عنوان «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». زار مصر في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والشام وبلاد فارس وشرق أفريقيا والجزيرة العربية وآسيا الوسطى (خوارزم، بخارى، تركستان، أفغانستان) والهند والصين وأندونيسيا. استغرقت رحلته 27 سنة (1325-1352م) ومات في مراكش ودفن هناك (م).

(3) راجع: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطة، مهذب رحلة ابن بطوطة، المسماة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (القاهرة: وزارة المعارف العمومية، 1933)، ص 43.

الدر»[1] في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد (645هـ)، وأخذت أهميته تزداد حين سير «الظاهر بيبرس»[2] قافلة الحج فيه وأرسل الكسوة الشريفة عن طريقه (665هـ - 1267م)، وحين حج به «الناصر قلاوون»[3] عام 1319م فيما يذكر «أبو الفداء». وكان معقولًا أن يتحول الحجاج إلى طريق سيناء هذا تخلصًا من تلك المصاعب التي أشرنا إليها في طريق «عيذاب»، وحرصًا على أرواحهم، سيما وأن قوافل الحج كان يحميها في طريق سيناء جنود الولاة والسلاطين. كذلك عظم اهتمام حكام مصر بذلك الطريق الجديد، فهم يحفرون فيه الآبار ويصلّحون المناطق التي يصعب على الإبل أن تسير فيها سيما (نقب العقبة) الذي كان عقبة كبيرة تتابعت إصلاحات الولاة عليها.

ثالثًا - وتظل سيناء طريق الحج مدة سبعة قرون أو تزيد، ثم يأخذ الطريق البحري بين السويس وجدة أهميته منذ حروب محمد علي مع الوهابيين، فإذا كنا في أواخر القرن التاسع عشر (1885) - فيما يذكر نعوم بك شقير[4] - تحول الحجاج إلى طريق البحر وضعف مرور قوافلهم بسيناء شيئًا فشيئًا، وانحطت أهمية المحطات التي كانت قائمة على طول «درب الحج» وفي مقدّمتها (نخل) التي كان لها مركزها والتي اتّخذت عاصمة لشبه الجزيرة تستمد أهميتها من مرور قوافل الحج بها، فلما تحول الحجاج عنها ضعف

---

(1) شجرة الدر جارية اشتراها السلطان الصالح نجم الدين أيوب. تزوّجها وأنجبت ابنها خليل الذي توفي في 648هـ (1250م). تولّت عرش مصر80 يومًا بمبايعة من المماليك، ثمّ تنازلت عنه لزوجها المعز أيبك التركماني. كان لها شأن في خلال معركة المنصورة في أثناء حملة الفرنجة السابعة على مصر. توفّيت في 1257م (م).

(2) الظاهر بيبرس (ركن الدين) سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية. لقّب بـ أبو الفتوح بسبب انتصاراته العسكرية ضد الصليبيين والمغول ابتداءً من معركة المنصورة سنة 1250م ومعركة عين جالوت وانتهاءً بمعركة الأبلستين ضد المغول سنة 1277م. ولد سنة 1223م، وتوفي في 676هـ/ 1277م (م).

(3) الناصر قلاوون (ناصر الدين محمد) تاسع سلاطين المماليك البحرية. ولد في القاهرة في 684هـ/ 1285م، وتوفي فيها في 741هـ/ 1341م. جلس على التخت ثلاث مرّات من 693هـ/ 1293 إلى 698هـ/ 1299م (م).

(4) نعيم (نعوم) بك شقير ولد في الشويفات في 1280هـ/ 1863. وتوفي في القاهرة في 1340هـ/ 1922. مؤرخ من لبنان، تلقى تعليمه في بيروت، وانتظم في خدمة حكومة السودان، وزار شبه جزيرة سيناء. من أعماله «تاريخ سينا» صدر العام 1916، و«تاريخ السودان» صدر العام 1904، و«أمثال العوام في مصر والشام والسودان» (م).

مركزها ضعفًا كبيرًا ولم يبق هنالك ما يبرر بقاء العاصمة فيها فنقلت إدارة سيناء إلى بلدة «العريش» في الشمال[1]... وكان تحول الحجاج إلى طريق البحر معقولًا لا غرابة فيه، فطريق البر - رغم ما عمل فيه من إصلاحات - كان طريقًا طويلًا، يستغرق من المسافرين أكثر من أربعين يومًا، في أرض يصعب السير فيها، ويقسو الجو، ويقل المرعى والماء.

تلك كانت أهمية سيناء كحلقة اتّصال بين قارتي أفريقيا وآسيا، وذلك مركزها كطريق مرور تقطعها قوافل التجار وجيوش المحاربين، فهل كان هذا هو كل أهميتها في المواصلات، أم قد كان لسيناء من الأهمية ما يمكن أن يقصد لذاته، وما يمكن أن يغري الشعوب المجاورة لها على أن تكون لها بسيناء علاقات تتبعها حركة مواصلات لا تمر بسيناء مرورًا وإنما تنتهي بها وتعتمد حركتها عليها؟؟ إن طبيعة سيناء فيما تدل دراستها النباتية فقيرة لا تغري البدو الذين يجاورونها على أن يقصدوها لمرعاها بل كان يحدث العكس فيغير بدو سيناء على الأراضي المجاورة، وقبائلها حتى الآن تضطر - في غير فصول المطر - إلى أن ترحل عنها إلى أرض الشام وشرق الأردن حيث تجد الكلأ متوافرًا ترعاه إبلها وغنمها. لم تكن الحياة النباتية في سيناء إذًا هي التي تغري بالانتقال إليها، وإنما شهرتها في التعدين، والطمع في الحصول على ثروة مناجمها هما اللذان كانا يغريان بذلك: فمناجم النحاس والفيروز بشكل خاص كانت داعيًا قويًا إلى اهتمام المصريين القدماء بجهات سيناء واستعمارهم الأول لها، وكانت هذه المناجم تغذي حركة نقل بينها وبين وادي النيل، وكذلك كانت (أشور وبابل) تعتمد أن في الحصول على النحاس وبعض الأحجار الصلبة على مناجم سيناء التي كانوا يطلقون عليها اسم (أرض مجان) في رأي بعض الكتاب[2]... ويشير (هنري بالمر)[3] في كتابه الذي أشرنا إليه عن سيناء إلى أن بابل كانت تهتم بشبه الجزيرة للحصول على (الديوريت) بشكل خاص، وقد دلت الأبحاث على أن التماثيل المصنوعة من ذلك الصخر والتي

---

(1) يراجع في تطور طريق الحج: البتانوني، ص 27-43؛ شقير، ص 261-263 وكتاب مرآة الحرمين.

(2) راجع: Budge, pp. 177-178.

(3) ادوارد هنري بالمر (1840-1882) مستشرق إنكليزي، ألّف كتاب صحراء الخروج، ورحلات على الأقدام في برية تيه الأربعين عامًا، وله أيضًا القدس: هيرودت وصلاح الدين (م).

عثر عليها في (Telloh) في جنوب بابل، إنما أتي بأحجارها من سيناء، الإقليم الجبلي في تسمية البابليين «Sholem» أو «Malachite» والظاهر أن المصريين كانوا كذلك يحصلون على «الديوريت» لصناعة التماثيل من شبه جزيرة سيناء، ففي دار الآثار المصرية تمثال «لخفرع» من (ديوريت) سيناء.

... وهنا ملاحظة يصح أن نشير إليها ففيها ما يشعرنا بأن مناجم سيناء كانت مركز جاذبية كبيرة للمصريين والبابليين، وأن شيئًا من الاتّصال والاحتكاك قد أتى عن طريق سيناء في فن صناعة التماثيل: ذلك أن تماثيل «Telloh»، التي ترجع إلى فترة معاصرة للأسرة الرابعة في مصر، تشابه في مظهرها العام تمثال «خفرع»، يؤيد هذا في نظر (بتري) تشابه وحدة المقاييس في الأسرة الرابعة في مصر وتلك الوحدة التي وجدت في نقوش إحدى تماثيل (Telloh) هذه، حتى لقد خرج «سبنسر بالمر» من هذا بأنه «لا يستبعد أن تكون مدرسة فنية قد قامت على شواطئ شبه الجزيرة في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، انتهت في مصر بذلك الاتّجاه الفني المعروف في الدولة المصرية القديمة، وانتهت في بابل بهذه التماثيل الثقيلة التي لم تصل في الإتقان إلى ما وصلت إليه صناعة التماثيل المصرية»[1].

على أنه إذا اقتصرت الأهمية الاقتصادية لسيناء قديمًا على تلك المناجم التي كانت تشتهر بها أجزاؤها الجنوبية، فلسيناء مكانتها الدينية التي كانت تجذب كثيرًا من سكان المناطق المجاورة إليها، إذ كانت في رأي بعض المؤرخين مركزًا لعبادة مقدّسة قديمة تتركز في منطقة (سرابيت الخادم) يحج إليها المصريون القدماء ويتعبدون فيها قبل خروج موسى وبني إسرائيل، وارتبطت جهاتها الجبلية الجنوبية بخروج اليهود ونزول الرسالة على نبيهم، وكانت في عزلتها ورهبتها تستهوي المسيحيين الذين كانوا يفرون إليها أيام اضطهاد المسيحية في مصر، فإذا دفنت «سانت كاترين» في منطقة الدير

---

(1) راجع: Palmer, *Sinai from the Fourth Egyptian Dynasty*, pp. 147-149.

ولاحظ أنه يؤيّد النفوذ البابلي في سيناء بإرجاع تسمية سيناء إلى إله القمر البابلي (Sin) الذي انتشرت عبادته إلى جنوب بلاد العرب وإذًا فليس هناك ما يمنع من انتشارها في سيناء (ويوافقه في هذا كتاب آخرون) وهو يذكر كذلك على سبيل الموازنة أن اسم الإله البابلي (Nebo) قد أطلق على قمة جبل في أرض (مواب).

قوّى تيار الحجاج من المسيحيين الذين يقدسونها، يأتون إليها بوجه خاص من الروسيا، ودول شرق أوروبا الأخرى، يستمرون على ذلك قرونًا حتى تقوم الحرب الماضية وتحدث الثورة البلشفية فينقطع تيار هؤلاء الحجاج، وتضع الحكومات أيديها على ما رصد لدير «سانت كاترين» من أوقاف...

وعلينا قبل أن ننتهي من دراسة أهمية سيناء كطريق للمرور أن نرى هل كان الانتقال فيها سهلًا لا تجد القوافل فيه صعوبة كبيرة، أم أنه كان صعبًا يعاني المسافرون منه كثيرًا؟ الواقع أنه ليس في سيناء ما يساعد على تيسير المرور فيها، بل كل ما فيها يجعله شاقًا غير محتمل: طبيعتها، جوّها، سكانها، هذه كلها كانت تتآمر على المسافر فتحدد مناطق سيره وأوقات انتقاله، وعدد المسافرين... أما العوامل الطبيعية من تضاريس ومرعى وماء فسنترك التفصيل فيها إلى أن نأتي إلى دراسة الطرق لنجعلها أساس المقارنة بينها، ولنفهم على ضوئها مدى أهمية كل طريق. ويكفي أن نشير هنا إلى تلك الكثبان التي تنتشر في شمال سيناء، وإلى قلة الماء ورداءة نوعه وهو العقبة الكبرى في المواصلات الصحراوية.

وأما بدو سيناء فقد كان يصيب قوافل المسافرين منهم ضرر كبير: فهؤلاء جماعات رحل متنقلة، يسكنون بيئة مجدبة فقيرة، وليس هنالك في الصحراء قانون حكومي يحول بينهم وبين ما يرتكبون من قتل للأنفس ونهب للتجارة والأموال، ولذا كانوا ينتهزون فرصة مرور تلك القوافل فيعتدون عليها، وينهبون ما تحمله، مما كان موضع الشكوى ومحل خوف التجار في كل فترات التاريخ: فها هم كتّاب التاريخ القديم يشيرون إلى أن التجار كانوا آمنين ما داموا في حدود الدول المتمدينة كمصر وأشور وبابل، فإذا دخلوا المنطقة الصحراوية التي تفصل بينها فهم معرضون لأخطار لا حصر لها[1]... وها نحن في عهد الرومان نرى الحكومة الرومانية تضطر لحماية طرق القوافل في تلك المناطق الصحراوية إلى أن تقيم محطات حربية على طولها، وإلى أن توجد الحاميات في المراحل المختلفة فيها... وفي العصور الوسطى وحكم المماليك في مصر تصبح هذه المناطق موضع خطر جسيم على القوافل، حتى اضطر التجار إلى أن يسيروا في حماية القبائل نظير أتاوة سنوية تدفع لمشايخها، وحتى اضطر

(1) راجع على سبيل المثل: Maspero, *The Struggle of Nations*, p. 286.

الولاة أنفسهم لحماية طريق الحج إلى أن يقسموا مراحله ويوكلوا إلى القبائل المختلفة حماية تلك المراحل، على أن يعطوها في مقابل ذلك مكافآت يتقون بها شرها وعدوانها. ولعل أفضل ما يعطينا صورة عن نفوذ البدو أن نثبت هنا ما كتبه «رتشارد بوكوك»[1] عام 1743، وهو يصف حكم مدينة السويس بواسطة قبطان عمله الحقيقي يتعلق بالبحر، معه حاكم المدينة (قائم مقام)، وشيخ من مشايخ العرب يقول عن سلطته ما يأتي:

"He (شيخ العرب) lives here and has nearly all the power, whenever he pleases to interfere, and what gives him much authority is the great scarcity of water, which is brought 6 miles from Naba to the E. S. E. so that on the least discontent with the people, they (البدو) will not permit water to be brought to the town"[2].

ولقد استمر نفوذ البدو قويًا وبقوا شبحًا مخيفًا يتحكمون فيمن يمر بسيناء حتى جاء (محمد علي) فجاهد كثيرًا في إضعاف سلطان هؤلاء البدو، وتأمين الطرق، واستطاع أن ينجح في هذا إلى حد كبير، لكن بعد مجهود عظيم[3]. على أن إضعاف البدو إضعافًا تامًا إنما جاء حين قتل (بالمر) في سيناء أثناء الاحتلال البريطاني والثورة العرابية، إذ نزع الإنجليز من البدو أسلحتهم، ولم يتركوا لهم إلا تلك السيوف التي لا يستطيعون في نظام الحكم الحالي أن يفعلوا بها شيئًا كثيرًا...

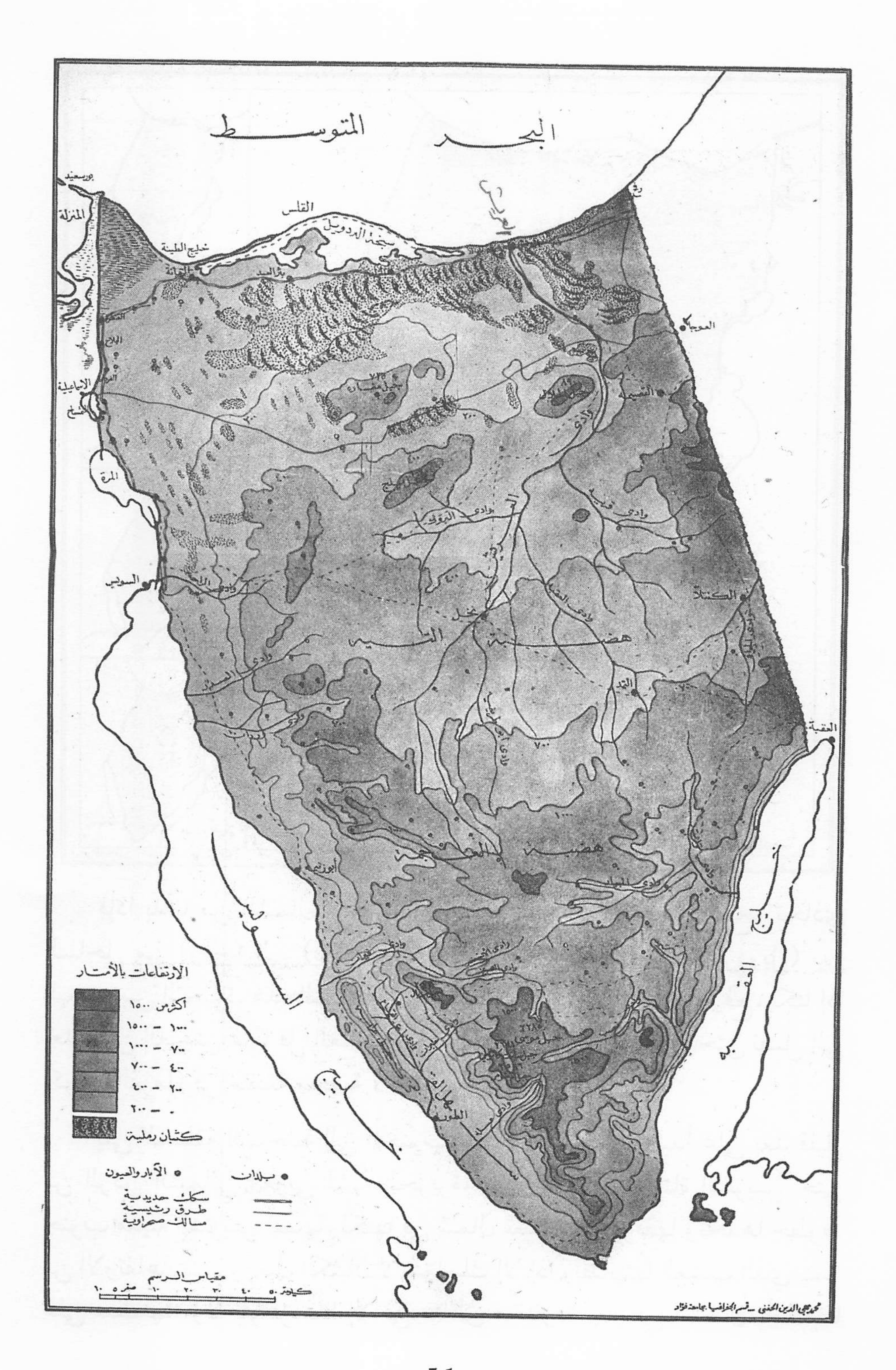
طرق سيناء وتطور أهميّتها

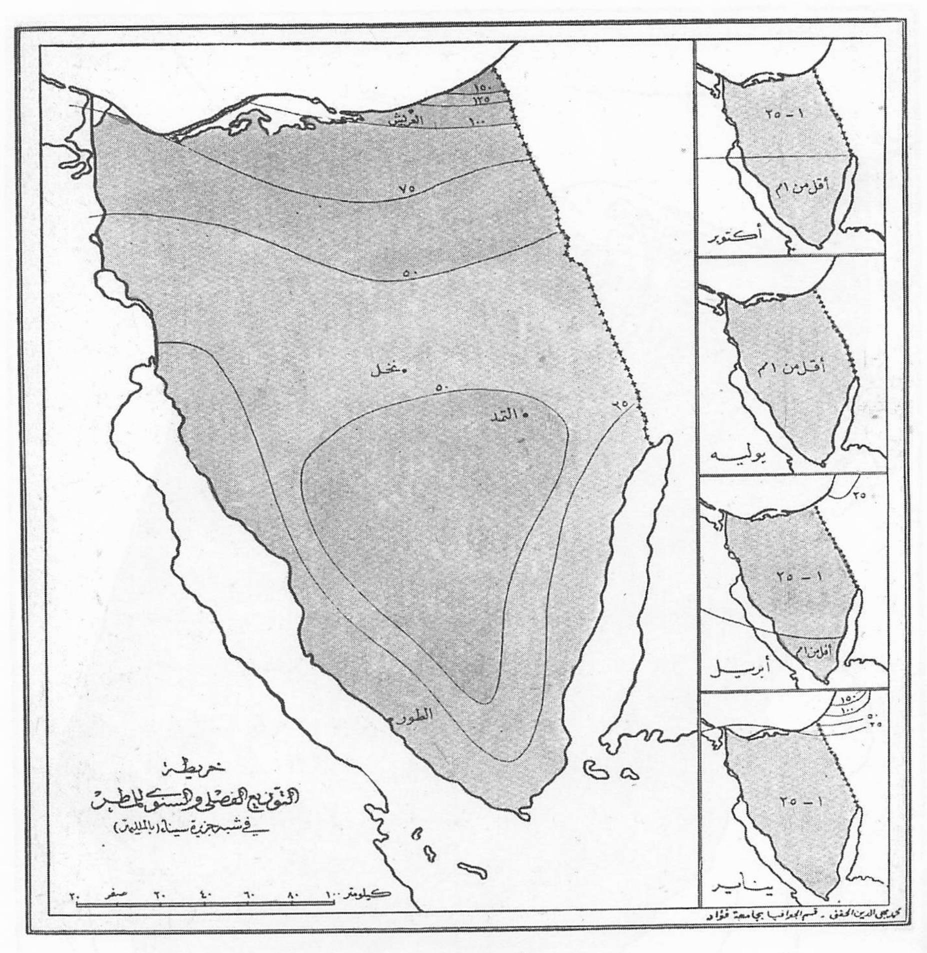
لا بد للذي يدرس طرق سيناء دراسة علمية من أن يستعيد إلى ذاكرته صورة ملخصة عن مظاهر سطحها، وعن نظام الماء وتوزيع العيون والآبار فيها، وعن الحياة النباتية هناك وتوزيع الكلأ والأعشاب... فعلى هذا الأساس وحده يمكن أن نعلل قيام هذه الطرق في أمكنتها، ويسهل أن نفسر عظم الحركة فيها أو ضعفها، وسنجد المقارنة بينها بعد ذلك مقارنة واضحة لا صعوبة فيها ولا غموض.

(1) رتشارد بوكوك (1704-1765) أسقف وانثروبولوجي إنكليزي. اشتهر بسبب كتاباته عن الرحلات ويومياته. من كتبه وصف للشرق وبعض البلدان الأخرى (م).

(2) راجع: Richard Pococke, *A Description of the East and Some Other Countries* (1743), p. 133.

(3) راجع: John Lewis Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (1882), pp. 459-467.


البحر المتوسط
الارتفاعات بالأمتار
أكثر من ١٥٠٠
كثبان رملية
الآبار والعيون
بلدان
سكك حديدية
طرق رئيسية
مسالك صحراوية
مقياس الرسم
السويس
العقبة
هضبة التيه



فإذا بدأنا من الشمال فنحن أمام منطقة ساحلية، جامدة السطح، تحاذي الساحل من (رفح) إلى (بور سعيد) وتسير في منطقة بحيرة (البردويل) بين البحر وبين البحيرة. هذه المنطقة يتوافر فيها الماء والمرعى ناحية رفح، لكنا إذا بعدنا عن العريش غربًا قل العشب، وقل الماء واشتدّت ملوحته، حتى نصل إلى أكوام (الفرما) في منطقة مجدبة لا عشب فيها ولا ماء...

يلي المنطقة الساحلية إلى الجنوب منطقة الكثبان التي تبدأ على بعد قليل من الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة، تمتد على طول قناة السويس حتى جنوب مدينة السويس نفسها، لكنها في شمال سيناء تكاد توقفها وتحدها خطوط من الارتفاعات... ورمال الكثبان لا تتماسك إلا إذا ربط بينها العشب الذي ينمو على سطحها، ولا يتوافر هذا إلا في مناطق محدودة جدًا في الشمال، أما فيما

عدا ذلك فالرمل مفكك يغور لحد ما تحت الأقدام... وشمال سيناء - فيما تبين الدراسة المناخية - يصيبه من المطر أكبر كمية تصيب شبه الجزيرة كلها، وقد استطاعت الكثبان أن تحتفظ بماء المطر هذا، وأن تسهل - في تموّجها - الحصول عليه على عمق بسيط بالشكل الذي أوضحه (هيوم) في كتابه عن جيولوجية مصر. ومن هنا جاء غنى منطقة الكثبان هذه بالماء غنى نسبيًا... وإذا كان ماء منطقة الكثبان في جملته أكثر عذوبة، فإن التحاليل التي عملت في دراسة ماء المنطقة ترينا كيف تشتد الملوحة كلّما سرنا غرب العريش قريبًا من امتداد بحيرة البردويل، وكيف تعظم العذوبة كلما جاوزنا العريش شرقًا إلى رفح.

وإلى جنوب منطقة الكثبان يدخل الإنسان في هضبة التيه، في تتابع سهولها المستوية وفي سطحها المتماسك، وهي هضبة تنتهي في حافة حادة تكون خطوط تقسيم لمجار مائية ساعدت على وجود ممرات أمكن الاتّصال بواسطتها بين الشمال والجنوب. وتجري على سطح الهضبة عدة مجار أهمها (وادي العريش)، وتعتبر تلك المجاري على صغرها وقلة عمقها وجفافها - إلا في الفترة التي تلي سقوط المطر مباشرة - ذات أهمية كبيرة في المواصلات: فالطرق يغلب أن تتبعها، والمرعى يوجد فيها، والماء إنما يبحث عنه في آبار تحفر في قاعها... على أن هضبة التيه قليلة المطر والعشب، فقيرة في الماء، تتباعد الآبار فيها بعضها عن بعض بعدًا يضطر المسافر معه إلى أن يحمل ما يحتاج إليه من الماء.

والنصف الجنوبي من سيناء هو منطقة الجبال النارية المرتفعة، تقطعها الوديان العميقة التي عينت الطرق وحددت اتّجاهها، يصيبها، نظرًا لشدة ارتفاعها، مقدار من المطر أكثر مما يصيب هضبة التيه، كان له تأثيره في توافر الماء في وديان كثيرة في الجنوب، وإليه يرجع وجود شيء من الحياة النباتية لا نجده في غالب أجزاء سيناء الأخرى. وماء المنطقة النارية هذه أكثر عذوبة من مياه المنطقة الجيرية لا تكثر نسبة الأملاح الذائبة فيه، مما زاد في أهمية المنطقة كمورد من أهم موارد الماء العذب في شبه الجزيرة كلها.

هذه الكتلة النارية لا تصل إلى ساحل خليجي السويس والعقبة، بل إنا نصادف على طول خليج العقبة سهلًا رمليًا يضيق إلى درجة التلاشي في بعض الأحيان، أما على ساحل خليج السويس فيتّسع المنبسط الرملي في

«سهل القاع» من رأس محمد إلى وادي فيران، ثم يلي ذلك شمالًا هذه الكتل الجيرية التي تنتهي قرب رأس خليج السويس في هذه المنطقة الصحراوية التي تصلها نهاية الكثبان الممتدة على طول قناة السويس... والماء في تلك المنطقة الساحلية محدود، وهو أقل عذوبة من ماء المنطقة النارية تشتد ملوحته في المنطقة الجيرية بدرجة كبيرة. وفي مناطق الماء وحدها يوجد شيء من النبات هو كل ما نصادفه منه في هذه المساحة الساحلية، يتكاثف في بعض الأحوال القليلة على شكل واحات صغيرة ينمو فيها بشكل خاص النخيل وشجر السيال.

وسنُخْرِج من دراسة الطرق هنا هذه المسالك الداخلية التي تقتصر أهميتها على مجرد ربط أجزاء شبه الجزيرة بعضها ببعض، ونوجه اهتمامنا إلى تلك الطرق الخارجية التي لها أهمية في ربط سيناء بالمناطق المحيطة بها، فندرس اتجاهاتها، ونوازن بين أهميتها، ونتتبع تطوّرها في الفترات المختلفة... هذه الطرق التي تربط سيناء بما جاورها يمكن أن نقسمها إلى ثلاث مجموعات:

أوّلًا – المجموعة الشمالية، وهي التي تعبر سيناء، إما في منطقة الساحل الشمالي أو في منطقة الكثبان أو إلى جنوب ذلك بقليل على حدود الكثبان الجنوبية وشمال هضبة التيه... وهذه طرق تصل بلاد الشام وما يتصل بها بالقطر المصري وما يمكن أن يكون القطر المصري طريقًا إليه كما سنرى.

ثانيًا – طرق وسطى، تقطع هضبة التيه فتربط بين بلاد النبط القديمة وشمال بلاد العرب من ناحية وبين بلاد وادي النيل من ناحية أخرى.

ثالثًا – الطرق الجنوبية، ومن هذه ما يقطع المنطقة الجبلية إلى خليج العقبة ليصل إلى الأراضي التي تحفها، أو يسير محاذيًا لخليج السويس ليربط بين البحر الأحمر عند بدء خليج السويس وبين رأس الخليج نفسه، ثم يستطيع بعد ذلك أن يصل إلى وادي النيل أو يعبر سيناء إلى بلاد الشام وغيرها.

وإذا أردنا إن نقارن بين هذه الطرق فإن الكتابات المدونة عن حركة الاتّصال بين مصر وما جاورها – سواء كان ذلك الاتصال تجاريًا أم كان حربيًا، وسواء استعرضنا هذه الحركة قديمًا أم حديثًا – تشير إلى أن الطرق الشمالية كان يصيبها من تلك الحركة أكثر مما يصيب غيرها من طرق سيناء الأخرى،

بل إن مركزها في المواصلات التجارية والحربية في كل فترات التاريخ مركز لا يمكن أن نقارن به مركز الطرق الوسطى والجنوبية... فإذا جئنا نتلمس لهذا التفوق تعليلًا فإنه يمكن أن نرجعه إلى عوامل جغرافية نلخص أهمّها فيما يأتي:

1- قد رأينا في بدء هذا الفصل أن التجارة التي كانت تأتي عبر سيناء تجارة غالبيتها تبادل بين مصر وما يمكن أن يتصل بمصر، وبين بلاد الشام وما يمكن أن يأتي بطرق بلاد الشام من تجارة أشور وبابل مثلًا. أما تجارة الشرق الأوسط والأقصى - بل حتى حاصلات جنوب غربي بلاد العرب وما كان يصل إليها - فقد ذهبنا إلى أنها كانت تفضل طريق البحر الأحمر عن أن تعبر سيناء إلى وادي النيل... ثم يبقى بعد ذلك شمال بلاد العرب وبلاد النبط نفسها، ومركز هذه المناطق في التبادل التجاري مع مصر يأتي بعد مركز بلاد الشام قديمًا وحديثًا. فإذا لاحظنا هذه الحقائق سهل علينا أن نفسر لماذا كانت الطرق الشمالية أهم في حركتها التجارية، لأنها - على الأساس الذي تقدم - أقرب الطرق إلى أكبر عملاء مصر في التجارة، وهي المسالك المباشرة إلى بلاد الشام وشرقي بلاد الشام.

2- إن البلاد التي كانت تطمع مصر في أن تضمها إليها، وتضع يدها في بعض عصور التاريخ عليها، هي بلاد الشام وسهول الجزيرة بلاد الأشوريين والبابليين. فليس في تلك المنطقة الصحراوية في شمال بلاد العرب وشرقي الأردن ما يغري مصر بأن تعبئ الجيوش إليها وتوجه حملات التوسع ونشر النفوذ لإخضاعها... كذلك كانت القوى الخارجية التي تطمع في مصر تخرج من مراكز المدنيات في الهلال الخصيب، أو تأتي من خارج ذلك الهلال لكنها تخضع أجزاءه أولًا ثم تكمل فتوحاتها في وادي النيل. فإذا كنا قد أشرنا إلى أن مصر قد تعرضت لغزوات كبيرة للبدو من خارج سيناء، فهؤلاء كانوا في الغالب يغيرون أولًا على بلاد الجزيرة والشام ثم يأتي غزو مصر خطوة تالية لذلك. ومثل هذا الأساس إن سلمنا به يوضح كذلك لِمَ كانت الطرق الشمالية في شبه الجزيرة تزداد أهمّيتها عن باقي الطرق الأخرى بصفتها أقصر طرق الغزو بين مصر وبين جهات الهلال الخصيب.

3- إن سيناء وإن اشتركت طرقها المختلفة في وجود عقبات فيها أساسها قلة الماء وصعوبة السير وندرة المرعى وقسوة المناخ، فإن جزءها الشمالي أقل صعوبة من جزئها الأوسط على وجه الخصوص... حقيقة قد يكون الماء

والمرعى متوافرين في المنطقة الجبلية كما يتوافران في المنطقة الشمالية، لكن وعورة الطريق وشدة الحرارة في الخوانق الجنوبية أيام الصيف، وخطورة السيول زمن المطر، مضافًا إلى هذا ما أشرنا إليه في النقطتين الأولى والثانية، وما كان للبدو الذين يسكنون المنطقة الجبلية من سطوة تجعل السير في أراضيهم خطرًا والتغلّب على شرهم متعذرًا[1]، كل هذا جعل الطرق الشمالية طرقًا مفضلة عن غيرها، وجعل الاتّصال في الغزو والتجارة بين أفريقيا وآسيا أشد عن طريق شمال شبه الجزيرة وأقوى.

وهناك ملاحظة لا بد من الإشارة إليها قبل أن ندخل في تفاصيل دراسة تلك الطرق المختلفة، تلك هي قلة المعلومات عن حالة الطرق القديمة قلة تجعل من الصعب أن نوجد تتابعًا في دراستها؛ والكتّاب القدماء على قلة ما كتبوا لا يتعرضون لتفصيل تلك الطرق ولا يهتمون - إلا في النادر - بذكر مراحلها، وهم إن تعرضوا لذكر بعض المحطات فإنهم لا يعطوننا ما يساعد على تعيين مواضعها وترجيح مواقعها. ومثل هذا الكلام الأخير يمكن أن يقال عن جغرافيي العرب ورحالتهم كابن خرداذبة[2] والبكري[3]

---

(1) سنشير إلى هذا في دراسة السكان. ويستطيع القارئ أن يرجع إلى ما كُتب عن خروج الإسرائيليين من مصر والمقاومة الكبيرة التي قاومهم بها العمالقة في هذا الجزء، كذلك يمكن أن يرجع إلى الصعوبات التي كان يلقاها المصريون القدماء في منطقة التعدين الجنوبية من هؤلاء السكان مما اضطر الفراعنة إلى أن يوجدوا هنالك حرسًا قويًا للمعدنين.

(2) ابن خرداذبة، عبيد اللّه بن عبد اللّه (أبو القاسم) ولد في بغداد (205-280هـ/ 820-893م). مؤرخ وجغرافي عمل في خدمة الخليفة العباسي المأمون. اشتهر بكتابه «المسالك والممالك» الذي وصف فيه المسافات بين البلدان وأشار صراحة إلى كروية الأرض (إن الأرض مدورة كاستدارة الكرة، موضوعة كالمحة في جوف البيضة). فارسي الأصل، كان جده خرداذبة مجوسيًا. أسلم في عهد البرامكة. بالإضافة إلى كتابه الجغرافي «المسالك والممالك» له «جمهرة أنساب الفرس» و«اللهو والملاهي» و«الشراب» (م).

(3) البكري، أبو عبيد (عبد اللّه بن عبد العزيز) ولد في ولبة قرب اشبيلية (405هـ-487هـ/ 1014م-1094م)، وتوفي في قرطبة. جغرافي وموسوعي وأديب ونباتي. اشتهر في القرن الحادي عشر بوصفه أول الجغرافيين المسلمين في الأندلس. يرجع نسبه إلى بكر بن وائل بن ربيعة. ألّف كتابين في الجغرافيا «معجم ما استعجم» و «المسالك والممالك» وصف فيه جغرافية الأندلس وأوروبا وشمال أفريقيا. وفي علم النبات له كتاب «أعيان النبات والشجرات الأندلسية». كان أميرًا وتغلب عليه المعتضد في غرب الأندلس (م).

والمقدسي[1] واليعقوبي[2] و... و... الخ، وإن كان هؤلاء قد تركوا لنا شيئًا من التقديرات التقريبية، إن لم نخرج منها بشيء مؤكد ثابت ففيه من غير شك جانب من الفائدة لا ينكر... وإذا جاء دور الرحالة الأوروبيين في القرون الأخيرة فكتاباتهم تدور معظمها حول دراسة المنطقة الجنوبية من سيناء، ونصيب الطرق الشمالية من كتاباتهم نصيب ضئيل، وفي كتابة هؤلاء صعوبة أساسها أن غالبيتهم كانت تجهل اللغة العربية التي يزيدها تعقيدًا اختلاف لهجات البدو، مما يجعل تحريف أسماء الأمكنة التي يذكرونها تحريفًا يصبح من المستحيل معه في كثير من الأحوال تحقيق ما يريدون تحقيقًا يمكن الاطمئنان إليه. من أجل هذا كلّه لا تزال الصعوبات قائمة في دراسة الطرق القديمة، ولا تزال أسس كثيرة تنقص الباحث لا غنى عنها للوصول إلى نتائج أكثر تحديدًا...

والآن وقد مهّدنا للكلام عن الطرق بهذا التمهيد، يمكن أن نبدأ في دراستها مجموعة بعد أخرى:

أوّلًا - المجموعة الشمالية:

في شمال سيناء آثار كثيرة لا تزال بقاياها قائمة إلى الآن في تلك (الأكوام والمباني المتهدمة) التي نصادفها متتابعة متقاربة على ساحل البحر الأبيض من (رفح) حد سيناء الشرقي إلى أكوام (الفرما) قرب مدينة (بور سعيد)، وفي تلك (الخِرْبات) - فيما يعبر البدو هناك - توجد على مقربة من الدرب السلطاني

(1) المقدسي، محمد بن أحمد ولد في الشام (336-380هـ/ 990-947م). طاف أكثر البلاد الإسلامية. بدأ رحلته من القدس إلى الجزيرة العربية في مطلع العام 356هـ (966م) وزار العراق ومصر والمغرب وبلاد العجم (الديلم، خوزستان، فارس، كرمان، السند) وانتهى من رحلته في حدود العام 375هـ (985م). وضع خرائط لرحلته ولوّنها حين أنهى تأليف كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» في شيراز بعد أن بلغ الأربعين (م).

(2) اليعقوبي (أبو العباس)، أحمد بن إسحق بن جعفر بن وهب ولد في بغداد، وتوفي في مصر (284هـ/ 897م) وفي روايات أخرى عام 298هـ أو 291هـ. كاتب ومؤرخ وجغرافي عاش في زمن الدولة العباسية. زار كثيراً من البلدان منها أرمينيا، خراسان، الهند، فلسطين، مصر، بلاد المغرب وغيرها. له تاريخ اليعقوبي. تحدث فيه عن تاريخ الشعوب قبل الإسلام، وتاريخ الإسلام إلى سنة 258هـ (872م) (حتى أيام المعتمد على الله العباسي). وكتاب «البلدان» الذي يعتبر من أهم المخطوطات الجغرافية، وصف فيه المشاهدات وعرض المعلومات منطقيًا وقسّم المنطقة إلى أربعة (الشرق، الغرب، القبلة، والشمال). ووضع معلومات عن طرق المواصلات وكبريات المدن وخصوصًا بغداد وسامراء (م).

طريق القوافل الرئيسي في الشمال، ثم في تلك (الهرّابات) التي نحتت في الصخور في بعض المناطق الشمالية ليجري إليها ماء المطر ويحفظ فيها... فإذا أردنا أن نفسر وجود هذه الآثار الكثيرة في مناطق قاحلة كشبه جزيرة سيناء، فما يمكن أن نرجعها إلى فترة كان شمال سيناء فيها أكثر خصوبة تتخذ هذه الآثار أدلة عمران قديم عليها، لأن الكتّاب منذ أقدم عصور التاريخ يشيرون إلى جدب هذه المنطقة وندرة الحياة النباتية فيها، لا يشذ عن هذا إلا كتاب العرب الذين يكرر بعضهم كلام بعض، والذين يرددون - في غير تحفظ ولا تدقيق - ما وصل إليهم من أن بلاد «الجفار» كانت بلادًا عامرة تجود الزراعة فيها[1]... ولعل هؤلاء الكتّاب العرب لا يعنون بالجفار هنا ما اصطلحوا عليه «من أنه أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبي متصلة برمال تيه بني إسرائيل»[2]، وإنما يعنون في هذا المجال المنطقة التي كان يصل إليها ماء الفرع (البيلوزي) من أرض الجفار، وبهذا التفسير وحده يمكن أن نزيل التضارب في حالة المنطقة الشمالية بين ما يرويه جغرافيو العرب وما تتفق عليه الكتابات التي سبقتهم عن قحل المنطقة وجدبها... كذلك لا نعرف لهذا الجزء من سيناء شهرة قديمة في التعدين أو أهمية دينية تقدس من أجلها، يمكن أن نرجع إلى شيء منها هذه الآثار أو نربط بها تلك المباني المهدمة كما يرتبط بهذا آثار أخرى في بعض أجزاء شبه الجزيرة. وإذًا فهذه الآثار لا يسهل أن ترتبط بغير الطرق، وتلك المباني ما هي في الغالب إلا بقايا محطات كانت تمر بها الطرق ويتزود منها المسافرون.

هذه الآثار الكثيرة الموزعة في المنطقة الساحلية وقرب الدرب السلطاني وإلى جنوب ذلك في منطقة «القصيمة» و «مغارة» و«أم خشيب» يمكن أن نخرج منها بشيئين: أوّلهما أن انتشارها وكثرتها بشكل لا يصادف ما يقرب منه في باقي أجزاء سيناء يؤيد ما ذهبنا إليه من عظم الحركة في هذه المجموعة الشمالية وكثرة مرور التجارة والغزوات بها، وثانيهما أن هذا الانتشار للآثار والبقايا، وعدم تركزها في منطقة واحدة في الشمال يدل

(1) راجع: شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 112 - 113، وراجع غيره من كتاب العرب الذين لا يختلفون عنه فيما يذكرون من أن أرض الجفار كانت أرضًا عامرة.

(2) راجع: المصدر نفسه، ج 3، ص 112، وراجع كتب جغرافيي العرب تحت كلمة «الجفار».

على أن الاتّصال بين مصر والبلاد التي إلى شرقيها كان يتم بطرق متعددة تعبر الأجزاء الشمالية لسيناء، بعضها ضاعت معالم كثير من مراحله، وبعضها الآخر ظل متميّزًا من السهل أن نتتبعه. وإذا كان من الصعب أن نجزم بعدد تلك الطرق فإن منها ثلاثة تسهل الكتابات المختلفة والآثار الموجودة دراستها وهي:

1- الطريق الساحلي، الذي كان يبدأ من «رفح» ليسير على ساحل البحر أو قريبًا منه إلى أن يأتي إلى بحيرة «سر بونيس» - البردويل الحالية - فيسير حذاء سواحلها، ثم يستمر على ساحل البحر إلى مدينة (بيلوز) حيث كان مصب الفرع البيلوزي الذي أمكن الانتفاع به في الزمن القديم للاتّصال بأجزاء الدلتا.

2- طريق الرمل، يأتي من الشام إلى «رفح» أيضًا ليسير في منطقة الكثبان جنوبي الطريق الساحلي، يقطع مصب وادي العريش، ويستمر في الجفار إلى أن ينتهي على حدود سيناء الغربية في نهايات اختلفت في كتابة الجغرافيين، إذ ظلت (الفرما) نهاية الطريق حتى العصور الوسطى، ثم لا نعود نراها ذات أهمية على ذلك الطريق منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي تقريبًا، بل تظهر (قطيه) يمتد الطريق منها غربًا إلى (الصالحية) على حدود مديرية الشرقية من الشرق[1].

3- طريق إلى جنوب منطقة الكثبان، يسير في السهول المتسعة بين الكتل المرتفعة البارزة فيها، إلى المنطقة الرملية الواقعة شرقي قناة السويس، لينتهي على القنال في مكان يقرب من مكان الإسماعيلية الحالية، ولعلّه كان يستمر في وادي الطميلات إلى وادي النيل.

أما (الطريق الساحلي) فهو أقدم تلك الطرق الثلاثة كلها، كانت التجارة والغزوات تفضله لقلة رمله واعتدال هوائه ولكي تكون بعيدة عن مناطق البدو الذين كانوا يهددون المسافرين[2]... ثم لعلّه كان كذلك طريقًا تسهّل حمايته من ناحية البحر، مما جعل له أهميته الحربية في الفترة الرومانية والبيزنطية والإغريقية حيث اهتم بالمحطات الحربية الساحلية وبنيت بها القلاع.

---

(1) راجع بعد دراسة هذه النقطة بالتفصيل [هكذا وردت في الأصل (م)].

(2) راجع: Maspero, *The Dawn of Civilization*, pp. 416-427.

حيث ترى اقتباسًا فيه عن سير حملة بيبي الأول في الأسرة الخامسة يبين فيه خط سير الحملة ويعلله بخوف القائد من تحرش البدو به.

يسير هذا الطريق من «رفح» في أرض جامدة إلى شمال منطقة الكثبان، يقطع مصب وادي العريش ويتابع سيره في أرض جامدة كذلك حتى (الزرانيق) بدء بحيرة (البردويل)، وهنالك نجد لسانا من الأرض يسير بين البحر وبين البحيرة يتسع حينًا ويضيق حينًا آخر إلى أن نصل إلى منتصف ساحل البحيرة تقريبًا فنجد ذلك التل المرتفع المعروف بتل (القلس) وقد اتّسعت الأرض عنده، ثم يستمر الطريق إلى غربيه كما كان إلى أن نصل إلى طرف البحيرة الغربي، لنتبع ساحل البحر حتى أكوام (الفرما) التي غمرت المنطقة المحيطة بها بعمل قطع في ساحل البحر الأبيض ليسهل الدفاع عن قناة السويس أثناء الحرب الماضية[1]...

والغالب أن ساحل سيناء الشمالي الذي كان الطريق يسير محاذيًا له قد طرأ عليه تغيرات في الفترة التاريخية، إذ نجد أدلة الانخفاض فيه واضحة في آثار «المحمدية» - على طرف بحيرة البردويل الغربي - التي يقوم أجزاء منها على الساحل مباشرة وقد غمر ماء البحر بقية مبانيها إلى مسافة طويلة... في حين أننا نجد أدلّة الارتفاع في منطقة «الفرما»، إذ يعزو كثير من الكتّاب جفاف الفرع البيلوزي إلى شيء من ارتفاع الأرض في تلك المنطقة... ومن المعقول أن تكون مثل هذه التغيّرات مساعدة على تحوّل سير الطريق تحوّلًا لا يمكن تحديده بالضبط، لكنّه يساعدنا على فهم بعض أسباب قيام طريق الرمل مثلًا، ولعلّه يكون تعليلًا له أهميته في تلاشي مركز «الفرما» التي كانت مدينة ذات مركز ممتاز على نهاية هذا الطريق الحربي إلى مصر[2]...

ويمكن أن نلخص محطات ذلك الطريق كما جاءت في كتابات بعض الكتب والرحالة في الفترات المختلفة كما يأتي:

---

(1) راجع: «History of the Great War» in: *Military Operations*, p. 25.

يشير الكاتب إلى القطع الذي عمل والذي وصل بواسطته ماء البحر الأبيض إلى شمال القنطرة تقريبًا فغمر حوالى 20 ميلًا على جانب القناة.

(2) سندرس في الصفحات التالية ضياع أهمية الفرما، وقيام محطة (قطيه) وسنشير إلى تاريخ ذلك وأسبابه.

ماسبيرو	استرابون	Tabula peutingar عن كامرر	Itinirar antonini	قدامة الجغرافي العربي	المقدسي في أحسن التقاسيم	الأسماء الحالية التي نقترحها
زالو	بيلوز	بيلوز	بيلوز	الفرما	الفرما	تل الفرما آثار المحمدية
	Chabrias Gerrha		Pentashoenus			
تل كاسيوس	Casium (Cas)	Casio	Casium	القصر	دير النصارى	تل القلس آثار
		Ostracine	Ostracine	المخلصة	المخلصة	الفلوسيات
العريش	رينوكولورا	رينوكولورا	رينوكولورا	العريش	العريش	العريش
رفح	رفح	رفح	رفح	رفح	رفح	رفح

ومن هذا الجدول يمكن أن نخرج بالملاحظات الآتية:

أ- هناك اتفاق يكاد يكون تامًا بين الكتّاب على أن الطريق الساحلي كان يبدأ في حدود سيناء الغربية من منطقة «الفرما» عند مصب الفرع البيلوزي، وينتهي عند «رفح» على نهاية حدود سيناء الشرقية، وأنه يمر بالعريش (رينوكولورا في التسمية القديمة)، لكن ذلك لا يمنع من وجود اختلافات على مواضع هذه الأماكن بالتدقيق: فموقع الفرما أو بيلوز يتغير من فترة إلى أخرى - وإن كان داخل دائرة محدودة - و (اميلينو) في كتابه عن مصر في الفترة القبطية يتكلم عن (رينوكولورا) فيشير إلى أن الكتاب يضعونها في موضع (العريش) الحالية، وهو وإن لم يوافق على هذا، يعلن في صراحة أنه لا يستطيع أن يقترح لها موضعًا خيرًا من هذا[1]... وأما (زالوا) التي ذكرها ماسبيرو فهي مدينة كانت تقع على حدود مصر الشرقية في موقع غير معروف تمامًا، تبدأ منها الطرق التي تسير إلى شرقي مصر قاطعة سيناء (أرض شور)، ولعلها كانت محطة سابقة لمدينة (بيلوز) تدخل ضمن تلك السلسلة من المدن المحصنة التي أقامها

(1) راجع: Emile Amélineau, *La Géographie de l'Egypte à l'époque copte* (1890), p. 404.

فراعنة مصر لحماية الدلتا من غارات بدو الصحراء... والظاهر أن الاهتمام بتحصين مدينة (بيلوز) - كغيرها من المدن الساحلية - وجعلها المركز الحربي الهام على حدود مصر إنما جاء في أيام الرومان، إذ دلت الأبحاث على أن الآثار السابقة لتلك الفترة قليلة في هذه المنطقة[1]...

ب - كذلك يكاد يكون مسلمًا به عند الكتاب جميعًا وجود محطة في منطقة تل «القلس»: فكاسيوس، وكاسيوم، وكاسيو، أسماء واحدة غاية الأمر إنها محرفة. ولفظ «القصر» الذي ذكره (قدامه) إما أن يكون تحريفًا للقلس أو نعتًا للبناء الذي كان موجودًا هنالك والذي كان يراه الرحالة العربي ضخمًا يطلق عليه اسم (القصر)، وهذا البناء أقيم أولًا ليكون حصنًا يحمي الطريق وكان به معبد كبير عله ظل قائمًا معروفًا يشير البدو إليه، ولا يبعد أن يكون «المقدسي» في كتابه (أحسن التقاسيم) قد تأثر بهذا فسمي المحطة (دير النصارى) نسبة إلى ذلك المعبد[2].

أما (استراكين) التي ذكرتها Tabula Peutingar و Itinirar Antonini فتقع بين (رينوكولورا) وبين (كاسيوس)، وقد أشار إليها كتّاب آخرون كثيرون، وعين (اميلينو) موقعها بالتحديد، إذ كتب تحت كلمة (استراكين) أنها على بعد 24-26 ميلا من (رينوكولورا) و 16-23 ميلا من (كاسيوس) وأنها مدينة تلاشت[3]... فإذا جئنا نبحث عن مدى علاقة الموضع الذي سماه الكاتبان العربيان - قدامة والمقدسي - (بالمخلصة) ووصفاه بأنه محطة بين القصر أو دير النصارى وبين العريش فعلينا أن نذكر أن (قدامة)[4]

(1) راجع: W. F. Hume, *A Brief History of North Sinai and of Pelusium: The Border Fortress of Egypt* (1918), p. 57.

والكاتب يعتمد على: W. M. Flinders Petrie, *Research in Sinai* (1906), chap. 14, and Mr. Griffith, *Description of Kantara*.

(2) راجع ياقوت الحموي، ج 7، ص 85، إذ يشير إلى وجود الحصن فيما نقل عن الحسن بن محمد المهلبي المصري.

(3) راجع (اميلينو) في كتابه جغرافية مصر في الفترة القبطية تحت كلمة (استراكين) ص 288-289.

(4) قدامة (ابن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي) أسلم في بغداد على يد المكتفي بالله، وحضر مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الزيات سنة 320هـ وجالس المبرد (توفي 285هـ) وثعلب (توفي 291هـ) وعاصر ابن قتيبة (توفي 276هـ) والسكري (توفي 275هـ). توفي في بغداد في أيام المطيع عام 337هـ. له كتب منها «الخراج» يعرض فيه نظام البريد وإدارة الأموال العامة ونظام الجباية و«نقد الشعر» تأثر به بالفلسفة والمنطق واختلف في منهجه عن الجاحظ وابن المعتز وكتاب «صناعة الكتابة» و«جواهر الألفاظ» و «السياسة» و «البلدان» و «صناعة الجدل» (م).

حدد بعد (المخلصة) عن العريش بـ 21 ميلا وعن القصر ب 24 ميلًا[1]... وهذا التقدير يقرب جدًا مما قدره (اميلينو) للمسافة بين (استراكين) وبين (رينوكولورا) من جهة وبينها وبين (كاسيوس) من جهة أخرى. وما دامت الآثار بين (تل القلس) ومدينة العريش لا توجد إلا في منطقة واحدة على الساحل فإن ذلك كله يرجح أن المخلصة واستراكين يقعان في مكان واحد.

ج- إن المنطقة من الطريق الساحلي التي نجد شيئًا من الاختلاف في محطاتها هي الواقعة بين (كاسيوس) وبين (بيلوز): فعلى حين أننا نرى أحيانًا اسم GERRHA و CHABRIAS في (كتابة استرابون) إذا بنا في الـ ITINIRAR ANTONINI نرى اسم PENTASHOENUS وفي الخريطة المرسومة لجغرافية (بيليني) - في أطلس البرنس يوسف كمال[2] - نرى إلى الداخل قليلًا GERRON و CHABRIAS CASTRA[3]، على حين أن غالبية الخرائط التي نقلت في أطلس البرنس كمال للفترة السابقة لبطليموس[4] ثم في أيام (بطليموس) والفترة الرومانية كلها تضع GERRHA محطة تالية إلى غربي (كاسيوس) على الطرف الغربي لبحيرة (سربونيس)[5]، مكان آثار (المحمدية) الحالية؛ أما PENTASHOENUS وCHABRIAS اللتان ذكرهما بعض الكتّاب بين (كاسيوس وبيلوز) فمن الصعب أن نجد في كتابتهم أو في الخرائط المرسومة لتوضيح ما كتبوا شيئًا كثيرًا يساعد على تعيين موضعهما، ولعلّهما كانتا أقل أهمية، سيما وأن المسافة بين كاسيوس وبيلوز ليست من الطول بحيث تستدعي قيام ثلاث محطات هامة بها، ولأن الآثار التي تصادفنا بين آثار المحمدية وأكوام الفرما التي يمكن أن تكون بقايا هاتين المحطتين آثار بسيطة لا يمكن أن تقارن بآثار المحمدية أو أكوام الفرما...

---

(1) راجع عن الفترة العربية: يوسف كمال، المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الأفريقية (1933)، ج 1، ص 564.

(2) كمال، يوسف (الأمير) حفيد محمد علي باشا. ولد في 1882م، وتوفي في مدينة أسترويل في النمسا سنة 1969. رحالة، جغرافي مصري. زار أفريقيا الجنوبية والهند. أنفق على ترجمة بعض الكتب من الفرنسية إلى العربية، منها وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية من تأليف مسيو جيان، والمجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة (13 مجلدًا)، وكتاب بالسفينة حول القارة الإفريقية ورحلة سياحة في بلاد الهند والتبت الغربية وكشمير في 1915 (م).

(3) راجع أطلس البرنس يوسف كمال (قبل بطليموس جزء أول) الخريطة المقابلة لصفحة 98.

(4) بطليموس عالم فلك ورياضيات ومنجّم وجغرافي إغريقي مصري. توفي في الاسكندرية في العام 161م. صاحب العديد من الأطروحات التي ستترك أثرها لاحقًا في الكثير من العلوم الإسلامية والأوروبية (م).

(5) راجع، فترة بطليموس والرومان: كمال، المجموعة الكمالية في جغرافية مصر.

هذا الطريق الساحلي هو أغنى جهات سيناء كلّها بآثاره وبقاياه، غنى يرجع إلى شدة الاهتمام به وإقامة الحصون فيه، ولذا حفظت لنا تلك البقايا معالم الطريق فما نجد صعوبة في تلمس مواقع المحطات المختلفة التي ذكرناها فيه. ويرجع الاهتمام بهذا الطريق إلى الفترة الرومانية والبيزنطية، فقد سبق أن أشرنا إلى أن الأبحاث التي عملت في بعض أجزاء الطريق قد دلت على أن آثار الرومان والبيزنطيين هي الغالبة وعلى أنه لا توجد آثار سابقة لذلك إلا نادرًا. وذلك معقول إذا لاحظنا أن الرومان هم أول من اهتم بالطرق في العصور القديمة، أما قدماء المصريين فكانوا يهتمون بحماية حدودهم الشرقية على طور برزخ السويس، أما الطرق التجارية والحربية في صحراء سيناء نفسها فما كانوا يوجهون إليها - فيما يظهر - اهتمامًا كبيرًا.

وسنبدأ الآن من الغرب فنجد آثار مدينة (بيلوز) أو الفرما ممثلة في كومين عظيمين يحيط بهما الآن بقايا مستنقعات هي نتيجة غمر المنطقة بماء البحر الأبيض لحماية القناة في الحرب الماضية. يمتد هذان الكومان حوالي ميلًا ونصف ميل في خطين متوازيين، الشرقي منهما أقل في الامتداد ولكنّه أعظم في الارتفاع، أما الغربي فيمتد حوالي الميل ويتّسع إلى نصف ميل وما يرتفع إلى أكثر من 40 قدمًا، وبين الكومين أرض مستوية ربما كان الفرع البيلوزي ينتهي عندها. وهنالك بقايا حصن وآثار سور من الطوب الأحمر وبعض أعمدة من الجرانيت. ويدل كبر الكومين واتساع المنطقة التي تشغلها الآثار على عظم مدينة بيلوز وأهميّتها مما يطابق الكتابات عن تلك المدينة التي كانت مفتاح مصر من الشرق.

فإذا انتقلنـا شرقًا فإنا نصادف بعض أكوام بسيطة لعلها بقايا CHABRIAS وPENTASHOENUS إلى أن نصل إلى الطرف الغربي لبحيرة (سربونيس) حيث نجد خرائب وأكوامًا كبيرة في المكان المعروف الآن بالمحمدية. وتدل كبر المساحة التي تشغلها هذه الآثار على عظم هذه المحطّة واتّساعها، وبقايا الحصن القائم هنالك تدل على أنه كان حصنا كبيرًا لا تزال حوائطه باقية، أغار عليها البحر بشكل واضح فتركها قائمة يصطدم الماء بها، كما تمتد بقايا المباني داخل البحر إلى مسافة بعيدة عن الساحل يستفيد منها الصيادون في مهنتهم حيث تأوي إليها الأسماك... وغالب مباني المحمدية من الطوب الأحمر، لكن

توجد بعض مبان من الحجر كما يصادف الزائر بقايا العملة الرومانية. وفي مكان المحمدية هذه كانت تقوم GERRHA فيما نرجح، وربّما كانت غارة البحر عليها داعيًا لقيام PENTASHOENUS التي تضعها كثير من الخرائط المرسومة للعصور القديمة في أطلس البرنس يوسف كمال إلى الداخل قليلًا.

أما (كاسيوس) فموقعها في مكان تل القلس الحالي، يشير كتاب الفترة الرومانية والبيزنطية إلى وجود حصن هام ومعبد بها كما يشير بعض كتّاب العرب إلى وجود حصن للنصارى فيها[1]. وإذا لم تكن آثار (القلس) ظاهرة الآن فما يبعد أن تكون الرمال تغطي جزءًا منها وأن يكون البحر قد أغار على جزء آخر. وليس في اللسان الموجود بين البحيرة والبحر - بين آثار (استراكين) وآثار المحمدية - مكان يمكن أن يقوم فيه حصن ومعبد خير من منطقة القلس هذه: فهنالك نخيل وماء على عكس باقي اللسان فهو مجدب يندر فيه النبات، كما أن هذا المكان متوسط بين المحطتين يحسن أن يقوم الحصن فيه...

وتنعدم الآثار إلى شرقي (القلس) حتى نأتي طرف البحيرة الشرقي عند الزرانيق التي يسكنها الآن صيادون يعيشون في أكشاك. هنالك نجد آثار (الفلوسيات)، يقع نصفها فوق كثيب رملي مرتفع نوعًا، ويقع النصف الآخر فوق أرض ملحية يغير ماء البحر عليها، ويصعب أن تصل الإبل إليها إذ تغوص أقدامها فيها... هذه التسمية تسمية حديثة ربما تكون مشتقة من (الفلوس) لكثرة ما كان يجد الناس هنالك من عملة قديمة. هذا الموضع هو في الغالب مكان (استراكين) التي سماها كتاب العرب (المخلصة). ويشير (اميلينو) وغيره من الكتاب الذين كتبوا في القرن التاسع عشر إلى وجود قرية في هذا الموضع تعرف باسم STRAKI[2]. وهذا الاسم غير معروف في سيناء الآن ولعلّه كان موجودًا ثم نسي منذ عهد قريب. ولقد درس هذه المنطقة دراسة مفصّلة M. Jean CLE'DAT: Fouilles à Khirbet el Flusiat[3]، وهو يراها

---

(1) راجع: ياقوت الحموي، ج 7، ص 85.

(2) راجع تحت كلمة (استراكين): Amélineau, pp. 288 - 289.

(3) راجع: Hume, *A Brief History of North Sinai and of Pelusium*, pp. 59-60.

والكاتب يعتمد على: Jean Clédat, «Fouilles à Khirbet el-Flousiyeh (Janvier - Mars 1914),» dans: *Annales du Service des antiquités de l'Egypt* (Le Caire: Conseil Suprême des antiquités égyptiennes,1916). pp. 6-32.

آثار مدينة (استراكين) التي كانت لها أهميتها الحربية بصفتها واقعة على تفرع الطريق الساحلي في شمال البردويل والطريق الذي كان يسير جنوب البحيرة إلى وادي النيل. ولقد لفت هذا الموقع نظر الامبراطور VASPASIAN حين كان يهاجم سوريا، فاهتم به وإن كان الاهتمام الأكبر إنما جاء أيام (جستنيان)[1] الذي وسع المدينة وأوصل مبانيها إلى البحر وأصبحت هذه المدينة - فيما يذكر (أميلينو) - في الفترة الرومانية عاصمة Augustamnie Province I ومركزًا لكرسي ديني مهم[2]... ولا تزال آثار كنيستها واضحة تشغل مساحة كبيرة... والذي يزور المنطقة يجد عمودين من الرخام هناك على أحدهما صليب، كما يشاهد آثار الفخار والزجاج بكثرة.

فإذا سرنا إلى الشرق من ذلك فإنا نجد بقايا طريق من الحجر يمتد من (المزار) - أمام الفلوسيات - إلى (المساعيد) قرب العريش، وهو ظاهر في الرمل لا نستطيع أن نحدد تاريخه وإن كان (جارفس بك) في كتابه عن سيناء يرجعه إلى فترة قديمة جدًا[3]... والذي يهمنا بعد ذلك هو منطقة (العريش) وآثارها. هذه المنطقة لم تدرس بعد دراسة علمية ولم يكتب عنها شيء له قيمة، لكن وقوعها على تلاقي طريق البطراء بطريق بلاد الشام، وغنى منطقتها بالماء الصالح للشرب، ووجودها على مصب وادي العريش حيث يمكن أن يقوم حولها شيء من الزراعة، كل ذلك جعل لها أهميتها كمحطة رئيسية على ذلك الطريق، أشار إليها الكتّاب القدماء، ولم يغفل ذكر (رينوكولورا) - التسمية القديمة لها - كاتب منهم، كما أشار إليها جغرافيو العرب كلهم، واعتبروها سوقًا عظيمة... لقيت هذه المحطة من غير شك عناية الرومان، وكان بها كنيسة كبيرة ودير، والظاهر أن الحصن الذي اهتم ببنائه (السلطان

(1) جستنيان إمبراطور روماني شرقي (بيزنطي) حكم من العام 527م حتى وفاته في 565م. تولّى الحكم بعد وفاة عمّه الإمبراطور جستن الأوّل. ولد فلافيوس بتروس سابا تيوس يوستيانوس في 482م واشتهر بإصلاحاته القانونية (قانون جستنيان) والتوسّع العسكري في أثناء عهده. يعتبر قديسًا في الكنيسة الأرثوذكسية ويحتفل بذكراه في الرابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر (م).

(2) راجع تحت كلمة (استراكين): Amélineau, pp. 288 - 289.

(3) راجع: Jarvis, p. 106.

سليم)[1] - حين فتح مصر - والذي هدمته قنابل الحرب الماضية، إنما يقوم على أنقاض حصن أقدم منه. وتغطي بقايا الفخار مساحة كبيرة تدل على أن المدينة كانت تبلغ مساحتها حوالي ثمانية أميال مربعة، وكثيرًا ما يعثر الأهالي - وهم يعدون الأرض للزراعة - على حوائط أبنية قديمة، كما أنهم استفادوا من الأحجار التي وجدوها فبنوا بها مساكنهم. لكن هل تقوم مدينة (العريش) الحالية مكان (رينوكولورا) القديمة تمامًا؟! الإجابة على هذا السؤال صعبة لأن المنطقة لم تدرس، ولأن الكثبان قد تكون مغطية لجزء من الآثار القديمة، لكن مما لا شك فيه أن دائرة المدينتين واحدة، وإن كان هناك اختلاف في موقعهما فهو اختلاف لا يهمنا كثيرًا في هذا البحث.

أما الآثار الباقية بعد ذلك فهي أكوام بسيطة على الساحل شمال (الشيخ زويد) بخمسة كيلومترات، يوجد بها بقايا من الطوب ومن المباني الحجرية، عثر فيها على عملة غالبها من أيام (قسطنطين)[2]. كذلك توجد بقايا إلى الشمال الشرقي وإلى الجنوب من (رفح) أهمها بقايا حصن قرب الساحل له حوائط ترتفع إلى 15 قدمًا، وعلى مقربة من ذلك الحصن أكوام كبيرة تدل على أهمية المكان.

نستطيع من هذا كلّه إذًا أن نعيّن موضع المحطات القديمة على الطريق الساحلي: فرفح لا تزال معروفة، ورينوكولورا في دائرة العريش الحالية،

---

(1) السلطان سليم الأول (تاسع سلاطين الدولة العثمانية) ولد في أماهيا (الأناضول) في 872هـ/ 1470م، وتوفي في أدرنة في 926هـ/ 1520م. حكم الدولة العثمانية نحو تسع سنوات (1512-1520) بعد انقلاب قام به على والده بايزيد الثاني بدعم من الإنكشارية وخاقان الروم. ظهرت في عهده السلالة الصفوية في إيران فخاض ضدّها الحروب وانتصر، وتوجّه لمحاربة السلطنة المملوكيّة في مصر وبلاد الشام ونجح في القضاء عليها بعد أن استمرّت 267 سنة. تحوّلت الفتوحات في عهده من الغرب الأوروبي إلى الشرق العربي لتشمل الشام والعراق والحجاز وتهامة ومصر. بعد وفاته تولّى ابنه سليمان القانوني السلطنة وبعده حفيده سليم الثاني (1524-1574م) (م).

(2) قسطنطين (272-337م) إمبراطور روماني (جايوس فلافيوس فاليريوس أورليوس كونستانتينوس) ويعرف بالعظيم. أمّه هيلانة التي ينظر إليها بوصفها أهم شخصيّة قامت، إلى جانب ولدها، بدور كبير في تاريخ الكنيسة الأولى. شكّل حكم قسطنطين نقطة تحوّل في تاريخ الكنيسة حين أصدر في العام 313 م مرسوم ميلانو الذي أعلن فيه إلغاء العقوبات على من يعتنق المسيحية. كذلك دعا إلى عقد مجمع نيقية المعروف باسم «المجمع المسكوني الأول» في 325م. قام في 330م بتحويل بيزنطة إلى عاصمة الامبراطورية الرومانية وتغيّر اسمها إلى القسطنطينية بعد وفاته في 337م. واستمرّت القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية حتى العام 1453 حين فتحها العثمانيون وتغيّر اسمها إلى اسطنبول (م).

واستراكين في موضع الفلوسيات، وكاسيوس مكان القلس وGERRHA محل المحمدية وPENTASHOENUS وCHABRIAS بين المحمدية والفرما ثم ننتهي إلى بيلوز وموضعها في أكوام الفرما الواقعة على مقربة من بور سعيد الحالية.

والظاهر أن أهمية هذه المحطات قد ضعفت في أواخر الحكم الروماني واضمحلت حالة تلك الحصون. ولعل ذلك راجع إلى ضعف الحكم الروماني في مصر في أواخر أيامه، ضعفًا أدى إلى سحب الحاميات من تلك الحصون والاكتفاء بتحصين الفرما وتقويتها، فلم يلق المسلمون في غزوهم لمصر مثلًا أية مقاومة لا في العريش ولا في غيرها من المحطات التي تسبق الفرما من ناحية الشام[1]. لكن ليس معنى ذلك أن الطريق قد اضمحلت أهميته أو تحولت التجارة عنه، فسنرى أنه ظل الطريق الرئيسي حتى العصور الوسطى، ما كان يعيبه إلا قلة الماء فيه إلى غربي العريش حتى الفرما، قلة كان يضطر معها المسافرون والجيوش إلى أن يحملوا حاجاتهم من الماء... أما خطورة منطقة بحيرة (سربونيس) التي كانت تصغر مساحتها أحيانا وتصبح في بعض نواحيها مغطاة بالرمل لا يراها الجيوش حتى لقد هلك منها عدد كبير فيما يقول بعض المؤرخين (!) فوضع المسألة على هذا الوجه يجعلها أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقائق، ولعل التعليل الأقرب إلى الصحة هو أن هلاك الناس إنما كان يقع على ذلك الامتداد الضيق بين البحر والبحيرة حين يضطرب البحر وترتفع أمواجه فيغرق الذين يصادفهم سوء الحظ هنالك... بهذا يفسر الذين يرون هذا الطريق طريق خروج الإسرائيليين غرق فرعون، لكن هذه نقطة لا تدخل في صلب البحث فما يهمنا أن نناقشها ويكفي أن نمر بها مرًا[2]...

وأما (طريق الرمل) الذي يطلقون عليه الآن «الدرب السلطاني» بصفته طريق القوافل الرئيسي، فالمقريزي يتكلم عنه محددًا تاريخ قيامه ومشيرًا إلى أن «الطريق الذي يسلكه المارون على الرمل - يقصد الدرب السلطاني - لم يكن هو الطريق القديم بين مصر والشام، ولم يوجد إلى بعد الخمسماية من الهجرة - بدء القرن الثاني عشر الميلادي - عندما انقرضت دولة الفاطميين، حين أغار الفرنجة على الساحل عام 490 هـ وأخذوا العريش فعطل السفر

---

(1) راجع مثلًا كتاب (بتلر) عن فتح مصر.

(2) الخلاف كبير على طريق الإسرائيليين. وقد أخذ جارفس بك برأي أنصار الطريق الشمالي وشغل بذلك جزءًا كبيرًا من كتابه في الفصل التاسع «The 40 Years Wandering,» p.158.

على الساحل»[1]... ولو كان (المقريزي) قد قصد أن طريق الرمل لم تكن له أهمية منافسة لطريق الساحل إلا منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي لكان في كلامه أكثر احتياطًا، أما إرجاعه وجود الطريق إلى ذلك التاريخ فتحديد لا يقوم على أساس من التأكيد. فقد رأينا من الكتاب عن الفترة القديمة من يرى أن (استراكين) - التي وضعناها مكان الفلوسيات الحالية - كانت منذ القدم نقطة يتفرع الطريق عندها إلى طريق الساحل شمال بحيرة (سربونيس) من ناحية وإلى طريق الرمل جنوبي البحيرة من ناحية أخرى... وكثير من جغرافيي العرب كابن خرداذبه (272 هـ - 885 م)[2]، وقدامة في كتابه «الخراج وصنعة الكتابة» (318هـ - 930م)[3]... وغيرهما يصرحان بوجود طريقين أحدهما يمر بالساحل والآخر يمر بطريق الرمل في أرض الجفار. وإذًا يكون من الأسلم ألا نتقيد بما قيد (المقريزي) نفسه به، وأن نرجع قيام ذلك الطريق إلى فترة أقدم مما حدد المقريزي بكثير. أما أهمية طريق الرمل فهي تبدأ أول أمرها أقل من أهمية الطريق الساحلي لكثرة رماله، وقسوة مناخه، وربما كان استخدام الإبل للنقل في صحراء سيناء قد جاء متأخرًا. ثم تأخذ أهمية الطريق في الزيادة، لا لمجرد أن الفرنجة قد هددوا الساحل - كما ذكر المقريزي - بل تقوم إلى جانب ذلك أسباب أخرى ساعدت على إضعاف الطريق الساحلي ربما كان طغيان البحر على الساحل من بينها؛ فإذا هدد الصليبيون الساحل بعد ذلك كانت هذه العوامل مجتمعة سببًا في زيادة أهمية طريق الرمل، وعاملًا في إضعاف الطريق الساحلي الذي أشرنا إلى أن معظم محطاته قد بدأت تضعف أهميتها وتقل العناية بها في أواخر حكم الرومان في مصر... والخريطة التي رسمها (بتلر)[4] في كتابه «فتح مصر» ترينا أن تقدم العرب إلى «الفرما» إنما كان من طريق الرمل لا طريق الساحل[5]...، مما يمكن أن نفهم منه بروز أهمية هذا

---

(1) راجع: أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، خطط المقريزي، ج 1، ص 226 وما بعدها.

(2) راجع: أبو القاسم بن عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن: مطبع بريل، 1889).

(3) راجع في المصدر نفسه ما هو ملحق به من كتاب قدامه الخراج وصنعة الكتابة، ص 219-220.

(4) الفريد ج. بتلر (1850-1936) مؤرخ انكليزي تعلّم في اكسفورد، وأصبح زميلًا في كلّية براسينوز 1877 ونال الدكتوراه في 1902. كتب عن مصر عددًا من الكتب تناولت الحقبة القبطية ومرحلة القرون الوسطى، ومن بين هذه الأعمال الكنائس القبطية في مصر (1889)، وفتح العرب لمصر (1902). قام محمد فريد أبو حديد بتعريب فتح العرب لمصر في مجلّدين، ويعتبر أحد أهم المراجع الموثقة والمفصّلة لفترة الفتح الإسلامي لمصر (م).

(5) راجع (بتلر) في كتابه فتح مصر.

الطريق وتقدّمه على الطريق الساحلي، تقدّمًا أخذ يزداد شيئًا فشيئًا حتى أصبح طريق الرمل هو الدرب السلطاني، وأصبح طريق الجفار هو الطريق الرئيسي، تقطعه الجيوش، وتسلكه التجارة بين مصر والشام، ثم مدت فيه سكة حديد فلسطين أثناء الحرب الماضية، ولا تزال الإبل الآتية من بلاد الحجاز والشام تفضله إلا في بعض أيام السنة حيث تفضل طريق الساحل لتتفادى ذبابًا مميتًا في طريق الرمل يقتل الإبل في بعض أيام الربيع والصيف[1].

وسنحاول الآن - قبل أن ندرس سير الطريق وتفاصيله - أن نلخص محطاته ومراحله كما وردت في بعض الكتابات في الفترات المختلفة ليكون ذلك أساسًا للدراسة المقارنة:

الفتح الإسلامي	ابن خرداذبه 272هـ-885م	قدامة 318هـ (930م) ابن حوقل 366هـ (977م) المقدسي 985م	الإدريسي 1154 م	أبو الفداء وياقوت (أواخر القرن 13م)	الفتح العثماني	رحلة الشيخ النابلسي (1730م)	طريق الحملة الفرنسية	طريق ابراهيم باشا	السكة الحديدية الفلسطينية الحالية
الفرما	الفرما	الفرما	الفرما	الفرما					القنطرة
	العذيب					الدويدار			
						رمل الغرابي			
				قطيه	قطيه	قطيه	قطيه	قطيه	
						بئر العبد			بئر العبد
	الثعامه	البقاره				رأس الادراب			
	الوراده	الوراده	الوراده	الوراده		ام الحسون			
						قبر الساعي			
						بئر المساعيد			
العريش	العريش	العريش	العريش	العريش	العريش	العريش	العريش	العريش	العريش
رفح	رفح	رفح	رفح	رفح	رفح	رفح	رفح	رفح	رفح

(1) راجع عن سيناء: شقير، ص 260.

ونستطيع أن نخرج من هذا الجدول بالملاحظتين الآتيتين:

الأولى: أن طريق الرمل ظل يبدأ من رفح على حدود مصر الشرقية، وينتهي عند الفرما على حدود سيناء الغربية حتى حوالي القرن الثاني عشر الميلادي، ثم تذكر «الفرما» بعد ذلك على أنها خراب قليلة الأهمية منذ هاجمها (بلدوين)[1] ملك بيت المقدس عام 1118 وخربها[2]. ولذلك نجد أن William of Tyre حين يتكلم عن غزو (املريك) لمصر في أكتوبر سنة 1169 يذكر أن الفرما في أيامه كانت خرابًا[3]، وهذا نفس ما كتبه (أبو الفداء) الجغرافي العربي في أواخر القرن الثالث عشر[4]... ومن تلك المدة نجد الكتّاب والرحالة يعينون لنا طريق السفر بعيدًا عن الفرما إلى الجنوب منها وما يشيرون إلى تلك المدينة التي كانت المحطة الرئيسة إلا إشارة المؤرخ يتحدث عن حقيقة تاريخية. فالذين أرخوا للفتح العثماني مثلًا لا يذكرون ما يدل على أن (الفرما) كانت حصنًا قاوم الفاتحين كما كان يقاومهم دائمًا من قبل، ولا يشيرون إلى أن العثمانيين صادفوا فرعًا للنيل أثناء تقدّمهم إلى مصر... فإذا جئنا نتلمس علة لزوال أهمية مدينة الفرما التي كانت أكبر حصن على حدود سيناء الغربية، والتي شهدت مواقع شتى بين غزاة مصر وبين المدافعين عنها، فما يكفي أن نرجعها إلى تخريب الصليبيين لها، فكثيرًا ما خربت على أيدي غيرهم ثم عادت لها أهميّتها ثانية لهذا الموقع الحربي الفريد الذي كانت تتمتع به على مصب الفرع البيلوزي. وما دام تخريب الصليبيين لها قد قضى عليها في تلك المرة قضاءً تامًا فلا شك أن عوامل أخرى قد أثرت في مركزها وأضعفت من أهمّية موقعها، ولعل جفاف الفرع البيلوزي يمكن أن يسأل في الجوهر عما أصاب مدينة «الفرما» من ضعف عجلته غارة الصليبيين.

الثانية: وباضمحلال أهمية (الفرما) وتحول الطريق إلى جنوبها تظهر محطة (قطيه) وهي محطة لم تكن معروفة من قبل، فإذا ظهرت ساعدها موقعها على أن تكون محطة هامة كما سنرى... وإذا لم يكن عندنا ما يعين تاريخ قيام

---

(1) بلدوين (1058-1118م) أحد قادة الحملة الصليبية الأولى. مؤسّس إمارة الرها، وثاني ملوك بيت المقدس بعد وفاة شقيقه غودفري (م).

(2) Hume, *A Brief History of North Sinai and of Pelusium*, pp. 62-63.

(3) المصدر نفسه، ص 62.

(4) يتكلم أبو الفداء عن الفرما فيقول «... ما هي الآن إلا خرائب...». راجع: Abu Al-Fida, p. 146.

هذه المحطة بالدقة، ففي إمكاننا أن نرجعه إلى حوالي القرن الثالث عشر الميلادي، حيث ترد في كتابة الكتّاب والرحالة منذ ذلك الوقت على أنها محطة رئيسية في طريق الجفار بين مصر والشام. ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن (المقريزي) يرجّع وجود مدينة (الصالحية) على أطراف مديرية الشرقية إلى عام 644هـ - منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تقريبًا - حين أنشأها الملك الصالح[1] نجم الدين بن الكامل[2]. فمن المحتمل أن ترجع نشأة هذه المدينة إلى نفس الفترة التي قامت فيها (قطيه)، بصفتها أوّل محطة هامة في طريق القوافل بعد أن نترك سيناء وندخل في أرض مديرية الشرقية.

ونحتاج إلى تحقيق موقع محطتين في هذا الطريق: «الورَّاده» وهي المحطة الهامة التي تلي «العريش» ناحية مصر، ومحطة «البقَّاره» التي تليها. أما الورَّاده فتسمية لا أثر لها في الخرائط الحديثة، لكنا في أطلس البرنس كمال نجد «الورّاده» موضوعة قريبة جدًّا من الطرف الجنوبي الشرقي لبحيرة البردويل، أي أنها قريبة من محطتي البردويل والميدان الحاليتين[3]... وفي منطقتي البردويل والميدان آثار مهدّمة متّسعة يطلق عليها اسم «الخرابات»: فعند الميدان على بعد دقائق غربي الدرب السلطاني توجد أكوام قيل لنا أنها تمتد إلى البحيرة، رأينا فيها آثار جدران يظهر أن كثيرًا منها قد هدم أثناء إعداد الأرض لزراعة الشعير والبطيخ. ومثل هذه الآثار نراها قرب محطة البردويل أيضًا، ومن المحتمل أن تكون هذه المنطقة هي موضع (الورّاده) التي ذكرها جغرافيو العرب على بعد مرحلة من العريش في طريق الجفار إلى مصر...

---

(1) الملك الصالح (نجم الدين أيوب بن الملك الكامل) ولد الصالح أيوب في القاهرة 603هـ/ 1205م، وتوفي في المنصورة 647هـ/ 1249م. سابع سلاطين الدولة الأيوبية في مصر، حكم من 1240 إلى 1249م. وفي السنة الأخيرة من حكمه تعرّضت مصر للحملة الصليبية السابعة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع. توفي الصالح أيوب في أثناء احتلال الفرنجة لدمياط وخلفته زوجته شجرة الدر. شهد عصره توغّل المغول في أراضي الخلافة الإسلامية من الشرق والفرنجة من الغرب. وبعد وفاته انهارت الدولة الأيوبية لتقوم مكانها دولة المماليك (م).

(2) راجع: المقريزي، خطط المقريزي، ج 1، ص 226 وما بعدها.

(3) راجع خريطة لجغرافية الكندي تمثل موقع الورّاده في المكان الذي أشرنا إليه، في: كمال، ج 2، ص 633 (للفترة العربية).

كذلك يقابلنا على مقربة من محطة (مستبك) الحالية القريبة من بئر العبد شبه تل يلاصق الدرب إلى يساره، تقوم عليه بقايا جدران من الحجر، وربما كانت هذه هي بقايا محطة (البقارة). ويلاحظ أن هذه الآثار الأخيرة أصغر من البقايا التي تصادفنا عند الميدان ومحطة البردويل. ولو صح أن هاتين المنطقتين هما مكانًا الوراده والبقارة، إذًا لخرجنا بأن الأولى كانت محطة أكثر أهمية، ولكان في ذلك تفسير لوجود هذه المحطة الأولى في كل كتابة الرحالة والجغرافيين في العصور الوسطى، الذين حرصوا على أن يذكروا الوراده في حين أن منهم من كان يغفل ذكر محطة البقارة، مما يدل على أنها كانت أقل من الوراده شأنًا. وإذا كنا قد حاولنا أن نحقق موضع هاتين المحطتين فما ينبغي أن ننسى أنه ليس لدينا دراسة للخرائب الموجودة على طريق الرمل يمكن أن نعتمد عليها في تحقيق الأمكنة، ومثل هذه الدراسة إن تمت لا يبعد أن نخرج منها بنتائج أدق، وننتهي بها إلى تحقيق هذه المواضع تحقيقًا صحيحًا...

وطريق الرمل هذا يدخل سيناء من القنطرة التي يأتيها الدرب من «الصالحية»، فيبدأ في سهل قليل الرمل، يغطيه العشب ويمتد إلى مسافة 16 ميلًا في ارتفاع بسيط جدًا إلى ناحية الشرق، لنصل بعد ذلك إلى منطقة الكثبان التي ترتفع في بعض الأماكن إلى 200 قدمًا، والتي تستمر حوالي 9 أميال يصعب السير فيها إلى أن ندخل واحة (قطيه) التي يكثر ماؤها ويمتد نخيلها على مسافة كبيرة. وهنا يلاقي الطريق الدرب الآتي من الاسماعيلية قاطعًا منطقة الكثبان حتى بئر العبد على بعد 16 ميلًا من (قطيه)، وهي محطة هامة على الدرب السلطاني تحيط بها واحة صغيرة يكثر فيها النخيل، وعلى بعد قليل من بئر العبد نصل إلى المكان المعروف (بخشوم الأدراب)، يتفرع الطريق عنده إلى ثلاثة فروع أهمها الأوسط الذي يمر «بالبريح» حيث يكثر الرمل ويصعب السير، ثم يمر بالمزار لندخل في منطقة أقل رملًا حتى نقرب من العريش فيعظم ارتفاع الكثبان حول المدينة وعلى بعد منها، ثم يقطع الطريق مصب وادي العريش الذي تكثر به زراعة الفاكهة والخضر، لندخل في منطقة كثبان متتابعة لكنها أكثر تماسكًا وأقل ارتفاعًا، وكثيرًا ما نصادف في الطريق إلى رفح أراضٍ

سهلة يكثر فيها العشب والحشائش، بل وكلما قربنا من الحدود الشرقية صادفنا مناطق لزراعة القمح والشعير[1].

ويعيب هذا الطريق صعوبة السير فيه لكثرة الكثبان وعدم تماسك الرمل، وتلك عقبة صادفتها الجيوش التي قطعت سيناء من هذا الطريق، وجعلت مهمة شاقة، إذ صعب على الفرسان بوجه خاص أن يطاردوا الأتراك طويلا[2]. كذلك كان يضطر الترك والإنجليز إلى وضع ألواح (Boards) على المساحات الرملية البسيطة لتمر العربات عليها، أمّا المساحات الرملية المتسعة فكانوا يعالجونها بوسائل شتى انتهت باستخدام الشبكات السلكية التي أفادت المشاة والسيارات، لكن حوافر الخيل كانت تقطعها[3]... ولا شك أن الإسراع في مد سكة حديد فلسطين أثناء تقدم الإنجليز في سيناء إنما كان لتلافي هذه الصعوبة[4] التي ستظل عقبة في تمهيد طريق للسيارات لا يسهل التغلب عليها.

فإذا تركنا هذه العقبة، وتركنا بعض عقبات أخرى مشتركة في معظم طرق سيناء كقسوة المناخ وهبوب الرياح المحملة بالرمل في بعض أشهر السنة، فإن هذا الطريق يفضل الطرق جميعًا لأنه أغنى الطرق الشمالية بالماء والعشب مما يجعل في الإمكان أن يقطعه عدد كبير من الناس والحيوان. وما نظن أننا بحاجة إلى أن نفصل القول في أهمية الكثبان في الاحتفاظ بماء عذب يسهّل الحصول عليه، أو نفيض في غنى هذه المنطقة بالعشب والنبات، أو نعدد الآبار المنتشرة على طول الطريق في كل مرحلة من مراحله وإنما نحيل القارئ إلى مواضع هذه الدراسة في المراجع المختلفة، وإلى خريطة المساحة التي لا تذكر كل الآبار، لكن ما فيها يعطي صورة واضحة عن غنى هذه المنطقة بالآبار إذا قارناها بغيرها... فإذا جئنا نتساءل بعد ذلك لم فضل الترك في هجومهم الأول على القناة (1915) طريق القصيمة ومغارة إلى الاسماعيلية ولم يسلكوا هذا الطريق،

---

(1) تكاد سكة حديد فلسطين الحالية تسير مع هذا الطريق تمامًا إلا في منطقتين شرقي القنطرة حيث تسير شمال الطريق لتتفادى الكثبان المرتفعة، وحين تقترب من العريش حيث تأخذ الطريق الساحلي شرقي بحيرة البردويل لصلابة السطح فيه.

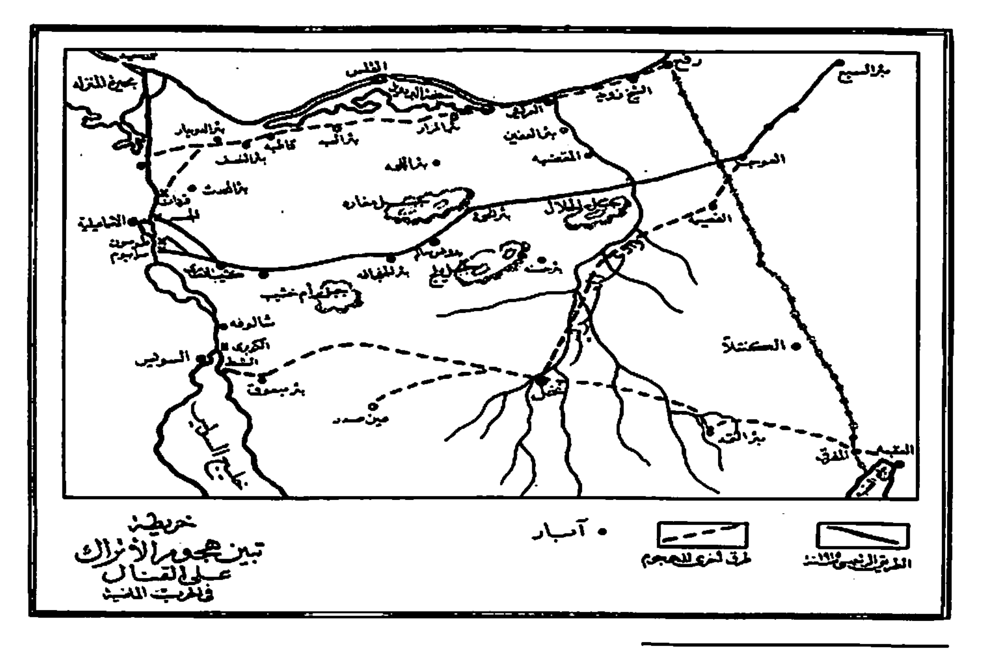
(2) راجع: Sergeant-Major, p. 94.

(3) راجع: تاريخ الحرب العظمى، ص 202-203.

(4) كان التفكير في مد السكة الحديدية أقدم من ذلك وقد ألقى انطون يوسف لطفي بك محاضرة في الجمعية الجغرافية المصرية بجلسة 20 مارس 1891 عن أهمية مد هذا الخط.

فتفسير ذلك راجع إلى اعتبارات حربية منها تأكد الأتراك من شدة اهتمام الإنجليز بطريق السويس والقنطرة، وخوفهم من خطر السفن الحربية التي كانت تهدد شمال سيناء وقتئذ، فلما كان عام 1916 واشتد نشاط الغواصات الألمانية والنمساوية في مياه شرق البحر الأبيض، وجعلت اقتراب أساطيل الحلفاء من ساحل سيناء الشمالي صعبًا، استطاع (KREISS) القائد الألماني للحملة التركية أن يسلك الطريق الشمالي في حملته الثانية على القناة التي لم يتجشم الأتراك فيها من الصعوبات ما تجشّموه في حملتهم الأولى[1].

ويمكن أن ننتهي من دراسة هذا الطريق بأن نشير بوجه خاص إلى نقطتين هامتين فيه هما العريش وقطيه: أما أولاهما فتقع على مصب وادي العريش (نهر مصر كما كانوا يسمونه)، تتحكّم في الطريق إلى داخل سيناء بواسطة هذا الوادي، كما تقع على الطريق الآتي من الشام إلى مصر وعلى طريق النبط الذي كأن يأتي من البطراء لينتهي إلى البحر الأبيض ولتصل إحدى نهاياته إلى «رينوكولورا». وإذًا فقد كانت العريش نقطة تلاقي عدة طرق هامة ممّا جعل لها منذ القدم مركزًا ممتازًا، كما أن غناها بالماء الذي يجود عندها أكثر مما يجود في كثير من مناطق سيناء الأخرى والذي يكثر حولها بدرجة تكفي حوالي



(1) راجع: تاريخ الحرب العظمى، ص 89-90.

40.000 أو 50.000 حسب تقدير السلطات البريطانية في الحرب الماضية، كل هذا أعطاها أهمية على ذلك الطريق وجعل (Sir A. MURRAY) في خطابه الذي أرسله إلى المكتب الحربي البريطاني في 15 فبراير سنة 1915 يجعل للاستيلاء على العريش أهمية خاصة، سيما وأنها في نظره قريبة من الساحل يمكن للأسطول أن يدافع عنها[1]. وأما (قطيه) التي رأيناها تظهر على طريق الرمل بعد اضمحلال الفرما، فقد ورثت تلك المدينة في أهميّتها، إذ أصبحت هي محطة المكوس بين مصر والشام يصفها (ابن بطوطة) في رحلته «بأن بها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدواوين والعمال والشهود، ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام[2]...». وأهمية هذه النقطة ترجع إلى غناها بماء أكثر عذوبة من ماء غيرها من المناطق المحيطة بها، وإلى وقوعها على تفرع الطريق إلى الاسماعيلية من جهة وإلى القنطرة من جهة أخرى، كما أنه على مقربة منها يتفرع الطريق إلى الساحل عند (المحمدية) ليصل بعد ذلك إلى بور سعيد، وهو الطريق الذي فكر حديثًا في مد خط حديدي يتفرع من خط فلسطين عند محطة (الرمانة) غربي (قطيه) بقليل... هاتان النقطتان الرئيسيتان أبرزت لنا الكتابات الحربية أهمّيتهما، وأشار (السير مري) صراحة في خطابه السابق إلى أن الذي يستولي عليهما يستطيع أن يتحكم في هذه المنطقة في سيناء التي هي (بوابة هامة) إلى مصر والشام، إذ سيكون في يده مفاتيح الطرق وتحت تصرّفه موارد الماء.

وأما (درب الشام): الذي هو أكثر طرق المجموعة الشمالية إلى الجنوب، فليس لدينا عن تطور أهمّيته معلومات كثيرة يمكن أن نعتمد عليها، وكل ما عندنا إشارات موجزة لا دقة فيها ولا يستطاع منها تعيين سيره كما عيّنا سير الطريقين السابقين... والظاهر أن قلة المعلومات عن هذا الطريق إنما ترجع إلى أن حركة المرور فيه كانت قليلة إذا قسناها بحركة المرور في الطريق الساحلي وطريق الجفار، بسبب قلة الماء في تلك المنطقة، قلة تجعل من الصعب على الإنسان والحيوان أن يقطعها، ولأن من الطبيعي أن يكون المناخ فيها أشد قسوة لبعده عن تأثير البحر الذي يلطف من هذه القسوة قليلًا.

(1) راجع: تاريخ الحرب العظمى، ص 171.

(2) راجع: ابن بطوطة، ج 1، ص 43-44.

يبدأ هذا الدرب من «غزة» أو من «خان يونس» ببلاد الشام في أرض مكشوفة قد ترتفع قليلًا في بعض المناطق، ويسير إلى الجنوب الغربي تاركًا آثار الزراعة وراءه ليقترب شيئًا فشيئًا من منطقة الكثبان الرملية في شمال سيناء التي يقطعها في صعوبة ليعبر بعد ذلك (وادي العريش) قرب (المقضبة)، إحدى النقط الحربية الهامة في شمال سيناء حيث يلتقي عندها جملة طرق تأتي من العريش بطريقة وادي العريش، ومن (القصيمة) بطريق السيارات الذي مد حديثًا ومن السويس والاسماعيلية وبلاد الشام. وإلى غربي (المقضبة) يدخل الطريق في تلك المنبسطات المتتابعة الجامدة التربة التي يغطيها الصوان في كثير من جهاتها فيجعل السير فيها أقل صعوبة من منطقة الرمال التي إلى شمالها؛ ثم يمر الدرب بين تلك الكتل الجبلية التي تبرز في تلك المنبسطات في خطوط متوازية: فيسير أولًا بين جبل (لبنى) و (ريسان عنيزه)، ثم يسير إلى يسار (جبل مغارة) حتى يأتي (بئر الحمة) فيلاقي طريقًا آخر آتيًا من الشرق، يبدأ من بلاد الشام من «بئر سبع» ويمر «بالعوجاء»، ثم يدخل سيناء عند «القصيمة» التي تعتبر كذلك مركزًا حربيًا رئيسيًا على الحدود الشرقية لسيناء بصفتها نقطة تلاقي طرق أكثر أهمية من تلك الطرق التي رأيناها تتلاقى عند «المقضبة»، طرق كلها رئيسية ممهدة لسير السيارات[1]: من بئر السبع الواقعة إلى الشمال الشرقي منها، ومن العريش إلى شمالها الغربي ومن العقبة والسويس على رأس خليجي العقبة والسويس... وهذا الطريق الآتي من الشرق يسير غربي (القصيمة) في تلك المنبسطات المتتالية إلى يسار جبل «الحلال» حتى يصل نقطة الحسنة التي تشرف عليها كتل «الحلال وخريم ويلج»، والتي تتحكم كذلك في مجموعة طرق تقطع سيناء في جميع نواحيها؛ وعند (الحسنة) ينحرف الطريق إلى الشمال الغربي حافًا بجبل (يلج) من شرقيه، حتى يلاقي عند (الحمة) الطريق الذي يدخل سيناء من الشمال الشرقي بطريق (المقضبة) في وادي العريش. وعند (بئر الحمة) يتفرع الطريق، فإما أن يتابع سيره إلى الغرب مباشرة حتى يصل «الاسماعيلية» – وبهذا نختصر المسافة في الوصول إلى برزخ السويس لكنه يسير في منطقة رملية عديمة الماء يصعب السير فيها حين يقطع الطريق هذه الكثبان الممتدة على طول القناة – وإما إن يسير إلى الجنوب الغربي، في

---

(1) أحسن ما كتب عن طرق السيارات، هو ما جاء في كتاب جارفس بك الذي كتب فصلًا شرح فيه حالة الطرق، وقدر مسافاتها، ورسم خريطة لذلك. انظر الطبعة الثالثة: Jarvis, pp. 291-312.

طريق أكثر طولًا، لكنه نسبيًا أكثر ماء، وهذا يستمر لمسافة طويلة في أرض صلبة إلى أن يأخذ (وادي أم خشيب) لينتهي أيضًا إلى تلك الكثبان التي تمتد إلى شرقي القناة فيقطعها إلى الاسماعيلية... «ونعيم بك شقير»[1] لا ينهي هذا الطريق الذي سماه (الدرب المصري) عند الاسماعيلية لكنه يراه ينتهي عند السويس، مارًا ببئر الجدي، ومتبعًا وادي (الطوال) فوادي (الحج). وليس هنالك ما يمنع من اعتبار (السويس) نهاية ثانية للطريق الآتي من الشام، لأن من التجار من كانوا يفضلون هذا الطريق بين الشام والسويس، بدل أن يسلكوا ذلك الطريق الآخر الذي يسير في هضبة التيه، قاطعًا فروع وادي العريش، ومارًا بالحسنة لينتهي إما إلى العريش فالساحل إلى غزة، وإما إلى القصيمة فبئر السبع وهو الطريق الذي مهّد الآن للسيارات تمهيدًا تامًا[2]...

ولا يمتاز هذا الطريق الجنوبي إلا بأن السير فيه أسهل من السير في طريق الجفار إلى شماله، لأن سطحه أكثر استواء وأشد تماسكا، ولأن الكثبان فيه قليلة، تكاد تكون مقصورة على منطقة محدودة في الركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة، وعلى تلك الكثبان الهلالية التي هي امتداد الكثبان الشمالية على جانب القناة إلى جنوب شرقي مدينة السويس بقليل... لكن هذه الميزة تضعف جدًا حين ننظر إلى الخريطة فنجد موارد الماء على طول ذلك الطريق قليلة جدًا ومتباعدة بعضها عن بعض، وحين نرجع إلى دراسة توزيع العيون والآبار فنرى تباينًا كبيرًا في الكم والنوع بين هذا الطريق وبين ذلك الدرب الذي يشق طريقه إلى الشمال في منطقة الكثبان...

والواقع إن الماء في هذا الطريق يكاد يكون مقصورًا على الجزء الشرقي من المنطقة: في (القصيمة) حيث توجد عين «الجديرات»، وفي بعض آبار نجدها في وادي العريش أهمها بئر «المقضبة»، ثم في آبار «الحسنة». وفيما عدا ذلك لا يصادفنا في هذه المساحة الشاسعة إلا آبار قليلة جدًا، لا يستساغ ماؤها، ولا يمكن الاعتماد عليها إلا في فترات محدودة بعد سقوط المطر الكثير[3]. والظاهر

---

(1) راجع: شقير، ص261-262.

(2) راجع وصف هذا الطريق بكتاب (جارفس بك) من الطبعة الثالثة: Jarvis, pp. 292 - 299.

(3) راجع وصف الطريق إلى الاسماعيلية: Edward Hull, *Mount Seir: Sinai and Western Palestine* (1885), appendix, p. 219.

ولاحظ بشكل خاص في صفحة 221 ما يصف الكاتب به ماء بئر الحمة الذي يعتبر من الآبار الهامة في ذلك الطريق إذ يقول عنه «إن ماءه قليل رديء الطعم فاسد الرائحة».

أن مشكلة الحصول على الماء التي تواجه المار في تلك المنطقة مشكلة قديمة، بدليل تلك الخزانات المتسعة التي نحتت في الصخر في مناطق متفرقة في ذلك الطريق عرف منها خزانات مغاره وأم خشيب وجبل الحلال، حيث يوجد ما يسميه البدو (بالهرابات) التي ترجع في الغالب إلى أيام الرومان، والتي تتسع لكميات عظيمة من الماء تجري إليها بعد سقوط المطر، فتخزن فيها ويمكن أن يعتمد عليها عدد كبير من الناس ومن الحيوان. ولقد صادف الأتراك، في هجومهم على القناة بهذا الطريق عام 1915، صعوبات كبيرة في الحصول على الماء، فقد وضعوا أيديهم أولًا على ماء (الجديرات) في منطقة القصيمة واستفادوا منه، ثم حاولوا إن يستغلوا هذا المورد ليسهلوا مهمتهم فمدوا أنابيب منه إلى (الحسنة) لكنهم وجدوا ذلك الأمر صعبًا واستحال مد الأنابيب بعد ذلك[1]، فاضطروا إلى استخدام خمسة آلاف جمل لحمل الماء اللازم للحملة، وساعدتهم الظروف في تسهيل مهمتهم، فسقط المطر في فصل التقدم بكميات لا بأس بها[2]، واستطاعوا إن يجدوا في الآبار المتفرقة ماء اعتمدوا لحد كبير عليه، وكانت القيادة الألمانية حريصة جدًا على الماء لا تصرفه إلا للضرورة القصوى وإلا بقدر معلوم.

والغزوات التي أخذت هذا الطريق تشعرنا الكتابات التي كتبت عنها - على الرغم من قلّتها - بأنها اضطرت إلى أن تسلك هذا السبيل لوجود ما يمنعها من أن تأخذ الطرق الشمالية: (فماسبيرو) في كتابه «فجر الحضارة» يتكلم عن حملة من حملات الأسرة الخامسة أيام (بيبي الأول) ضد قبائل الـ Hiru-Shaitu بقيادة وزيره الأول (أوني)، وينقل إلينا وصف ذلك الطريق الوزير القائد للحملة بأنه بعد أن تجمعت الجموع على حدود الدلتا سارت في الصحراء في طريق يصفه (ماسبيرو) بأنه يبدأ قرب الاسماعيلية - يمر بمغارة، وجبل الحلال حتى البحر الميت، أي في نفس الطريق الذي نتكلم عليه الآن-، ويشير الكاتب إلى أن سكان المناطق الشمالية كانوا يتحرشون بهم؛ ومعنى ذلك أنهم سلكوا الطريق إلى الجنوب ليتلافوا ضررهم، كما اضطروا إلى أن يهاجموهم بحرًا حيث أنزل المصريون جيوشهم في منطقة Tiba، التي يضعها (ماسبيرو) بين غزة وبحيرة سربونيس[3].

وفي كتاب (الجغرافية التاريخية للأراضي المقدسة) إشارة إلى طريق

---

(1) راجع: الجزء الأول الخاص بمصر وفلسطين: تاريخ الحرب العظمى، ص 172.

(2) راجع: المصدر نفسه، ج 1، ص 28.

(3) راجع: Maspero, *The Dawn of Civilization*, p. 420.

مباشر من بئر السبع إلى مصر، ذكر المؤلف إن (يعقوب) قد سلكه في طريقه إلى مصر، وأشار إلى أن جيوشًا لصلاح الدين قد سارت فيه إلى بيت المقدس... ويكاد الكاتب يشعرنا بأن مثل هذه الجيوش كانت مضطرة إلى أن تسلك هذا الطريق - ولعل اضطرارها كان لتلافي خطر الصليبيين الذين يحتمل أن كان لهم النفوذ في المنطقة الساحلية - إذ يعقب المؤلف على هذا بما يأتي[1]:

«... It is an open road, but wild and never, it would seem, used for the invasion of the Judea from Egypt. The clearer way to most of Syria from Egypt lay along the coast».

أما الحملة التركية التي اتخذت هذا الطريق سبيلًا لهجومها على القناة عام 1915 فقد أرجعنا ذلك - في الكلام على طريق الرمل - لا إلى أفضلية هذا الطريق، وإنما إلى اضطرارها إلى ذلك، لتأكدها من اهتمام القوات الإنكليزية بالطريق الرملي المطروق، ولأن البحر كانت السيادة فيه في تلك المدة للحلفاء، مما كان يجعل تقدم جيوش الترك قرب الساحل محفوفًا بالمخاطر، ولذلك رأيناهم بعد فشلهم في الهجوم الأول، وزوال خطر سفن الحلفاء الحربية على سواحل سيناء الشمالية، يفضلون طريق الرمل الشمالي في هجومهم الثاني على القناة تخلصًا من الصعوبات الكبيرة التي لاقوها أثناء هجمتهم الأولى...

ثانيًا - المجموعة الوسطى:

تأخذ سيناء الوسطى - كطريق لمرور القوافل التجارية، وكممر للغزوات الحربية - مركزًا ثانويًا لا يمكن أن يقارن بمركز سيناء الشمالية لأسباب فصلناها في بدء الكلام على طرق المجموعة الشمالية، وأشرنا إليها ونحن نتكلم في مقدمة هذا الفصل على أهمية سيناء كطريق للمرور[2]... ويقل اهتمام الكتاب القدماء بالإشارة إلى تلك الطرق الوسطى عن اهتمامهم بالطرق الشمالية: فيكتفي (بليني) بأن يذكر أن الطريق المباشر من خليج السويس إلى (أيلا) على رأس خليج العقبة يبلغ 150 ألف خطوة، تقطع في حوالي 60 ساعة وأنه من (أيلا) إلى (غزة) حوالى تلك المسافة وأن المثلث الذي تمر رؤوسه بنهاية خليج العقبة والسويس وغزة يكاد يكون مثلثًا متساوي الأضلاع[3]... وإذا كانت

(1) راجع: George Adam Smith, *The Historical Geography of the Holy Land* (1894), pp. 278-279.

(2) راجع: مقدمة هذا الكتاب.

(3) راجع: Carl Ritter, *The Comparative Geography of Palestine and the Sinaitic Peninsula*, Translated by W. Gage (Edinburgh: [s. n.] 1866), vol. 1, p. 41.

خريطة (بويتنجار) – التي وضعت في القرن الثالث الميلادي، والتي عينت الطرق الحربية في الإمبراطورية الرومانية – قد رسمت لنا طريقًا يقطع سيناء في ذلك الجزء الأوسط منها، يبدأ من «أيلا» وينتهي عند «القلزم» مارًا «بفارو» و«ميديا»[1] فليس معنى ذلك أن هذا الطريق يمكن أن يقارن في أهميته بذلك الطريق الروماني الحربي الذي كان يقطع سيناء على طول ساحلها الشمالي من «رفح» إلى «بيلوز». كما أنه لا شك في أن عناية الرومان بالطريق الساحلي الشمالي كانت أشد بكثير من عنايتهم بطريق سيناء الأوسط بدليل أننا نصادف إلى الآن آثار اهتمامهم في الشمال ممثلة في تلك القلاع المتتابعة، وفي آثار المحطات الباقية التي تدل على اهتمام كبير بهذه المنطقة الساحلية[2]... في حين أننا لا نصادف من ذلك شيئًا في الطريق الحربي الأوسط مما يثبت لنا أن الاهتمام بذلك الطريق الأوسط كان أقل، والا لتركوا فيه أدلة اهتمامهم به من حصون وقلاع.

وإذا كان قد جد لوسط سيناء أهمية في المرور، فذلك انما جاء حين اتّخذه المسلمون من مصر وبلاد المغرب طريقًا لهم للحج إلى مكة، وقد رأينا أن ذلك لا يكون عقب الفتح الإسلامي مباشرة، فقد ظل طريق الحج لعدة قرون يأخذ طريق النيل إلى الصحراء الشرقية فمينائي «عيذاب» و «القصير» على ساحل البحر الأحمر، ثم تحول الطريق إلى سيناء بعد أن حجت به «شجرة الدر»، وبعد أن سيَّر «الناصر قلاوون» قافلة الحج عبر سيناء حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي[3]... وطبيعي في اختيار طريق الحج عبر سيناء إلى مكة، ألا تتخذ الطرق الشمالية – رغم مميزاتها – حتى لا تطول المسافة على القوافل، وألا تتبع الطرق الجنوبية لشدة وعورة السير فيها، وإنما يتخذ الطريق الأوسط عبر هضبة التيه، حيث يكون سطح الهضبة جامدًا وأكثر استواء، وحيث يكون أقصر الطرق بين رأسي خليجي العقبة والسويس.

ويقطع التيه في وسطها طريقان مهمان:

(1) **درب الحج**: يبدأ قرب رأس خليج السويس، ويسير قاطعًا هضبة التيه إلى العقبة.

---

(1) راجع الخريطة المرفقة بكتاب: Kammerer, *Pétra et la Nabaténe.*

(2) راجع دراسة هذه الآثار وبقايا المحطات في الكلام على المجموعة الشمالية من الطرق.

(3) راجع مقدمة هذا الكتاب.

(2) درب الشعوى: يبدأ قرب رأس خليج السويس، ويسير إلى الجنوب أكثر من درب الحج الى أن ينتهي عند العقبة أيضًا.

أما (درب الحج): فقد أخذ تسميته من مرور قوافل الحجاج فيه مما يدل على الوظيفة الرئيسية له؛ كان هذا الطريق مطروقًا منذ منتصف القرن الثالث عشر للميلاد كما قدمنا، ظل يذكره الكتاب كلهم ويعددون محطاته واحدة بعد أخرى، كما سار فيه معظم الرحالة الذين جابوا سيناء في القرون الحديثة فوصفوه وعينوا مراحله... واستمرت له أهميته حتى تحول طريق الحج إلى البحر بطريق السويس فجدة في أواخر القرن التاسع عشر، وعندئذ اضمحلت أهمية درب الحج اضمحلالًا يقربه إلى أذهاننا ما طرأ على أهمية محطة (نخل) - كبرى محطاته، والنقطة المركزية فيه - فقد استمرت مركزًا تجاريًا يجد الحجاج فيه ما يحتاجون إليه، واختيرت العاصمة الإدارية لشبه الجزيرة كلها؛ ثم ضعف مرور الحجاج بطريق سيناء فخسرت (نخل) من ذلك كثيرًا، وانتقلت العاصمة الإدارية إلى «العريش» في الشمال، وراح أحد الرحّالة يبحث عن هذه المحطة التي ذكرها كتّاب العصور المختلفة مشيرين إلى أهميّتها، لكنّه عجب إذ لم يجد هنالك إلا قلعة مهدّمة يحرسها جند قليلون[1]!

كان (درب الحج) يبدأ قرب القاهرة، حيث كان يتجمّع الحجاج في مكان يعرف (ببركة الحاج) - وهي فيما يذكر صاحب (الخطط التوفيقية) «قرية موضوعة في الشمال الشرقي للقاهرة، وفي غربي الترعة الاسماعيلية بنحو ستة آلاف متر جنوب (الخانقاه)، وفي شرقي قرية المرج بنحو 3000 متر، ويقال لها بركة (الجب)»[2] - ثم يقطع الصحراء إلى قرب مدينة السويس في طريق يسمى درب الحج أيضًا، أفاض في وصفه ووصف الطرق الأخرى التي تقطع الصحراء إلى السويس كثير من الرحالة سيما «روبنسن» و «بركهاردت[3]»[4]، وينتهي ذلك الدرب في صحراء السويس عند قلعة (عجرود)، وكانت محطة

---

(1) راجع كتاب جارفس بك في الطبعة الثالثة: Jarvis, pp. 6-7.

(2) راجع: علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج 9، ص 16.

(3) يوهان لودفيك بركهاردت (1784-1817) رحّالة ومستشرق سويسري. وقّع كتبه باسم لويس. وساهم في اكتشاف بقايا مدينة البتراء (م).

(4) راجع: Edward Robinson, *Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions* (1867), pp. 34-46, and Burckhardt, pp. 459-466.

هامة إلى شمال السويس الحالية بقليل عند بدء الدخول في شبه جزيرة سيناء.

فإذا جاوزنا برزخ السويس عند رأس الخليج، فدرب الحج يقطع أول الأمر تلك المساحة المنبسطة إلى شرقي السويس، يصادفه فيها تلك الكثبان الهلالية التي رأيناها تمتد على طول القناة جنوبًا، فيقطعها ليدخل وادي (الحج) ويصل به إلى حافة هضبة التيه، ليدخل إلى هضبة التيه نفسها. وهنالك يلاقيه طريقان آخران يأتيان من السويس: أحدهما يمر ببئر (المر) ويقطع حافة التيه في ممر (متله) ليأخذ وادي (متله) حتى يلاقي درب الحج؛ والثاني يسير من السويس منحرفًا أكثر إلى الجنوب، يمر ببئر (مبعوك) ويقطع حافة التيه بواسطة ممر (الراحة) ليأخذ وادي (العشارى) حتى يلاقي درب الحج أيضًا[1].

تتلاقى هذه الطرق جميعًا، ويأخذ (درب الحج) طريقه في هضبة التيه المنبسطة التي يكثر الصوان فوق سطحها، فيقطع فروع وادي (البروك) - أكبر روافد وادي العريش - في اتّجاه يكاد يكون مستقيمًا حتى يصل إلى (نخل) قرب قطعه لوادي العريش. فإذا جاوز (نخل) أخذ اتّجاهه إلى الجنوب الشرقي فقطع فروع وادي العريش الشرقية، واستفاد في بعض الأحيان منها، حتى إذا انتهى إلى حافة التيه الشرقية ومر (بالثمد) أخذ طريقه بين تلك التلال التي تعيّن خط التقسيم بين فروع العريش الشرقية وفروع وادي (الجرافي) الذي يصل ماؤه إلى منخفض العربة والبحر الميت، وهنالك يقطع فروع «الجرافي» ليصل إلى (نقب العقبة) القائم في الصخور النارية ليهبط إلى العقبة منه وليستمر بعد ذلك جنوبًا إلى (مكّة).

ويمكن أن نلخّص الصعوبات المختلفة التي كان يلاقيها المسافرون في درب الحج في النواحي الآتية:

أ- منطقة الكثبان: التي يصادفها المسافرون بين السويس وهضبة التيه، وهي منطقة يصعب فيها سير الناس والإبل. ولعل صاحب «الرحلة الحجازية» حين يتكلم عن طريق الحج في سيناء فيصفه بأنه «يسير كله في أرض رملية ناعمة تسوخ فيها أخفاف الجمال قبل أقدام الرجال»[2] إنما يعني هذه المرحلة

(1) في كتاب نعيم بك شقير عن سيناء وصف لهذين الطريقين: شقير، ص 270-272.

(2) راجع الرحلة الحجازية في: البتانوني، ص 33.

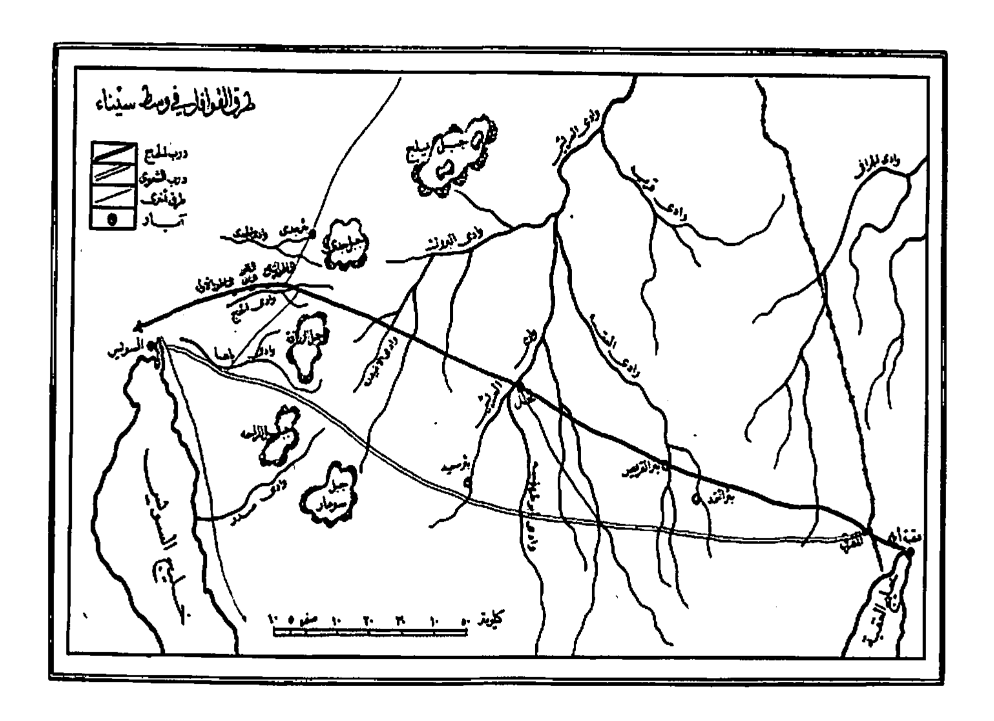
من الطريق أكثر مما يعني غيرها... وربما كانت صعوبة السير في ذلك الرمل من الأسباب التي دعت إلى وجود طريقين آخرين يقطعان هذه المنطقة من السويس إلى الهضبة ويسيران أكثر انحرافًا إلى الجنوب، لأن الكثبان تقل كلما سرنا إلى الجنوب كما تضيق المسافة التي تشغلها. وسنجد حين نتعرض لطريق السيارات الذي يتبع الآن درب الحج في معظم مراحله، إن رمال الكثبان تغير عليه أحيانا فيتطلب تمهيده شيئًا كبيرًا من العناء، الأمر الذي اضطرت معه إدارة سيناء إلى أن تبدأ برصفه في منطقة الرمال.

ب- **نقب العقبة**: الذي يضطر المسافر إلى أن يعبره ليصل إلى العقبة، وهذا الجزء هو أشد أجزاء الطريق وعورة، ولا يزال حتى الآن - كما سنرى - أخطر المناطق في طريق السيارات إلى العقبة. ولقد اهتم ولاة مصر المختلفون (قلاوون) و (ابن طولون)[1] و(السلطان سليم)... منذ قيام طريق الحج بتمهيد تلك العقبة، لكن رغم كل هذا ظلت منطقة وعرة يشير (المقريزي) في خططه إلى «أنها عقبة لا يصعد إليها من هو راكب...»[2] ويصوّرها الذين كتبوا عن طريق الحج تصويرًا مخفيًا: ففي (دليل الحج للوارد إلى مكة من كل فج) «إن المرور من هذه العقبة شديد الصعوبة جدًا، فيلزم كل الحذر في نزولها وصعودها وخصوصًا الصعود، وقد أجرى تنظيمها نوعا المرحوم عباس باشا ومع هذا فصعوبتها لم تزل شديدة»[3]... (والبتانوني) في الرحلة الحجازية يتكلم عن العقبة، فيذكر «ان المسافر يصعد إليها بمنحدر من مسافة طويلة

(1) ابن طولون (الأمير أحمد) ولد سنة 220هـ/ 835م، وتوفي سنة 270هـ/ 884م. أمير مصر ومؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام، وباني مسجد أحمد بن طولون بين 263 و 265هـ. والده من أتراك القبجاق أتى به إلى مصر فتولّى أمرها سنة 254هـ/ 868م، في عهد الخليفة العباسي المعتمد، ثمّ أعلنها دولة مستقلّة بعد خمسة أعوام. بنى عاصمة جديدة للدولة سنة 256هـ/ 870م، وسمّاها القطائع. بعد وفاته خلفه خمارويه الذي زوّج ابنته قطر الندى للخليفة العباسي المعتضد. وفي عهد الخليفة العباسيّ المكتفي بالله ضعفت الدولة الطولونية فأرسل جيشه بقيادة محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر فاستولى على الفسطاط وأحرق القطائع في 292هـ/ 904م، ودمّرها وحوّلها إلى خرائب وأطلال (م).

(2) راجع: المقريزي، خطط المقريزي، ج 1، ص 184.

(3) راجع: محمد صادق، دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج (1866)، ص 13-14.



من الغرب حتى يصل إلى قمتها، فإذا أراد أن ينزل إلى الجهة الشرقية سار نازلًا صاعدًا وصاعدًا نازلًا في أرض حجرية تارة وأخرى رملية ناعمة وأخرى خشنة زلطية، إلى أن يمر في مضيق لا يسع إلا جملًا جملًا ويسمى قطع (لاز)، وطريق هذا القطع حلزوني تقريبًا، أصلحه أحمد بن طولون و... و... ومع ذلك فإن المسافر لا بد أن ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولًا وضعفها صعودًا[1]... بل إن (جارفس بك) وهو يتكلم عن طريق السيارات إلى العقبة يشعرنا في صراحة بخطورة هذا الجزء من الطريق حين يصف الهبوط من النقب في تلك العبارة التي ننقلها عنه فيما يلي:

«The descent should not be attempted unless the brakes are in perfect order and the driver has every confidence in himself and his car. The traveller must also take into consideration the question of whether he will be able to return or not, as not every make of car has sufficient power to climb this very steep ascent»[2].

---

(1) راجع الرحلة الحجازية: البتانوني، ص 34.

(2) راجع: Jarvis, p. 204.

ج- مشكلة الماء في كميته ونوعه: فالآبار الموجودة محدودة جدًا، والماء يكاد ينعدم في المنطقة الصحراوية بين حافة التيه وخليج السويس، وفي اتّساع الهضبة لا نصادف الماء إلا حول (نخل)، وفي بعض آبار متفرقة حول (الثمد). وهذا الماء لا يشربه الإنسان إلا مضطرًا إذ تقل العذوبة وتكثر الأملاح. ولا بأس من أن نورد هنا ما كتبه الرحالة (بوكوك) عام 1743 عن الماء في محطات درب الحج - كما قصه عليه فيما يقول هو - أحد الذين قطعوا الطريق أربع عشرة مرة[1]... ففي هذا تلخيص جميل لما كتبه غالبية الرحالة الآخرين عن حالة الماء في هذا الطريق:

المحطة	الماء ونوعه	تاريخ وصوله	المحطة	الماء ونوعه	تاريخ وصوله
1- بركة الحج	بحيرة	بدأ في 27 شوال	6- نخل	ماء يورم الجسم	4 القعدة
2- الدار الحمراء	ليس بها ماء	28 »	7- اللحاية	ماء يصلح لشرب الحيوان	5 »
3- قلعة عجرود	ماء رديء	30 »	8- محطة سماها		
4- النواطير	لا ماء	أول القعدة	Soot	لا ماء	6 »
5- وادي التيه	» »	2 »	9- العقبة	ماء كثير حسن	9 »

حقيقة أن الولاة في الفترات المختلفة قد اهتموا براحة الحجاج، فحفروا آبار (نخل) وركبوا عليها ساقية تملأ أحواضًا تسع 3000 قربة، كما حفروا بئر (أم عباس) قرب وادي (القريص)، وبعض آبار أخرى متفرقة، لكن ذلك لم يزل صعوبة الماء وإن تغلب على جانب من المشكلة. ولذا ظل الكتاب حتى الأيام الأخيرة يشيرون إلى هذه العقبة في درب الحج... وفي أثناء الحرب الماضية حين توقع الإنجليز هجوم الأتراك على القناة بطريق سيناء أجمع قوادهم على استبعاد طريق (نخل) وهو من الطرق التي يحتمل أن تهاجم القناة منها، وكان أساس ذلك هو تعذر توافر الماء لعدد كبير... وفي الخطاب الذي أرسله (السير مري) إلى القيادة العليا للجيش البريطاني، والذي أشرنا إليه أكثر من مرة، نجده يصرح

(1) راجع: Pococke, p. 265.

طرق السيارات الحالي عن جارفس بك	روبنسن في كتابه أبحاث إنجليزيه جزء أول صفحة 587	روبل عن رتر صفحتي 46، 47 وفيل صفحة 116	بركهاردت عن رتر صفحة 44 و فيل ص 116	بوكوك في كتابه وصف الشرق صفحة 265	توماس شو عن رتر صفحة 44 وفيل صفحة 116	تيفينو عن رتر صفحة 42 و فيل صفحة 116	حاجي خليفة عن رتر صفحة 42 و فيل صفحة 116	الإدريسي في نزهة المشتاق (صفة المغرب وأرض السودان ومصر) طبع ليدن صفحة 163	جغرافيو العرب في القرن العاشر الميلادي أمثال قدامه وابن رسته والمقدسي وابن خرداذبه		Tabula peutingar الخريطة المرفقة بكتاب كامرر عن النبط
									المقدسي في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم طبع ليدن صفحة 215	ابن خرداذبه في المسالك والممالك طبع ليدن صفحة 139	
1930	1867	1822	1816	1743	1721	1658	1658	القرن الثاني عشر	القرن العاشر م	حوالي عام 900م	القرن الثالث م
شط السويس	عجرود	عبر المستنقعات القريبة من رأس خليج السويس	عجرود	قلعة عجرود	عجرود	قلعة عجرود	عجرود	عجرود	عجرود	عجرود	قلزم Clysma
وادي متله	النواطير	وادي الحج	روس النواطير	النواطير	راس النواطير	نواطير	روس النواطير				Medeia (Medileh)

يتبع

تابع

							عيون موسى				
							المنصرف	الدوينه أو الريشه	المدينة	الذنبه	
							القبيبات				
التيه	جبل حسن		وادي التيه	وادي التيه	وادي التيه	Rast-agara?	وادي التيه				
نخل	نخل	نخل	قلعة نخل	نخل	قلعة Nahor?	قلعة نخل	بطن نخل				
الثمد	وادي القريص	الثمد					القريص	الكرسي	الكرسي	الكرسي	
				العالية	العالية	أبيار العالية	أبيار العالية				
							ملاح (قرب عراقيب البغلة)				
							راس الركب (قرب الحفرات)	الحفر	الحفر	الحفر	Pharo
نقب العقبة	رأس النقب	رأس السطح	سطح العقبة	سطح		سطح العقبة	سطح العقبة	منزل		منزل	
العقبة	العقبة	العقبة	قلعة العقبة	العقبة	قلعة العقبة	قلعة العقبة		ايله	ويله	ايله	Aila

بهذا، ويرى أن ذلك الطريق في أشهر الحر لا يمكن أن يتجمع فيه أكثر من 10.000 شخص، يضطرون إلى حمل الماء لمسافات بعيدة[1].

ويصح إن نشير الآن إلى المراحل التي تعرض لها الرحالة في الفترات المختلفة وهم يقطعون سيناء من وسطها، لنرى إلى أي حد يتفق سير الدرب أو يختلف، ولنحاول في تلك المقارنة أن نحقق الأسماء التي وردت في كتابة الرحالة المختلفين بقدر الإمكان. وأقدم معلوماتنا عن طرق وسط سيناء مستمدة من خريطة (بويتنجار) في القرن الثالث الميلادي، ثم تكثر إشارات جغرافيي العرب في العصور الوسطى إلى محطات هذا الطريق، لكن كتاباتهم كلها مقتضبة لا تعطينا صورة واضحة عن مراحل الطريق تمامًا. ونحن في الحقيقة مدينون بتفاصيل هذا الطريق الأوسط إلى كاتبين متقاربين جدًا في الكتابة، يعتبران بحق رواد هذا الجزء من سيناء: أحدهما المؤرخ التركي حاجي خليفة[2] (Haji CHALFA) الذي رحل من القاهرة إلى مكة عبر هذه المنطقة عام 1658، والثاني هو الرحالة الفرنسي (THEVENOT) الذي رحل في نفس العام من «السويس». هذان الكاتبان هما اللذان سهلا مهمة من تبعهم من الرحالة أمثال (SHAW - 1721) و(POCOCKE - 1738) و(بركهاردت - 1816) الخ[3].

وفيما مرّ مقارنة المحطات التي وردت في كتابة الرحالة القدماء والحديثين، رجعنا فيها إلى ما أمكن الحصول عليه من كتبهم، واستفدنا في الجزء الباقي مما لخّصه (WEILL) في كتابه عن سيناء[4]، الذي هو في الحقيقة نقل لتلخيص (RITTER) في الجزء الأول من كتابه[5].

تلك هي كتابة الرحالة المختلفين منذ القرن الثالث الميلادي - حيث وصلتنا أقدم الكتابات عن طرق وسط سيناء -، حتى منتصف القرن التاسع

(1) راجع: الجزء الأول الخاص بمصر وفلسطين: تاريخ الحرب العظمى، ص 172.

(2) حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله) ولد في اسطنبول في 1017هـ/ 1609م، وتوفي في 1067هـ/ 1656م. جغرافي ورحالة ومؤرخ تركي. من أشهر كتبه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، وهو موسوعة وأشبه بدائرة معارف رصدت 18 ألف عنوان من كتب التراث. وله أربعة كتب مخصصة للجغرافيا، كذلك «تحفة الكبار في أسفار البحار» و«تقويم التواريخ» (م).

(3) راجع: Ritter, vol. 1, pp. 42-43.

(4) راجع: Weill, p. 116.

(5) راجع: Ritter, vol. 1, pp. 42-50.

عشر، وهو آخر عهد ازدهار المرور في ذلك الطريق، إذ تحوّل طريق الحج بعد ذلك إلى طريق البحر الذي كان ينتهي إلى جدة ثغر الحجاز، قارنا الطريق فيها بطريق السيارات الحالي الذي يقطع وسط سيناء بين شط السويس والعقبة... ومن هذه المقارنات يمكن أن نخرج بملاحظات كثيرة أهمها ما يلي:

(آ) إن بداية الطريق ونهايته لا نكاد نجد خلافًا جوهريًا بين الكتاب عليهما، فالطريق يبدأ في الغالب من (عجرود) إلى شمال السويس بساعات: ليتفادى بذلك المستنقعات التي اضطر (روبل) إلى أن يعبرها عند رأس خليج السويس، والتي أشار إليها (روبنسن) بالتفصيل في كتابه[1]. وحتى لا يضطر الآتي من القاهرة في الصحراء إلى أن يسير جنوبًا إلى السويس ثم يعود فيسير ثانية إلى الشمال ليصل إلى وادي الحج، مبدأ الطريق في صحراء سيناء... ومن أجل ذلك قامت قلعة (عجرود) وحفر بئرها، ليكون فيها حامية تحمي الطريق عند دخوله في شبه الجزيرة وليتمكن المسافرون من أن يتزودوا بالماء وإن لم يكن يصلح للشرب كثيرًا... و(القلزم) - CLYSMA - التي وضعتها خريطة (بويتنجار) على رأس خليج السويس يختلف كثيرًا في تعيين موقعها، والجدل في تحقيق مكانها بالضبط لا يزال قائمًا بين الكتّاب والعلماء الاركيولوجيين[2].

أما نهاية الطريق فقد اختلفت تسميتها وإن ظل الموقع واحدًا تقريبًا، ذلك أنه منذ القدم قامت على نهاية خليج العقبة نقطة كان لها من الأهمية التجارية ما يقرب من أهمية مثيلتها على رأس خليج السويس، كانت بوجه خاص منفذًا لسفن «سليمان» إلى (أوفير) بلاد الذهب، يتفرع منها طرق مختلفة إلى بلاد الشام استفادت من منخفض العرابة والبحر الميت ووادي الأردن، وطرق أخرى إلى مصر أهمها ذلك الطريق الأوسط الذي نحن بصدده، وطريق إلى بلاد العرب يستمر حتى الجنوب. وقد اختلفت تسمية هذه النقطة من فترة إلى أخرى كما اختلف موقعها في بعض العصور وإن كان اختلافًا غير جوهري[3]: فهي التي عرفت في كتب اليهود باسم (عصيون جبير Ezion GEBER)[4]، وهي

---

(1) راجع: Robinson, pp. 48-49.

(2) يمكن الرجوع إلى (كاترمر) حين يتكلم عن القلزم، فهو يناقش الآراء المختلفة ويتحدث بإسهاب عن موقع المدينة، وهو مالا يدخل في صلب بحثنا حتى نهتم كثيرًا بمناقشته.

(3) Etienne Quatremère, *Mémoires Géographiques et Historique sur l'Egypte, et sur Quelques Contrées Voisines* (1811), vol. 1, pp. 151-187.

(4) هكذا وردت في الأصل. الصحيح عصيون جابر، مدينة على خليج العقبة (م).

التي أطلق عليها (بيليني) اسم (LAENA)، ثم حرفت هذه التسمية فأطلق عليها الرهبان حوالى القرن السادس اسم (AILEA) الذي كان كتاب العرب يعرفونه تمامًا ويطلقونه عليها في كتبهم؛ وإذا كان (المقدسي) قد شذ فسماها في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» (ويله) فإنه لم يغفل اسم (ايله) وإنما ذكر إن هذه التسمية «يطلقها عليها العام»[1]. أما كلمة «العقبة» فقد ظهرت أولًا مضافة إلى (ايله)، فكان يقال (عقبة ايله)، ثم غلبت على الاسم القديم منذ القرن السابع عشر، وأضيفت إليها أحيانا كلمة (قلعة) نسبة إلى الحصن الذي كان قائمًا فيها، والذي اهتم به بوجه خاص (صلاح الدين الأيوبي)[2] في صراعه على العقبة ضد الصليبيين، ومن المحتمل جدًا أن هذه التسمية إنما أخذت من صعوبة (النقب) الموصل إلى رأس الخليج والذي كان عقبة حقيقية لا يتغلب المسافرون عليها بسهولة.

(2) إن اسم (نخل) لا يظهر في الجدول قبل كتابة (حاجي خليفة) حوالي منتصف القرن السابع عشر، لكن ينبغي أن نكون حريصين في أرجاع وجود تلك المحطة إلى ذلك التاريخ المتأخر، فالغالب أن طريق الحج منذ قطع وسط سيناء وتحول عن طريق عيذاب والقصير في منتصف القرن الثالث عشر كان يمر بتلك النقطة، لكن لعل أهمّيتها كمحطة رئيسية إنما برزت بعد الفتح العثماني لمصر، حين اهتم سلاطين الترك بها، وحين بنيت فيها قلعة لتأمين الطريق في منتصف المسافة بين نهايته في شبه الجزيرة، تلك القلعة التي يضيفها إلى اسم «نخل» كثير من الكتاب.

(3) ليس من السهل أن نحقق الأسماء التي أوردها جغرافيو العرب، فهم – كما سبقت الإشارة – لم يتركوا لنا شيئًا من المعلومات تسهل علينا هذه المهمة،

(1) راجع: أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن: مطبع بريل، 1906)، ص 178، وفي ص179 إشارة قد تفيد في الخلاف الذي كان قائمًا على ملكية العقبة إذ يقول «وفي ويلة نزاع بين الشاميين والحجازيين والمصريين كما في عبادان، وأضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وارطالهم شامية...»

(2) صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن أيوب) ولد في تكريت في 532هـ/ 1138م، وتوفي في دمشق 589هـ/ 1193م. قضى على الدولة الفاطمية في مصر التي استمرّت 262 سنة. قاد المعارك ضد الفرنجة وتمكّن من استعادة القدس ومعظم أراضي فلسطين ولبنان بعد هزيمتهم في معركة حطّين. أسّس الدولة الأيوبية التي وحّدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن تحت المظلّة العباسية (م).

وإنما اكتفوا بأن يعدوا تلك المحطات عدًّا. لكن يوقفنا منها هذه المحطة التي سماها (الإدريسي) (**الدوينه أو الرييثه**)، فعندنا في تلك الوديان التي تنحدر من حافة التيه الغربية واد يضيع في الرمل قبل أن يصل خليج السويس يعرف باسم (الريينه)، يقطع حافة التيه ويؤدي إلى (عين صدر) الشهيرة بمائها في الطريق الثاني الذي يقطع وسط التيه، والذي يغلب أن يكون صلاح الدين قد أتبعه إلى العقبة وبنى بقرب تلك العين قلعة لا تزال آثارها باقية إلى الآن. فإذا صح انطباق هذه التسمية على ما ذكره (الإدريسي)، واعتبرنا المحطة التي سماها «ابن خرداذبه» (الذنبه) تحريفًا (للريينة) كان معنى ذلك أن الطريق إلى العقبة في القرن الثاني عشر وما قبله إنما كان يسير إلى الجنوب أكثر من درب الحج الذي وصفناه، ولعلّه يتفق أكثر مع الطريق الثاني الذي سنتكلم عنه بعد قليل.

أما محطة (الكرسى) – أو (الكريسى) في بعض الكتابات – فالغالب أنها تتفق مع اسم (القريص) فرع وادي (العقبة) أحد روافد وادي العريش الشرقية، وهي محطة ذكرها (حاجي خليفة) بهذا النص الأخير كما ذكرتها الكتابات الأخيرة عن محطات درب الحج[1]... وأما (الحفر) التي تذكر بعد الكرسى من ناحية العقبة، فلعلها مكان الجفرات التي ذكرها (حاجي خليفة) سابقة لمحطة رأس العقبة، والتي جاءت في (الخطط التوفيقية) سابقة لمحطة نقب العقبة أيضًا وفسّرها صاحب الخطط «بأنها اسم لحفائر في الطريق»[2]. ولعلّ من المفيد أن نذكر هنا ما ذهب إليه WEILL من أن (الحفر) هذه قد تتفق مع PHARA التي جاءت في خريطة (بويتنجار) سيما وأن (فارا) هذه تظهر على الخريطة الرومانية قريبة من رأس خليج العقبة أي في المنطقة التي تقع فيها (الجفرات)[3].

(4) هناك اتفاق على المحطة التالية (لعجرود) من منتصف القرن السابع عشر، فهي (النواطير)، أما الخلاف في رسم الكلمة في كتابات الرحالة المختلفين فأساسه أنهم كانوا يجهلون اللغة العربية، ومن الصعب إذًا أن يتبينوا لهجة البدو ليكتبوا الكلمة صحيحة. أما تلك (النواطير) فأبنية عالية تشبه

---

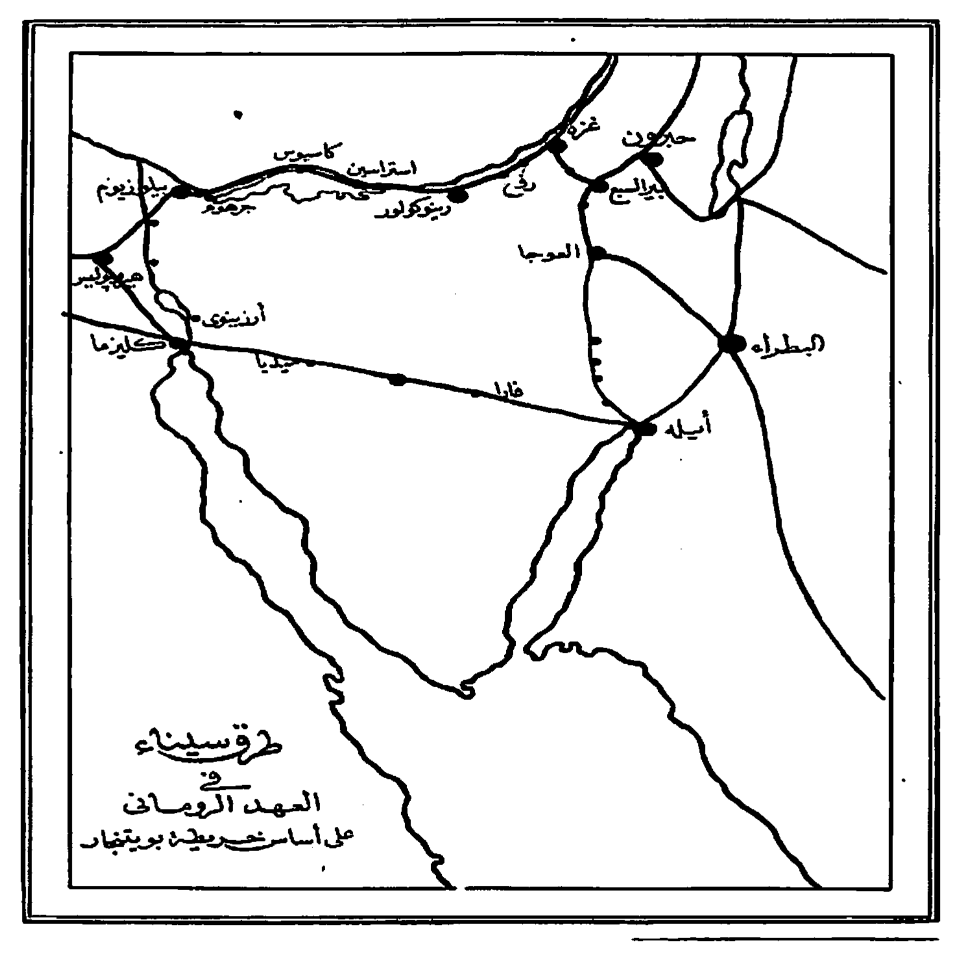
(1) راجع: مبارك، ج 9، ص 33، والبتانوني، ص 34.

(2) راجع: مبارك، ج 14، ص 10.

(3) راجع: Weill, p. 116.

طواحين الهواء، أقيم منها ثلاثة في الطريق تسهل الدخول في هضبة التيه من ناحية السويس، يهتدي بها المسافر فلا يضل طريقه في ذلك المتسع المتشابه من الرمال بين السويس وهضبة التيه[1]. كذلك يمكن أن نقول أن المحطة السابقة (الايلة أو العقبة) هي (نقب العقبة)، أطلق عليها جغرافيو العرب اسم (المنزل)، وسماها بعض الكتّاب (رأس العقبة)، وكتبها كتّاب آخرون بأسماء محرّفة من الصعب أن نتبينها وإن رأيناها كلّها تشير إلى هذا المكان من الطريق.

(5) بقي أن نشير إلى محطة (Medileh أو Medeia) التي جاءت في خريطة (بويتنجار) بعد محطة (Clysma) ناحية السويس، وهذه المحطة تظهر في الخريطة التي نقلها (كامرر) في كتابه عن «البطراء والنبطيين» بين نخل



(1) راجع: البتانوني، ص 33.

والسويس، ولعلها تقع على مدخل التيه في أحد الممرات التي تقطع حافتها الغربية، سيما وأن هناك آثارًا ظاهرة في خريطة المساحة على مدخل التيه بطريق (وادي الحج)، لو أثبتت الدراسات أنها آثار رومانية لكان في هذا ما يحتمل معه وجود إحدى محطات ذلك الطريق عندها، ولما بعد أن تكون هي محطة (Medeia) نفسها. ويحسن أن نشير هنا أيضًا إلى أن (WEILL) يضع هذه المحطة في وادي (متله) أحد الوديان التي تنحدر على حافة التيه الغربية ناحية خليج السويس، ويرى أن الاسمين متّفقان تمامًا[1]... وإذا كنا لا نتعرض لكلام (WEILL) بنقض أو تأييد، فكل ما يمكن أن يؤخذ عليه إنما هو تأكيد ذلك التحقيق الذي رآه بمجرد وجود التقارب بين التسميتين، إذ كان الأسلم أن يترك الأمر مرجحًا، بدل ذلك الجزم الذي لا يستند على الدراسة الاركيولوجية التي تستطيع وحدها أن تكون أساسًا متينًا لتحقيق المحطات.

ويمكن أن ننهي الكلام عن درب الحج بوصف مختصر لطريق السيارات الذي يقطع سيناء في وسطها بين السويس والعقبة ثم إلى البطراء، وسنراه يتبع طريق الحج في كثير من أجزائه، يسهل حيث كان يسهل سير القافلة، ويصعب حيث كانت القوافل تجد الدرب صعبًا... وسنعتمد في ذلك الوصف على ما كتبه (جارفس بك)[2] في كتابه عن سيناء، وعلى تقرير محفوظ بمصلحة الحدود المصرية كتبه (القائم مقام هاتون بك) في أواخر عام 1930 عن الطريق بين الشط والعقبة:

تعبر السيارات قناة السويس عند «الكوبري» إلى شمال مدينة السويس بخمسة أميال، ثم تسير جنوبًا إلى (الشط) لتتجه منه شرقًا في الصحراء، ويقطع الطريق في تلك الصحراء الممتدة بين السويس وحافة التيه 25 كم متتبعًا (وادي الحج) في معظم سيره، في سطح مهد بالطين على أساس حجري لا يعوقه إلا رمال الكثبان حين تسفيها عليه الرياح والذي لم تجد معه مصلحة الحدود بداً من أن تعمل على رصفه لتتخلص بهذا من مشكلة الرمال، ويدخل الطريق

---

(1) راجع: Weill, p. 116.
وراجع خريطة مصر في الفترة الرومانية التي طبعتها مصلحة المساحة المصرية لترى أنها تضع هذه المحطة مكان تفرع الطريق الحالي إلى نخل والحسنة، وتجعلها أيضًا نقطة تفرع طريقين أحدهما إلى (ايلة) والآخر إلى بلاد الشام.

(2) راجع: Jarvis, chap. 17, pp. 292-309.
ولاحظ الخريطة التي رسمها لبيان طرق السيارات في آخر الكتاب.

هضبة الراحة من ممر (متله)، في انحدار 1-7، وهو ممر عملت مصلحة الحدود كثيرًا في تمهيده حتى أصبح الآن ميسّرًا لسير السيارات[1]، ليهبط منه بعد كيلومترين في وادي (صدر الحيطان)، نهاية وادي الحج، فإذا دخل درب الحج في هضبة التيه، تفرع منه فرع إلى «الحسنة» ليصل إلى «بئر السبع» أو إلى مدينة العريش، وسار طريق السيارات في سطح جامد لا يصعب السير فيه ولا يتطلب حذرًا إلا في قطع الوديان الكثيرة التي تأتي من حافة التيه قاطعة الهضبة لتصل إلى وادي العريش، فإذا وصل (نخل) تبع طريق الحج أيضًا إلى (الثمد)، في أرض تشبه الأرض السابقة، وإن وجد في بعض أجزائها ما يجعل السير السريع فيها صعبًا... ومن (الثمد) يترك طريق السيارات طريق الحج، ليقطع وادي (الجرافي) وفروعه إلى (الكنتلا) حيث يلاقي طريق السيارات الآتي من العريش على طول حدود سيناء الشرقية. وتعتبر الكنتلا إحدى النقط الحربية التي تنبأ لها (جارفس بك) بمستقبل حربي هام، والتي يصفها بأنها تشرف على سهل ممتد حولها، وتتمتع بماء عذب لا يتوافر في المناطق الأخرى المجاورة لها[2]... ثم يسير الطريق إلى جنوب (الكنتلا) ليصل إلى العقبة بعد أن يمر بنقب العقبة الذي أشرنا إلى وعورته رغم ما تقوم به مصلحة الحدود من إصلاحات فيه...

وأما (درب الشعوى): وهو الطريق الجنوبي في وسيط سيناء، فالمعلومات عنه قليلة جدًا مما يدل على أن أهميته في المرور كانت أهمية محدودة لا يمكن أن تقارن بأهمية (درب الحج)، لكن المرجح أنه استخدم قبل درب الحج، وأن جيوشًا كجيوش (صلاح الدين) قد سلكته أثناء حروبه مع الصليبيين. وإذا صح ما يذكره (نعيم بك شقير) - الذي كانت له فرصة الاختلاط بالبدو أثناء وجوده في شبه الجزيرة والذي بنى معلوماته على ما قصه عليه شيوخهم المسنون - من أن (درب الشعوى) هو أقدم الطرق إلى نقب العقبة عهدًا[3]، فإن الطريق الذي يتحدث عنه جغرافيو العرب في القرن الثاني عشر وما يسبقه - أي قبل قيام طريق درب الحج - إنما يقصد به درب

(1) راجع تقارير مصلحة الحدود السنوية، في السنوات الأخيرة لترى مقدار ما عمل في هذا الممر من إصلاحات.

(2) راجع: Jarvis, p. 14.

(3) راجع: شقير، ص 265.

الشعوى هذا، سيما وأنا قد رأينا أن المحطة التالية لمحطة (عجرود) يكتبها (ابن خرداذبه) «الذنبه»، ويكتبها الإدريسي «الدوينه» أو «الربيثة» في حين أننا نجد على الخرائط وادي «الربينة» يتصل بدرب الشعوى في هضبة الراحة، ولعل الاختلاف في الأسماء راجع إلى عدم الدقة في نقل رسم الحروف أكثر مما هو راجع إلى اختلاف المكان[1]. ولعل مما يقوي ذلك الاحتمال إننا لا نجد في كتابة أولئك الرحالة اسمًا لمحطة في الطريق تشعرنا بأنه كان يسير مكان درب الحج، كما أن باقي المحطات التي يذكرونها نستطيع أن نتلمسها على طول درب الشعوى نفسه.

يبدأ هذا الدرب كما يبدأ درب الحج، فيقطع المنطقة الصحراوية التي تصادفنا إلى شرقي السويس، ويستفيد من وادي الراحة في قطع هضبة الراحة، ليدخل أرض التيه شمالي «عين صدر» حيث توجد آثار قلعة لعلها بنيت لحماية ذلك الطريق... وفي هضبة التيه يسير الدرب في ذلك السطح الجامد شرقًا، قاطعًا أعالي فروع (البروك) أولًا، ثم يقطع وادي العريش نفسه شمال بئر «أم سعيد» بقليل، فروافد العريش الشرقية - أبي طريفية، ووادي الرواق، فالفيحي، فوادي القريص - حتى يصل إلى (الثمد)، ثم يستفيد من وادي (الشعيرة)، ويسير معه قليلًا ليتفرع إلى فرعين أحدهما يسير إلى الجنوب الشرقي حتى ينتهي إلى جزيرة فرعون، والآخر يستمر شرقًا حتى يلتقي بدرب الحج عند (نقب العقبة).

وإذا كان درب (الحج) يفضل (درب الشعوى) في إنه أسهل منه، وكانت المسافة فيهما متقاربة تقطعها الابل في ستة أيام، فإن الميزة التي تميز هذا الطريق عن سابقه، وتجعل بدو التيه الجنوبي يتخذونه إلى السويس منذ القدم حتى الآن، تنحصر في أنه أغنى في الماء والمرعى، تستقي القوافل فيه من بئر مبعوك على مدخل هضبة التيه، ومن عين صدر على مدخل التيه، ثم من بئر أم سعيد، وبئر القريص والثمد وما بعدها، وإذا فقد كانت القوافل تستغني في درب الشعوى عن أن تحمل ما يلزمها من علف وماء...

ويصح قبل أن ننتقل إلى المجموعة الجنوبية أن نشير إلى أنه كانت هناك

---

(1) راجع في الجدول السابق المحطات التي ذكرها ابن خرداذبه والمقدسي والإدريسي.

عدة طرق تأتي من الشمال لتلاقي الطريق الأوسط في سيناء وقد تتجاوزه إلى الجنوب، بعضها كانت تتخذه تجارة البحر الأبيض سبيلًا لها إلى البحر الأحمر بطريق خليج السويس، منها ما كان يحاذي حدود شبه الجزيرة من الشرق لينتهي إلى خليج العقبة، ومنها ما كان يربط بلاد الشام بمنطقة (سانت كاترين) حيث كان يحج كثير من المسيحيين.

أما من البحر الأبيض فقد أشار (پليني) إلى أن المسافر من البحر المصري (يقصد البحر الأبيض) إلى البحر الأحمر يأخذ البر، وأن البحرين يربطهما ثلاثة طرق مستقلة: أحدها يبدأ من (پيلوز) قاطعًا الصحراء في أرض رملية لا يعرفها الإنسان إلا بعلامات قائمة بين مرحلة وأخرى، يهتدي بها المسافر حين يهب الهواء فتضيع معالم الطريق... والثاني يبدأ على بعد ميلين من جبل (كاسيوس) - القلس - يقطع الصحراء التي يسكنها عرب الـ Aute'ens ويتصل بالطريق السابق بعد ستين ميلًا، والثالث يبدأ من Gerrha[1] (لعلها المحمدية الحالية)، وهو طريق صعب لا ماء فيه، وكل هذه الطرق تنتهي إلى طريق واحد يصل أخيرًا إلى Arisonoe قرب رأس خليج السويس[2]... وكتابة (پليني) وإن كانت صريحة في وجود هذه الطرق، إلا أنه ليس بها من المعلومات ما يمكننا من أن ندخل في شيء من تفاصيل تلك الطرق التي لا نصادف في كتابة الجغرافيين القدماء عنها شيئًا كثيرًا. و(ابن خرداذبه) الذي كتب حوالى بدء القرن العاشر الميلادي يشير إلى طريق يسلكه التجار بين الفرما والقلزم، حين يتكلم عن (مسلك التجار اليهود الرذانية) فيقول «إنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، وبينهما 25 فرسخًا، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الحجاز وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعون إلى القلزم

---

(1) راجع في هذا الفصل موقع هذا الموضع.
(2) راجع: كمال، ج 1، ص 97.

ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون البحر الغربي، فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها إلى الروم وربما صاروا بها إلى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك»[1]. وكلام (ابن خرداذبه) أيضًا ليس فيه تحديد للطريق من الفرما إلى القلزم، لكن لعل ذلك الطريق كان يقطع برزخ السويس، ويكون ذلك الطريق البري الذي يشير إليه هذان الكاتبان إذًا حلقة في سلسلة وسائل الاتّصال بين البحرين الأبيض والأحمر، ذلك الاتّصال الذي كان يتم بطرق مختلفة انتهت فيما نعلم بحفر قناة السويس.

وهناك كثيرون من جغرافيي العرب يشيرون إلى أن القلزم لم تكن ميناء مصر فحسب، بل كانت أيضًا ثغر بلاد الشام، بهذا أشار (ياقوت والإصطخري[2] والمقريزي و... و...) الخ[3]. ومعنى هذا أنه يحتمل أن قد كان هنالك طرق برية تأتي من الشام قاطعة شمال سيناء، أشرنا إليها في الكلام على الطريق الجنوبي من المجموعة الشمالية، كانت تحمل حاصلات الشام إلى القلزم، وحاصلات الحجاز واليمن إلى الشام... وعلينا أن نتذكر هنا ما سبق أن ذكرناه عند الكلام على تطور أهمية ميناء الطور، من أنها كانت تنافس ميناء (القلزم) في مرور التجارة في بعض الفترات التاريخية، ففي مثل تلك الأوقات كانت تحل الطور محل القلزم كميناء تخرج منها تجارة الشام إلى اليمن والحجاز، وتمر بها تجارة تلك الجهات إلى بلاد الشام.

---

(1) راجع: ابن خرداذبه، ص 153-154.

(2) الإصطخري، أبو القاسم (ابراهيم بن محمد الكرخي) ولد ونشأ في إصطخر وتوفي في الهند. لا يعرف تاريخ ميلاده ووفاته. عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). خرج سنة 340هـ/ 951م يطوف العالم الإسلامي فزار بلاد العرب والهند وسواحل المحيط الأطلسي. يعتبر من رواد علماء البلدان والجغرافيين. من مؤلفاته «صور الأقاليم» وفيه 21 خريطة (صورة الأرض، ديار العرب، بحر فارس، بلاد المغرب، بلاد مصر، بلاد الشام، بحر الروم، العراق، خوزستان، فارس، كرمان، بلاد السند، أرمينيا، أذربيجان، الديلم وطبرستان، وبحر الخزر/ قزوين، وإقليم سجستان، خراسان، وبلاد ما وراء النهر). وله «مسالك الممالك» ويعتبر أول من كتب في هذا العلم ويذكر فيه أقاليم الأرض وممالكها ويقسم المعمورة عشرين إقليمًا ويذكر مدن كل إقليم وبقاعه وبحاره وأنهاره (م).

(3) راجع: تحت كلمة القلزم: ياقوت الحموي، ج 7، ص 145-146؛ المقريزي، خطط المقريزي، ج 1، ص 213، وأبو اسحق ابراهيم بن الأصطخري، كتاب مسالك الممالك، ص 33.

وأما الطريق البري الذي يكاد يمس حدود سيناء الشرقية، فالذين كتبوا عن النبط ومدينة البطراء يذكرون أن من بين الطرق التي تربط بين خليج العقبة والبحر الأبيض، طريقًا يبدأ من (أيله)، يسير إلى غربي منخفض العرابة والبحر الميت، وينتهي عند (رينوكولورا) – العريش – على مصب (نهر مصر) الذي نعرفه الآن باسم وادي العريش[1]. طريقًا يقول عنه (استرابون) إن القوافل بين (البطراء) ومصر كانت تتبعه غالبًا... ويوجد الآن على حدود سيناء الشرقية طريق حسن للسيارات يتوافر الماء فيه، يأتي من «العريش» إلى «القصيمة» ليصل إلى «الكنتلا»[2]، ويمكن أن ينتهي إلى العقبة أو البطراء... وطريق السيارات هذا يستفيد في بعض أجزائه – كما كان يستفيد طريق القوافل قبله – من الوديان التي تتصرف إلى وادي العريش من جهة والوديان التي تتصرف إلى وادي «الجرافي» من ناحية أخرى.

ثم يبقى الطريق الذي كان يسلكه الحجاج المسيحيون إلى «دير سانت كاترين» في القرن 15 و 16، وقد كان يأتي من غزة، يقطع هضبة التيه، ويستفيد من روافد وادي العريش حتى إذا أتى حافة التيه الجنوبية قطعها من نقب (المريخي) أو (الراكنه) ليصل إلى (دبة الرملة)، وليأخذ الوديان في المنطقة الجبلية الجنوبية إلى دير سانت كاترين[3].

ثالثًا: المجموعة الجنوبية:

ويقصد هنا هذه الطرق التي تقطع منطقة الجبال النارية في ذلك المثلث والذي تبلغ جبال سيناء فيه أشد ارتفاعها، والذي تتعمق الوديان فيه على شكل خوانق تعلو جوانبها علوًا كبيرًا... وسنرى أن هذه الطرق تستفيد جدًا من تلك الوديان الهامة التي ذكرناها في جنوب سيناء، فهذه هي التي تعين سير الطرق تعيينًا تامًا لا شذوذ فيه إلا في المنطقة الساحلية الرملية المحصورة بين هذه الكتل الجبلية وبين البحر، فإنها هنالك تسير فوق الرمل، وتقطع مصبات الوديان الآتية من خطوط التقسيم الداخلية لتضيع في المنطقة الرملية كما هو الحال في سهل «القاع» و «المرخاء» بشكل خاص.

---

(1) يمكن الرجوع في دراسة الطرق التي كانت تربط بين البحر الأبيض وخليج العقبة إلى كتاب (Ritter) في الجزء الأول منه صفحة 21 وما بعدها أما الطريق الذي نشير إليه فقد ذكره: Kammerer, p. 56.

(2) راجع: Jarvis, p. 301.

(3) راجع: Robinson, Appendix, p. 601.

وتأتي أهمية هذه المجموعة - كطرق للمرور في سيناء - في الدرجة الأخيرة بين طرق شبه الجزيرة كلها لأسباب أهمها:

1- وعورة مسالكها وصعوبة السير في أجزاء كثيرة منها لانتشار الكتل الصخرية في الوديان، تلك الكتل التي تنفصل عن الجبال والتي تعجز مياه السيول عن أن تدفعها أمامها فتتركها عقبة في الطريق... ولصعوبة الانتقال من واد إلى آخر وقطع الخطوط الفاصلة بينها، فما يتم ذلك إلا بما يسميه البدو (النقوب)، وما هذه إلا مسالك وعرة على جوانب الجبال، تصل بين أعالي الوديان، يسير الإنسان فيها في طريق ملتو حتى يصل القمة ثم يهبط على الجانب الآخر بنفس الصعوبة، وكثيرًا ما يستحيل أن تسير الإبل المحملة في مثل هذه النقوب، ويتعذر على الراكب أن يظل راكبًا بل يضطر إلى أن يترجل ليقود دابته بنفسه في ذلك الانحدار الشديد. وكأن وجود الرهبان في تلك المناطق الجبلية في سيناء داعيًا إلى أن يبذلوا مجهودًا كبيرًا في تمهيد هذه النقوب كما نرى في نقب (هوى) - الذي يصل بين وادي «سلاف» رافد فيران وبين الدير -، ونقب (حبران) في أعلا وادي «حبران» ونقب (الطرفاء) في طريق الطور إلى الدير بواسطة وادي «عسلة» _ و... و... الخ، لكن رغم كل هذا لا تزال الصعوبة قائمة يعاني منها المسافرون في بعض تلك النقوب عناء كبيرًا.

2- إن جهات آسيا التي يمكن أن يصل إليها الإنسان من مصر بواسطة طرق المجموعة الجنوبية ليست غنية بدرجة يمكن أن تقوم معها حركة تجارية تغذي هذه الطرق... كما كانت تجارة النبط في (البطراء) - وما يصل إليها من تجارة الشرق بطرق بلاد العرب البرية المختلفة - لا تجد داعيًا يدعوها إلى أن تطيل على نفسها المسافة فتسير من رأس خليج العقبة جنوبًا في تلك الوديان الطويلة المتعرجة، ثم تعود فتسير شمالًا إلى رأس خليج السويس في طريقها إلى مصر، بل كانت مثل هذه التجارة - التي كانت قائمة لحد ما قبل اكتشاف الرياح الموسمية في القرن المسيحي الأول - تأخذ طريق الوسط بصفته أكثر استقامة وأقرب بين الخليجين، أو تسير شمالًا لتأخذ طريق الساحل المطروق... حقيقة إن المنطقة الجبلية الجنوبية أغنى بمرعاها ومائها

من المنطقة الوسطى، مما قد يكون داعيًا إلى أن تفضّلها القوافل على طريق الوسط، لكن ينبغي ألا ننسى أن المسافر مضطر بعد أن يجاوز منطقة الجبال النارية إلى أن يقطع منطقة صحراوية قاحلة قبل أن يصل إلى رأس خليج السويس، منطقة يقل ماؤها، أو تشتد ملوحته حتى ليتعذر على الإنسان - بل والحيوان - أن يشرب منه إلا مضطرًا. هذه المسافة يستغرق المرور فيها ثلاثة أيام أو أكثر، مما يزيد على نصف المدة التي تستغرقها القوافل في قطع الطريق الأوسط المستقيم، وإذًا فهذه الميزة التي تتمتع بها الطرق الجنوبية لا تعادل ما يعيبها من طول ووعورة...

على أن ذلك كله لا ينبغي أن يفهم منه أننا نجرد الطرق الجنوبية من كل أهمية، فهذا الذي ذكرناه إنما توحي به الموازنة بينها وبين طرق سيناء الأخرى في الوسط والشمال، لكن هنالك أمورًا أعطت بعض تلك الطرق الجنوبية أهمية موضعية لا يمكن أن نتجاهلها بحال من الأحوال:

أ- وجود بعض المعادن في جنوب سيناء كالنحاس والفيروز، وشهرة تلك المنطقة ببعض الأحجار كالديوريت مما جعلها مطمع القوى المحيطة بشبه الجزيرة، ودعا إلى وجود حركة نشيطة إلى منطقة التعدين هذه، من المناطق المجاورة لها بشكل عام، ومن مصر بشكل خاص، فالثابت أن قد كان لمصر مستعمرة للتعدين في منطقة «مغارة» و«سرابيت الخادم»، وكان الطريق إليها معبدًا لنقل الجنود والعمال[1]...

ب- إن اضطهاد المسيحيين في مصر في أوائل دخول المسيحية والتماسهم بعض هذه الأماكن الرهيبة مراكز يلجأون إليها للعبادة، أوجد في القرون المسيحية الأولى حركة تغذي طرق سيناء الجنوبية، تدل آثار الرهبان المتفرقة الكثيرة على أنها كانت حركة عظيمة. فلما أخذت هذه المنطقة أهمّيتها كمركز ديني تقدسه بعض الطوائف المسيحية قامت هنالك حركة يمونها الحجاج المسيحيون إلى منطقة الدير وكنيسة (سانت كاترين)، حركة ضعفت الآن جدًا بعد إذ ظلت قوية قرونًا طويلة، وبعد أن كانت تدر على الدير ورهبانه الخير الكثير.

ج- كذلك كان للجانب الغربي لشبه الجزيرة المحاذي لخليج السويس

---

(1) يشير «بتري» إلى هذا الطريق في الفصل الأول من كتابه: Flinders Petrie, *Researches in Sinai* (1906), pp. 7-8.

أهمية في مرور التجارة التي كانت تأتي - فيما سبق أن أشرنا - بطريق البحر الأحمر لتخزن في ميناء «الطور» ثم تحملها القوافل في طريق يحاذي الساحل الغربي لتوصلها إلى مصر وإلى بلاد الشام... ولقد تعرضنا لتلك النقطة بشيء من التفصيل في بدء هذا الفصل، حين تكلمنا على أهمية سيناء كطريق للمرور ورأينا كيف أن ميناء (الطور) كانت في بعض الفترات التاريخية تنافس ميناء (السويس) من ناحية وميناءي (عيذاب والقصير) من ناحية أخرى لأسباب فصلناها في موضعها من البحث وتكلمنا عنها طويلا[1].

ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذا كله أن غنى بعض أجزاء هذه المنطقة الجنوبية بالماء وتوافر شيء من الحياة النباتية فيها، وطبيعة القبائل البدوية المتنقلة التي لا تعرف الاستقرار، كل ذلك كان يغري دائمًا بأن يمتد اليها سلطان تلك القبائل، وبأن تكون مسرحًا لهجراتها الطويلة أو القصيرة، بل إنا لنرى سيناء الجنوبية في فترات طويلة تخضع غالبًا لغزو تلك القوى المجاورة فتمتد أرض (مدين) - فيما يرى بعض الكتّاب - إلى غربي خليج العقبة[2]، وتشمل (العرب البطراء) الجزء الأكبر من سيناء الجنوبية فما يضعف سلطانها عليها إلا بعد أن اضمحلت هي على يد الرومان.

هذه المجموعة الجنوبية التي وضعناها - كطريق للمرور - في المرتبة الأخيرة بين مجموعات طرق سيناء الأخرى، ارتبطت بحادث تاريخي أدى إلى اهتمام الكتّاب بتفصيل الكلام في طرقها، وكان من نتيجة ذلك أن أصاب هذا الجزء من سيناء ما لم يصب أجزاءها الأخرى من الكتابة عن تفاصيل تلك الطرق ومراحلها وموارد الماء وأماكن الرعي فيها... ذلك الحادث هو خروج الإسرائيليين من مصر وقطعهم سيناء في طريقهم إلى أرض الميعاد، وهو حادث اهتمت الكتب الدينية به، وورد في أحد أسفار التوراة ذكر طويل له، وجاء الكتاب في القرون الحديثة يبحثون عن تلك الطرق التي يمكن أن يأخذها الإسرائيليون على أساس الدراسة الجغرافية لشبه الجزيرة ويحققون المراحل المختلفة على ضوء الحالة الواقعية الملموسة، وكان اتجاه الغالبية

(1) راجع مقدمة هذا الكتاب.

(2) راجع: Richard Burton, *The Land of Midian*, 2 vols. (1879), vol. 1, p. 295.

إذ يرى الكاتب أن حدود أرض مدين كانت مرنة وأنها ضمت في بعض الفترات سيناء، وان لم يستمر ذلك طويلًا.

الساحقة منهم إلى أن طريق الإسرائيليين إنما سار إلي الجنوب لأن نصوص التوراة صريحة في هذا، ولأن فيها ما يدل على أن اللّه قد أمر (موسى) بألا يسير إلى الشمال بل يتّخذ طريقه إلى الجنوب. ومن هنا تركّزت الدراسة في المنطقة الجنوبية وأخذ هذا الجزء الأهمية الأولى في دراسة الرحالة والباحثين.

وطريق الإسرائيليين في نظر غالبية الكتاب يخرج من شرقي الدلتا (أرض جاسان) إلى برزخ السويس، فيسير جنوبًا إلى رأس خليج السويس والمستنقعات الموجودة حوله ليمر موسى وقومه ويغرق فرعون وجنوده، ويسير الطريق بعد ذلك جنوبًا فيمر بعيون موسى ويقطع الوديان المعروفة هنالك إلى أن يأتي وادي غرنديل والطيبة، إلى سهل المرخاء ثم يأخذ وادي فيران إلى جبل موسى، وهو في هذا كله يتبع الطريق العادي، طريق السيارات الحالي إلى دير سانت كاترين. وهنالك يمر الطريق بعين أبي صوير ليأخذ وادي سعال إلى عين الحدحيرة فوادي واتر إلى ساحل خليج العقبة، ومن ثم يأخذ الطريق اتّجاهه إلى أرض الميعاد ببلاد فلسطين[1].

وأنصار هذا الرأي يعتمدون أولًا على نصوص التوراة، ويرون أن المراحل التي ذكرها الكتاب المقدس يمكن أن نجد ما يطابقها في جنوب سيناء[2]... أما ردهم على وجود حاميات في منطقة التعدين في سيناء الجنوبية يمكن أن تصد الإسرائيليين فيستند إلى أن موسى قد تفادى هذا الخطر بأن أخذ طريق سهل المرخاء على الساحل، ولم يأخذ الطريق المؤدي إلى مناطق التعدين في مغارة وسرابيت الخادم، ويرون أن مثل هذا الاعتراض يمكن أن يكون حجة لهم ضد أنصار الطريق الشمالي، إذ يرون أن حدود مصر كانت محصنة جدًا من تلك الناحية الشمالية بصفتها طريق الغزو إليها من ناحية الشرق، وإذًا فقد كانت الحامية المصرية هنالك قوية ومن المجازفة أن يسير الإسرائيليون في ذلك الطريق الشمالي الذي أبعدهم اللّه عنه حتى لا يصطدموا بالمصريين... فإذا جاءوا يناقشون مدى احتمال موارد المنطقة الجنوبية لهذا العدد الكبير

---

(1) يرجع في هذا إلى معظم الكتب التي كتبت عن سيناء ومنها: Palmer, *Sinai from the Fourth Dynasty*, pp. 150-219; Richard Lepsius, *Letters from Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai* (1852), pp. 302 - 321; Sharpe, vol. 1, and C. W. Wilson and Henrey Spenser Palmer, *Ordnance Survey of the Peninsula of Sinai* (1869).

(2) يرى معظم أنصار طريق الجنوب أن ما ورد في التوراة من أسماء يمكن تحقيقها كما يأتي: من السويس إلى بئر أبي صويرة أو هوارة (المرة) إلى غرنديل (عليم) إلى المرخاء، إلى فيران (رفيديم)، إلى جبل موسى، إلى عين الحدحيرة (حظيرون)... الخ.

من الإسرائيليين، فهم يشكون أولًا في اعتبار شبه الجزيرة أيام خروج موسى وقومه على مثل حالتها الراهنة من حيث الماء والنبات، وهم في الوقت ذاته لا ينكرون أن الإسرائيليين قد لاقوا صعوبات كثيرة في قطع شبه الجزيرة، وأن رحمة اللّه - حسب نصوص التوراة - هي التي أعانتهم في تلك المنطقة المجدبة القفراء!!.

وأقلية الكتّاب التي تخالف هذا الرأي، تذهب إلى أن طريق الإسرائيليين إنما قطع سيناء في جزئها الشمالي المطروق... وقد تزعم هذا الرأي (Brugsch Bey) الذي ألقى بحثًا في سبتمبر 1874، قال فيه إن غرق فرعون لم يكن عند رأس خليج السويس وإنما كان في بحيرة (سربونيس)، التي يذكر الكتاب القدماء أنها كثيرًا ما كانت تغطى بالرمل، وأنها ابتلعت عددًا كبيرًا من الجيوش التي كانت تمر بها دون أن تلتفت إلى خطورة المنطقة[1].

ويأخذ (جارفس بك) في كتابه عن سيناء بهذا الرأي ويردد رأي (Brugsch Bey) ومن تبعه فيما كتبوا عن تيه بني إسرائيل، وسنذكر هنا باختصار النقط التي استعرضها ففيها بيان لوجهة نظر أنصار الطريق الشمالي بعد إذ أشرنا إلى وجهة نظر أنصار طريق الجنوب[2].

أ- أن المنطقة الجنوبية مجدبة، واذا سلمنا بأنها كانت أكثر مطرًا مما هي الآن فليس لدينا ما يمكن أن نعتمد عليه في أن الحالة كانت تسمح بوجود الثيران وزراعة القمح، فكل ما يزرع في الجنوب هو النخيل والفاكهة وقليل جدًا من القمح، أما المنطقة التي يمكن زراعة القمح فيها في سيناء فمقصورة على المنطقة في شمال سيناء المحصورة بين العريش ورفح والقصيمة، وإذا نحن أخذنا برأي بعض الكتّاب واعتبرنا (الف) بمعنى عائلة، فإن تلك المنطقة التي تزرع القمح في الشمال يمكن أن تكفي هذا العدد من الإسرائيليين (27 الفًا).

---

(1) راجع: Brown, pp. 65-66.

(2) راجع: Jarvis, chap. 9, p. 158 to the end of the chapter.

وسترى في صفحة 161 و 162 أن الكاتب يصرح بأن آراءه ليست نتيجة بحث في كتب وإنما هي نتيجة تجارب له في الصحراء مدة 9 سنوات، وأن تجاربه هذه تعطيه ميزة عن غيره من العلماء الذين يتبعون آراء مسلمًا بصحتها منذ 1700 سنة!!

ب- إن المن والسلوى، أكثر في الشمال منه في الجنوب، ذلك الجزء الذي لا يعرف عنه أنه يشتهر بالسمان.

ج- إن المصريين كانوا يجهلون طريق شمال سيناء بدليل أنهم لم يتركوا لهم بقايا فيه، على حين أنهم كانوا يستقرون في مناطق التعدين في الجنوب، واذا فقد كان الأسلم للإسرائيليين أن يتفادوا مراكز الجند في الجنوب ويأخذوا طريق الشمال إلى فلسطين.

والواقع أنه من الصعب أن نرجح رأيًا على آخر، أو نخرج من الكتابات المختلفة برأي قاطع في الموضوع، وما نظن أن هذه النقطة تمس صلب بحثنا مسًا جوهريًا، يدعونا إلى أن ندخل في مناقشة دقيقة لها وجهاتها الدينية الحساسة، وفيها من النصوص المقدسة ما قد يتعذر معه أن يصل البحث العلمي إلى منتهى حريته، وما يضطرنا الى أن نترك نقط البحث ناقصة غير مستوفاة، واذًا فخير لنا أن نترك الباب في هذه النقطة مفتوحًا مكتفين بعرض آراء الطرفين هذا العرض السريع.

وفي سيناء الجنوبية ثلاثة طرق خارجية نوجز الكلام عليها فيما يلي:

الأول: طريق يربط بين رأس خليج السويس ورأس خليج العقبة، يبدأ من السويس، ويمر بعيون موسى، ثم يسير جنوبًا في هذه المنطقة الصحراوية، يقطع الوديان التي تنحدر غربًا من حافة التيه الغربية واديًا بعد آخر، لا يصادف الماء إلا في هذا البئر الذي يصعب الشرب منه، بئر (هواره) في وادي عمارة... فإذا وصل (غرنديل) صادفنا واحة ماؤها آسن يكثر بها نبات النخيل والسيال... ويستمر الطريق في تلك المنطقة الصحراوية، يفصله عن البحر جبل (حمام فرعون) إلى أن يأتي وادي «الشبيكة» فرع وادي الطيبة فيسير فيه، وهنالك نستطيع أن نأخذ أعلا الطيبة، (وادي الحمور) إلى دبة «القرى» ثم إلى منطقة التعدين القديمة في وادي النصب وسرابيت الخادم، ومن ثم نستطيع أن نصل وادي فيران في طريق أكثر التواء لكنه أكثر ماء... على أن الطريق العادي يستمر جنوبًا في أدنى وادي الطيبة إلى «أبي زنيمة» لنقطع هضبة طباشيرية إلى سهل المرخاء فنمر ببئر المرخاء الآسنة، ثم يكون أمامنا (وادي بعبعة)،

فإما أن نختصر الطريق فنأخذ ذلك الوادي إلى «ممر بودرة» لنصل وادي فيران بطريق وادي مكتب، وإما أن نستمر جنوبًا فنأخذ وادي سدرى إلى مكتب وفيران... على أن أسهل الطرق يستمر جنوبًا في سهل المرخاء الرملي حتى مخرج فيران من الكتلة الجبلية، فيسير الطريق فيه حتى يصل إلى «واحة فيران» - بعد إذ تلاقيه الطرق الفرعية الأخرى التي ذكرناها - التي أطلق عليها كثير من الرحالة اسم «جوهرة الصحراء» إذ ينتقل الإنسان فيها من جدب وقحل إلى منطقة يكثر الماء العذب فيها، ويتوافر النبات، كما نصادف آثار مساكن قديمة هي بقايا مدينة (باران) التي كانت مركزًا هامًا للرهبنة في شبه الجزيرة، فإذا تركنا الواحة ووصلنا إلى «البويب» فنحن أمام طريقين يوصلان إلى منطقة الدير، أقصرهما وادي سلاف فنقب (هوى) إلى الدير، وأسهلهما وادي الشيخ إلى الدير... ويصح أن نشير إلى أن منطقة الدير هذه في مقدمة جهات سيناء غني في النبات ووفرة في الماء الذي لا يفضله في العذوبة ماء آخر في شبه الجزيرة كلها...

ومن الدير يمر الطريق بعين (أبي صويرة)، ثم يصل خليج العقبة بأحد طريقين: طريق يتبع وادي (سعال) المجدب القليل الماء ليصل إلى (عين الحديرة) ويأخذ أحد فروع وادي (واتر) إلى ساحل العقبة فرأس الخليج، وطريق آخر يأخذ سبيله إلى الشمال في وادي (زليقة) ووادي العين، يمر بعين (أم احمد)، ويأخذ أدنى وادي (واتر) إلى ساحل العقبة فرأس الخليج...

وهذا الطريق هو الذي يلتمس فيه غالبية الكتاب طريق خروج الإسرائيليين من مصر، وهو في الوقت ذاته الطريق الذي كان يمكن أن يؤدي إلى منطقة تعدين النحاس والفيروز في سيناء سواء من ناحية مصر أو من ناحية الأقاليم الواقعة شرقي شبه الجزيرة... وباستخدام فروعه المختلفة كانت القبائل المجاورة تتلمس توسعها وزحفها على سيناء الجنوبية ترعى في وديانها وتستقي من مائها، ولعل أكبر توسع فيها إنما كان (للنبط) سادة البطراء الذين كانت تشمل مملكتهم معظم هذا الجزء من شبه الجزيرة، والذين ينسب اليهم بعض الكتاب تلك (النقوش السينائية) التي تنتشر في سيناء الجنوبية، سيما في وادي «مكتب» ووادي «حبران». وإذا كان النبط أمة تجارية اشتغلت بنقل

البضائع بين الشرق والغرب، فلا يبعد أن بعض قوافلهم كانت تستفيد من طرق سيناء الجنوبية، لكن لا على أن تكون طرقًا هامة يمكن أن تقارن بالطرق التجارية الأخرى التي كانت تربط (البطراء) بما جاورها في مصر وبلاد الشام.

ويتبع طريق السيارات الحالي الجزء الأول من ذلك الطريق بين السويس ودير سانت كاترين: فهو يعبر قناة السويس عند «الكوبري» فيسير جنوبًا إلى «الشط» ويمر بعيون موسى ليقطع تلك الوديان المتعددة التي تنحدر من حافة التيه إلى خليج السويس، فهنا يجد السائق شيئًا من الصعوبة وهو يقطع تلك الوديان... وتصبح الأرض وعرة قليلًا عندما يسير الطريق على جانب جبل حمام فرعون، لكنه لا يلبث أن يتبع في سهولة وادي الطيبة إلى أبي زنيمة فسهل المرخاء... فإن أراد المسافر اختصار المسافة أخذ وادي سدرى ووادي مكتب إلى فيران بين حوائط جبلية مرتفعة، وفي طريق متعرج ملتو، لكن ينبغي أن يتأكد السائق من أن الطريق صالح، لأن السيول حين تجري في وادي سدرى تفسده وتجعل السير فيه متعذرًا... فإذا وجدت صعوبة في سدرى ومكتب، فطريق السيارات يتجه في المرخاء جنوبًا ناحية الطور، إلى مخرج وادي فيران فيتبعه إلى وادي الشيخ فدير سانت كاترين على بعد 156 ميلًا من كوبري السويس بزيادة تسعة أميال عن طريق سدرى ومكتب إلى فيران[1]...

الثاني: طريق الطور والسويس الذي يوازي خليج السويس، وهو الطريق الذي كانت تقطعه القوافل بكثرة في الفترات التي كانت تصبح فيها (الطور) ميناء المرور بين تجارة الشرق والغرب عن طريق مصر، مدة النصف الأول من القرن الحادي عشر، وابتداءً من النصف الأخير من القرن الرابع عشر إلى أن تحولت التجارة عن طريق مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح[2].

وهذا الطريق يتفق مع الطريق السابق في الجزء الواقع بين السويس ومصب وادي فيران، وهنالك يتجه طريق الطور جنوبًا متبعًا وادي القاع الذي يقطع سهل القاع بين حافة المثلث الجبلي وهذه الكتل المتوازية التي تمتد على ساحل البحر من شمال الطور حتى قرب مصب فيران... وهذا الطريق

---

(1) يراجع: Jarvis, pp. 306-309.

ويراجع كذلك تقرير اللواء أحمد شفيق باشا مدير الحدود سابقًا عن رحلته من السويس إلى الدير في يناير 1906 وهو تقرير مطبوع بمصلحة الحدود.

(2) تراجع مقدمة هذا الكتاب.

رملي لا يصعب السير فيه، ولا يعيبه إلا ندرة الماء الصالح للشرب الذي لا يصادفه المسافر إلا إذا وصل ميناء الطور، ولعل هذا من العوامل التي أكسبت الطور أهميتها كمرسى يمكن أن تعتمد السفن على مائها، يضاف إلى ذلك أن المراسي الطبيعية الصالحة - فيما عدا الطور - على جانب خليج السويس الشرقي قليلة جدًا... وقد نضيف إلى هذا سهولة اتصال الطور بأجزاء شبه الجزيرة، لا بأتباع هذا الطريق الذي نتكلم الآن عنه فحسب، بل يمكن أن نصل منها إلى قلب شبه الجزيرة ثم إلى أجزائها الشمالية والشرقية بطريقين آخرين: طريق عسلة والطرفاء، وطريق حبران ووادي سلاف، وهما طريقان يتوافر الماء والمرعى فيهما، ولا يبعد أن شيئًا من تجارة الجهات المجاورة لسيناء كان يصل إلى الطور بطريق هذه المسالك، سيما وأنا نجد كتابات ونقوشًا على جوانب وادي حبران، إن لم نستطع إرجاعها إلى فترة محدودة، وجماعات معينة، فلا أقل من أن نتلمس فيها إشارة إلى أن ذلك الوادي كان واديًا مطروقًا في بعض عصور التاريخ.

وطريق السيارات ممهد الآن بين السويس وبين الطور، يسير في نفس الطريق الذي وصفناه، يتفق أولًا مع طريق السيارات بين السويس والدير إلى أن يتركه عند مفرق وادي فيران، ليسير طريق الطور جنوبًا وعرًا بعض الشيء في الخمسة أميال الأولى إلى أن يتبع وادي القاع فيصبح السير سهلًا، فإذا كنا على بعد خمسة أميال من الطور سار الطريق في رمل لين نوعًا، لكن ذلك لا يعتبر صعوبة كبيرة في طريق السيارات[1].

الثالث: درب النبك، وهو طريق يقطع سيناء الجنوبية من جنوبها الشرقي عند «النبك» على خليج العقبة، إلى شمالها الغربي عند السويس، كان يتخذه تجار الحجاز طريقًا لإبلهم وغنمهم إلى أسواق مصر، يعبرون خليج العقبة من ميناء (الشيخ حمد) في الحجاز فيصلون (النبك) في حوالي ساعة ونصف، ومنها يستفيدون من وادي «الكيد»، ووادي «مدسوس والأملح» إلى وادي «النصب» ومنه إلى علوة (العجرمية)، يسيرون منها حتى وادي الأخضر ومن ثم يقطعون بعض الوديان إلى (دبة القرى) ليأخذوا وادي الحمور إلى الطيبة ثم يصلون إلى السويس بالطريق الساحلي المعروف[2].

---

(1) يمكن الرجوع في وصف ذلك الطريق - بجانب ما كتبه جارفس بك في كتابه - إلى تقرير محفوظ بمصلحة الحدود: Hutton Bey: Car Petrol Report, Suez (Shatt) to (Tor), June 1925.

(2) استفدنا في ذلك من كتاب نعيم بك شقير عن سيناء الذي نقله عن أحد تجار الإبل (حسن الألجن) من عرب الحويطات، انظر: شقير، ص 267.

والماء في هذا الطريق متوافر، فالدراسة المفصّلة لموارد الماء في سيناء تدل على أن «بالكيد ونصب» ماء دائمًا يمكن الاستفادة منه، وعلى أن في وادي الأخضر عينا لا بأس بمائها، وبئر النصب بئر قديمة اعتمد عليها المعدنون في أيام قدماء المصريين... ولا يصعب توافر الماء العذب إلافي الجزء من الطريق بين الطيبة وعيون موسى، فكل ما نصادفه فيه من برك وآبار لا يعطينا إلا نوعًا من الماء يعافه الحيوان بله الإنسان، على أن أهمية هذا الطريق تكاد تكون الآن في حيز العدم، لتشديد الحكومة المصرية في السماح لحيوانات الحجاز باستخدام هذا الجزء من سيناء خوفًا من أن تنقل العدوى فيهلك المرض ما يملك البدو في سيناء من إبل وأغنام.

بهذا نكون قد عالجنا أهم طرق سيناء الخارجية التي تربطها بالمناطق المجاورة، ومن ذلك نرى أن تلك المساحة المتسعة لا يمكن أن ننظر إليها كأنها حاجز فاصل لا يمكن عبورها بين آسيا وإفريقيا، إذ أن الطرق التي تقطعها قائمة منذ القدم في الشمال والوسط والجنوب... وإذا كانت قلة الماء والمرعى قد وقفت عقبة في تيسير المرور فيها، وعاقت التقدم في بعض مناطقها، فإن الجهود الحديثة التي بذلت لتمهيد طرق السيارات وتعبيدها، ومد الخط الحديدي بين مصر وفلسطين في شمالها، سيعطي لسيناء أهمية كبرى كممر حربي وكطريق هجوم على قناة السويس. وما دمنا قد لاحظنا أن جيوش الأتراك قد قطعت شبه الجزيرة أثناء الحرب الماضية رغم ما صادفت من مشاق وصعوبات، فإن هذه الطرق السهلة الحديثة سوف تجعل مثل ذلك الهجوم أمرًا ميسرًا غاية التيسير، ومن هنا أصبح رجال الحرب الآن ينظرون إلى سيناء نظرة لم ينظروا بها إليها في الماضي القريب.

وسنحاول في ختام هذا الفصل الخاص بالطرق أن نستخلص من كتاب (جارفس بك) محطات طرق السيارات المختلفة وبيان مسافاتها والوقت اللازم لها، وهي تقديرات يرى الكاتب نفسه أنها لم تصل إلى درجة الدقة التامة، لكنه قد بناها على متوسط عدد من السيارات لن يتجاوز الخطأ معه في نظره 4 ٪ وهي نسبة لا تعد شيئًا كبيرًا.

مراحل طرق السيارات فى شبه جزيرة سينــاء

1 — الطريق من القاهرة الى بيت المقدس

مراحل الطريق	المسافة بالميل	الزمن س ق
من القاهرة الى كوبرى السويس	83 ميلا	3 00
الى نمر متله	» 23	1 10
الى صدر الحيطان	» 16	1 00
الى الحسنة	» 49	2 30
الى القصيمة	» 64	2 15
الى العوجاء	» 18	00 45
الى بئر السبع	» 45	2 00
الى حبرون	» 32	1 10
الى بيت المقدس	» 22	00 50
المجموع	» 334	14 40

2 — الطريق من القاهرة الى العقبة

مراحل الطريق	المسافة بالميل	الزمن س ق
من القاهرة الى صدر الحيطان	122 ميلا	5 10
الى نخل	» 38	2 00
الى التمد	» 39	2 00
الى الكنتلا	» 34	2 00
الى رأس النقب	» 32	1 15
الى العقبة	» 12	1 15
الى معان	» 76	4 00
الى وادى موسى	» 18	00 45
المجموع	» 371	19 25

3 — من القاهرة الى العريش

مراحل الطريق	المسافة بالميل	الزمن س ق
من القاهرة الى نقطة افتراقة عن طريق بيت المقدس (عند الضيقة)	205 ميلا	09 00
الى المقضبة	» 23	01 00
الى العريش	» 22	00 50
المجموع	» 250	10 50

4

مراحل الطريق	المسافة بالميل	الزمن س ق
من القصيمة الى الكنتلا	59 ميلا	02 25

5 — الطريق من القاهرة إلى دير (سانت كاترين)

مراحل الطريق	المسافة بالميل	الزمن س ق	مراحل الطريق	المسافة بالميل	الزمن س ق
من القاهرة الى كوبرى السويس	83 ميلا	3 00	الى واحة فيران	15 ميلا	1 15
الى ابى زنيمة	» 75	4 00	الى الدير	» 35	2 30
الى وادى فيران	» 31	2 15	المجموع	» 239	13 00

6 — من القاهرة الى الطور

مراحل الطريق	المسافة بالميل	الزمن س ق
من القاهرة الى نقطة افتراقة عن طريق الدير عند فيران	191 ميلا	09 15
الى الطور	» 39	02 00
المجموع	» 230	11 15

سيناء كمعبر للهجرات البشرية

قدّمنا في القسم السابق ما فيه الكفاية عن موقع سيناء وأهميتها كطريق للمرور، ويهمنا في هذا الجزء من دراستنا أن نؤكد عظم أهمية شبه الجزيرة في مرور كثير من القبائل، بصفتها قنطرة هامة بين شمال بلاد العرب وما يدور الهلال الخصيب حوله من صحاري سوريا والعراق من ناحية، وبين وادي النيل الخصيب من ناحية أخرى، فذلك التباين في الثروة والغنى بين تلك المناطق الفقيرة المجدبة الواقعة إلى جانب من سيناء، وبين ذلك القطر الغني بزراعته المعروف بعظم خصوبته منذ فجر التاريخ، بل إن شهرة المنطقة الواقعة إلى شرقي الدلتا بمراعيها منذ القدم نتيجة مياه الفيضان التي كانت تفيض على جوانب فروع النيل القديمة، والتي كانت حشائشها مضمونة مادامت تعتمد على مورد ماء مضمون بعكس تلك الحشائش التي يتوقف نموها في صحراء العرب وغيرها على ماء المطر الذي ينزل عامًا وقد ينقطع سنين... كل هذا كان داعيًا إلى أن يتلمس سكان المنطقة المجدبة راحتهم في وادي النيل ومراعي شرقي الدلتا، في هجرات سلمية بسيطة يؤخذ فيها رأي حاكم مصر وما كانت تتم إلا بموافقته... ومثل تلك الهجرات السلمية البسيطة كانت تحدث باستمرار أيام قوة مصر وهيبة حكامها، وما كانت تتوقف على سوء الحالة الاقتصادية في الصحراء المجاورة، بل كان يكفي فيها مجرد ذلك التباين الكبير بين المناطق الصحراوية والأراضي الزراعية، وذلك الإغراء الذي يدفع بساكن الصحراء إلى أن يتلمس حياة أكثر غنى في كنف الأراضي الخصيبة وعلى حافة مناطق الزراعة... وإذا كان من الصعب أن نحدد سير هذه الهجرات أو نبين مدى تذبذب موجاتها فان الكتابات القديمة تشير الى دوام مثل هذه الهجرات واستمرارها، ويعطي (ماسبيرو) مثلًا لهذا، هو صورة من مقابر بني حسن تمثل عددًا من هؤلاء البدو يقدمون لفرعون مصر القرابين ليسمح لهم بالسكنى في وادي النيل[1]. ولعل هجرة (الكنعانيين) وسكناهم في شرقي الدلتا وكثرة اليهود في ذلك الجزء من مصر كثرة خافها الحكام فاضطهدوهم وعذبوهم مثل حي لتلك الهجرات السلمية المستمرة.

---

(1) راجع: Maspero, *The Dawn of Civilization*, p. 469.

على أنه كان يوجد الى جانب تلك الهجرات السلمية البسيطة هجرات أخرى عنيفة، قد يكون مما شجع عليها ضعف حكام مصر ضعفًا أغرى سكان البادية بهم، لكن العامل الأساسي في حدوث مثل هذه الهجرات الكبيرة إنما كان مرجعه الرئيسي إلى سوء الحالة الاقتصادية في المناطق المجدبة، مما أدى أحيانا - كما كان الحال في غارة الهكسوس - إلى هجرة العائلات بجميع أفرادها، تصطحب معها كل ما تملكه من معدات وحيوان مما يدل دلالة صريحة على أن القصد من تلك الغارات إنما كان التماس مناطق تتوافر فيها وسائل المعيشة لتلك العائلات التي اضطرت إلى أن تترك مناطقها الأصلية حين عجزت عن أن تجد القوت فيها. إذ لو كان القصد مجرد الاستيلاء على ثروة وادي النيل وسلب خيراته ما كان هنالك ما يدعو الى أن تتحرك القبائل بنسائها وأطفالها وحيوانها، بل كان يكفي غزو المحاربين الأشداء من رجالها، فاذا مُكّن لهم في وادي النيل لحقت بهم عائلاتهم على أساس مضمون بدل تلك المجازفة التي لا تقوم القبائل بها إلا حين تضطرها اليها سوء الحالة الاقتصادية في مناطق سكناها الأولى. وما دامت حياة الصحراء متوقفة أولًا على مقدار ما يسقط فيها من مطر ينمو عليه المرعى فتعيش الحيوانات، فسوء الحالة الاقتصادية إنما كان يأتي طبيعيًا نتيجة الجفاف لقلة سقوط المطر أو انعدامه، أي أن رداءة الأحوال المناخية هنالك كان يتبعه أن ينبض قلب الصحراء فيبعث بهذه الموجات العنيفة إلى الجهات الغنية المجاورة، وما تعود تلك الموجات - إن رجعت - إلا حين تتحسن الظروف الاقتصادية في الصحراء بزوال فترة الجفاف... والذين يرجعون مثل هذه الهجرات إلى سوء الحالة السياسية في تلك المناطق ينسون أن الفوضى السياسية في البلاد الصحراوية كثيرًا ما تكون أسبابها اقتصادية، حين يوجد الضيق فتزيد المشاحنات والحروب بين القبائل.

وقد حاول كثير من الكتّاب تحديد هذه الهجرات، وتعيين عدد من الموجات السامية التي دفعت بها بلاد العرب إلى المناطق الخصيبة المجاورة، وراح (هنتنجتون) يربط هذا بتغيرات مناخية يرى دوراتها منتظمة يحددها هو تحديدًا[1]. وإذا كانت الكتابات لم تحتفظ لنا من تلك الغارات العنيفة التي قطعت سيناء في طريقها إلى مصر، إلا بعدد منها كغارة (الهكسوس) التي حدثت حوالى

---

(1) راجع: Huntington, *Palestine and its Transformation*, pp. 373-405.

القرن الثامن عشر قبل الميلاد، فما يمكن أن نأخذ ذلك دليلًا على أن حظ مصر من تلك الغارات كان ضئيلًا، بدليل هذه الحصون القوية المتتابعة التي كانت تقوم على حدود الدلتا الشرقية، وذلك الصراع القوي بين البدو وبين حماة الحصون الذي كان الفراعنة يدونون تفاصيله حين يكتب لهم فيه النصر.

والموجات السامية التي دفعت بها بلاد العرب في الفترات المختلفة موجات متعددة لا يسهل حصرها؛ بعضها لا يهمنا كثيرًا إذ كانت تقصد مناطق في الهلال الخصيب بعيدة عن سيناء، وبعضها مَسَّ سيناء مسًا خفيفًا فلم تتجاوز نهاية مَدّ الهجرات فيها أجزاء شبه الجزيرة الشرقية بصفتها أقرب أجزائها إلى مصدر تلك الهجرات، وبعضها وصل عنيفًا إلى مصر وتجاوزها جنوبًا وغربًا؛ ومثل هذه الموجات الأخيرة هي التي غزت سيناء كلها واتّخذت لها في أجزائها المختلفة طرقًا شتّى قطعتها من ناحية إلى أخرى في الشمال والوسط والجنوب.

أما الهجرات التي لا تهمنا كثيرًا فمنها تلك الموجات التي هاجرت من صحراء العرب إلى بلاد الجزيرة والتي كان لبعضها في تلك الجهات دول اتّسع سلطانها اتّساعًا امتد حتى حدود مصر نفسها، وأخضع القبائل السامية الأخرى التي كانت تنزل على حدود مصر الشرقية في شبه جزيرة سيناء، لكن كان يكفيها أن يكون لها في شبه الجزيرة نفوذ أسمى، ترمي من ورائه إلى كبح جماح تلك القبائل البدوية التي كثيرًا ما كانت مصر تثيرها عليها، أو إلى الحصول على شيء من الثروة المعدنية التي كانت تشتهر سيناء بها سواء أكان هذا من النحاس أو الأحجار أو الفيروز.

ويأتي بعد ذلك هجرات أكثر تأثيرًا في سيناء: هي تلك الهجرات التي نزلت القبائل فيها حول خليج العقبة أو سكنت فلسطين وسواحل سوريا، (كالمدينيين) الذين امتدت حركاتهم على الساحل الغربي لخليج العقبة[1]، و (الكنعانيين) و (الفينيقيين)، وهؤلاء من المعقول أن يكون تأثيرهم قد وصل إلى أجزاء شبه الجزيرة الشرقية والشمالية الشرقية، كما كانت تقضي المصلحة وحكم الجوار بأن تتداخل حدود القبائل في شرقي سيناء وجنوب فلسطين، وبأن تتجاوز مساكن القبيلة الواحدة إحداهما إلى الأخرى كما هو

---

(1) يمكن أن نرجع في دراسة موطن (مدين) ومدى انتشارهم في سيناء إلى ما كتبه «المقريزي» في: خطط المقريزي، ج 1، ص 186-189، وإلى ما كتبه (موسيل)، وياقوت طبع مصر (ياقوت الحموي، ج 7، ص 417-418)، وخير المؤلفات عن المدينيين هو: Burton, vol. 1, pp. 236-294.

الحال في قبائل (الترابين، والتياها، والعزازمة) التي تتوزع الآن في شرقي سيناء وفي بلاد الشام. بل إنا نرى من هذه الهجرات ما عبر سيناء نفسها كهجرة (الكنعانيين) التي تذكرها التوراة، وغارة (الهكسوس) الذين امتلكوا مصر وكوّنوا لهم في شرقي الدلتا قوة استمرت أكثر من قرن ونصف، وكانت مشجعًا عظيمًا على وصول القبائل العربية البدوية إلى مصر وسكناها في شرقي الدلتا بوجه خاص.

وإلى جانب هذه الهجرات السامية القديمة وصل إلى شمال سيناء قديمًا بعض مؤثرات لعناصر غير سامية، هي في جملتها مؤثرات بسيطة محدودة لا يمكن أن تقاس بالهجرات السامية، وتكاد تنحصر في الركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة: أهمها من عناصر البحر الأبيض (الفلسطينيون Philistines)، وهؤلاء سكنوا السهل الساحلي الواقع في الركن الجنوبي الغربي لفلسطين وكوّنوا لهم قوة امتدت حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى سواحل سيناء الشمالية الشرقية، ولم تضعف إلا حين تقوت مملكة اليهود على يد (شاول) الزعيم العبري المعروف[1]. و (الإيجيون) الذين فروا أمام غزوات الإغريق لسواحل البحر الأبيض الشمالية ليسكنوا على سواحله الجنوبية من دلتا النيل حتى (فينيقيا) ولتنزل أكثر جماعاتهم في المنطقة التي كان يسكنها قبلهم (الفلسطينيون). وهذه يمثلها من العناصر الهندوأوروبية[2] «الحيثيون» بوجه خاص، فهؤلاء عظم سلطانهم في القرن الخامس عشر قبل الميلاد واستطاعوا – لحوالي ثلاثة قرون – أن يمدوا سلطانهم وأن يغيروا على الإمبراطورية المصرية وأملاك الأشوريين، ومن هنا جاء احتكاكهم بالعناصر السامية وكان لهم بعض التأثير في الركن الشمالي الشرقي لسيناء.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الموجات السامية الأخرى التي وصل تأثيرها إلى شبه الجزيرة في فترات أحدث من التي سبقتها، فأول هذه الهجرات ما يطلق عليه الكتّاب الغربيون اسم (الإسماعيليين)، وهم قبائل يغلب أنها نشأت في شمال الحجاز وحول مكة، ثم اضطرها ضيق الموارد هناك، وما يتبع ذلك الضيق من تطاحن بين القبائل، إلى أن تنتشر إلى المناطق المجاورة؛

---

(1) راجع: Breasted, pp. 202 and 256, and William H. Worrel, *A Study of Races in the Ancient Near East* (1927), p. 19.

(2) يراجع في الكلام على العناصر (الهندوأوروبية) ما كتبه العلامة المرحوم (جيمس برستد) في: Breasted, chap. 6, p. 17.

وهذه الهجرات تظهر في أوائل التاريخ المسيحي بشكل خاص، ويصل إلى سيناء أثرها؛ والذين حددوا مناطق هذه القبائل وعينوا مواطنها ومبلغ انتشارها يذكرون أن (المدينيين) كانوا يمتدون من (حويلة) إلى (شور) أي إلى برزخ السويس إذ المعروف أن اسم (شور) كان يطلق قديمًا على شبه جزيرة سيناء، يتفق في ذلك ما كتبته التوراة، وما كتبه الكتاب المحدثون أمثال (سبرنجر) و(موسيل)[1].

ويأتي مع الإسماعيليين هؤلاء (النبط)، لم نشأ أن نرجعهم إلى الإسماعيليين لأننا لا نجد في كتابات (كاترمر وكامرر وغيرهما) ما نرجعهم معه إليهم أو نعتبرهم به فرعًا من فروعهم[2]. والنبط قبائل يرجح الكتاب أن موجاتها الأولى خرجت من بلاد الحجاز[3]، وأنهم زحفوا على بلاد (الأيدوميين) وأخضعوها لهم حوالي القرن السابع قبل الميلاد، وأسسوا لهم دولة قوية مركزها (سالع)[4] في وادي موسى، وهو لفظ معناه في اللغة العبرية (الحجر) ومن هنا جاءت التسمية اليونانية (بطرا Petra) وسميت تلك المناطق (العرب الحجرية)، وعمل النبط في التجارة بحكم موقعهم الجغرافي وسيطروا على الطرق التجارية بين بلاد العرب وبلاد البحر الأبيض بوجه خاص، وتوسعت مناطق نفوذهم إلى أن قضى الرومان عليهم في أول تاريخ المسيح عام 106 للميلاد.

أما مدى انتشار هذه القبائل النبطية في شبه جزيرة سيناء فيمكن أن نفهمه حين نذكر أن هؤلاء النبط كانوا أمة تجارية تشتغل بالوساطة بين تجارة الشرق ودول البحر الأبيض بما فيها مصر نفسها، وحين نقدر عظم الأهمية التجارية

---

(1) راجع: Aloys Sprenger, *The Ishmaelites and the Arabic Tribes who Conquered their Country*, p. 5, and Alois Musil, *Arabia Deserta* (1927), pp. 392-393.

(2) تنسب التوراة النبط إلى «نبايوط بن اسماعيل» وقد تأثر بهذا محب الدين الخطيب وأرجعهم إلى (نابت) من أولاد اسماعيل. ولهذا فضل أن يسموا (الإنبات) لا (النبط). يراجع: محب الدين الخطيب، اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب (1923)، ص 23-29.

(3) لا تزال مواطن هجرات النبط الأولى موضع جدل بين الكتاب، فبعضهم مثل (برسفال وكاترمر) يرجعها إلى بلاد العراق والغالبية ترى أن موطنهم الأصلي شمال الحجاز. [أرماند دي برسفال (1795-1871)، مستشرق فرنسي. له تعليقات على الشعراء العرب (الأخطل، الفرزدق، جرير) وتاريخ العرب قبل الإسلام. (م)]

- راجع بوجه خاص: Quatremère, *Mémoire Géographiques et Historiques*.

والأدلة التي يخالف بها كامرر كاترمر موجودة في: Kammerer, pp. 27-28.

[المستشرق Albert Kammerer (1875-1951). والمستشرق مارك كاترمر (1782-1857) ترجم بعض كتابات المقريزي والهمداني (م)].

(4) يراجع في تحقيق هذا الاسم مقال المرحوم أحمد زكي باشا بجريدة الأهرام بتاريخ 27/12/1933.

القديمة لموقع سيناء، وما ينتظر أن يكون لهذا الموقع في نظر النبط من وزن وتقدير، كان مظهره حرص تلك القبائل على أن تكون هي سيدة الطرق التجارية المتفرعة من البطراء إلى دمشق وإلى رينوكولورا - العريش الحالية - ، وعلى أن تسيطر أيضا على الطرق التي تقطع سيناء لتضمن بهذا الزعامة التجارية في تلك المنطقة، تلك الزعامة التي احتفظت بها لعدة قرون. وكان طبيعيًا أن يمتد نفوذها - لضمان هذه الطرق - إلى معظم جهات سيناء، امتدادًا لا يمكن أن نحدده على وجه التحقيق والدقة، لكن هنالك ما يدل على أنه كان نفوذًا متسعًا وصل تأثيره حتى برزخ السويس، وإن اختلف ذلك النفوذ قوة وضعفًا في نواحي سيناء المختلفة.

ولقد كانت الأدلة على وصول نفوذ النبط إلى سيناء مقصورة حتى وقت قريب على مجرد آراء الكتاب والمؤرخين، وعلى تلك النقوش التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذا البحث، والتي تنتشر في معظم مناطق شبه الجزيرة الجنوبية، وهي نقوش لا تزال موضع جدل بين البحاث وإن كان منهم من يرجعها إلى النبط ويأخذها دليلًا على امتداد نفوذهم هناك. لكن الأبحاث الحديثة - على قلّتها - دلت على وجود آثار للنبط قرب (بيلوز)، وعلى وصول نفوذهم إلى وادي طميلات: (دي كليدات) في ملاحظاته الاركيولوجية عن برزخ السويس يقول إنه عثر في جهة (قصر الغيط) - الذي لا يبعد كثيرًا عن موقع بيلوز - على أساسات أبنية نبطية لم يظهر فيها إلا آثار أحد المعابد[1]. ومثل هذه المؤسسات - إن صح ما يذهب إليه (دي كليدات) - ربما كانت لجاليات نبطية تنزل المحطات التجارية على طول الطريق الشمالي في سيناء الذي يقول عنه الكاتب نفسه إنه كان طريقًا يفضّله النبط كثيرًا. أما (وادي طميلات) فدراسة (كلرموجونو) تذهب إلى أن النبط كان لهم به مستعمرة ينزلون فيها[2]. وليس أمامنا كتابة (كلرموجونو) هذه لنقف منها على تفاصيل بحثه ولنعرف بالتحديد ما يقصده هو فيما نقله (كامرر) عنه، لكن لا غرابة في أن يكون للنبط مثل هذه المستعمرة في وادي طميلات، فالمعروف أن هذا الوادي كان طريقًا لدخول القبائل البدوية من الصحراء المجاورة إلى دلتا النيل، والمعروف أيضًا أنه كان هنالك طريق تجاري هام يقطع وسط سيناء، بين أيلة والقلزم، ورد في خريطة (بويتنجار) الرومانية، ولا يبعد أنه كان طريقًا معروفًا

---

(1) J. Clédat, «Notes sur L'Isthme de Suez,» *Bull. Inst. Fr. Arch.* (1921-1923).

(2) هذا ما نقله (كامرر) في: Kammerer, p. 195.

[يقصد المستشرق: Albert Kammerer (م)].

للنبط ينقلون به بعض المتاجر إلى مصر، وهو طريق يؤدي في نهايته عند رأس خليج القلزم إلى طريق وادي طميلات الذي كان الطريق الطبيعي بين برزخ السويس ووادي النيل، فكان يهم «النبط» إذا - في عصر زعامتهم التجارية - أن يصل نفوذهم إلى ذلك الطريق الهام، وقد يكون من مظاهر اهتمامهم به وجود جالية كبيرة لهم نزلت فيه وأوجدت هذه المستعمرة التي أشار إليها (كلرموجونو) في كتابته.

لكن هل يعني ذلك كله أن يكون النبط قد سكنوا فعلًا شبه الجزيرة واستوطنوها، أم هم قد قنعوا منها بمجرد ضمان مصلحتهم وتحقيق زعامتهم التجارية؟. المعقول أن هذه القبائل - ما دامت حرفتها الرئيسية هي التجارة حتى لقد كانوا يحرمون الزراعة ويحكمون على من يزرع بالإعدام فيما يقول ديودور الصقلي - ما كان يعنيها من شبه الجزيرة إلا طرقها التجارية، وما تأتي الرغبة في السكنى والتوطن إلا في المرتبة الثانوية، إلى أن تغزوهم جيوش الرومان في مواطنهم الرئيسية وتقضي على زعامتهم التجارية، وتأتيهم قبائل أخرى من شبه الجزيرة العربية تسكن بلادهم، وعندئذ فقط لا يبعد أن تلجأ قبائل منهم إلى وديان سيناء الجنوبية خاصة، لما يتوافر فيها من ماء ونبات: تسكنها وتنزل فيها، وإن كانت قد فقدت نفوذها وتلاشت شخصيتها في الهجرات المختلفة التي جاءت إلى سيناء في الفترات اللاحقة.

وسننتقل الآن إلى سلسلة من الموجات السامية الأخرى، وصل تأثيرها إلى سيناء في القرون السابقة أو اللاحقة مباشرة لبدء تاريخ المسيح حتى التوسع الإسلامي. لكن ينبغي أن نبرز ظاهرة تؤيدها الدراسة السابقة للهجرات السامية التي تعرضنا لها حتى الآن: تلك هي أن حدود النفود الشمالية والصحراء السورية كانت بمثابة المهد الذي تخرج منه القبائل الرعوية التي رأيناها حتى الآن تغزو المناطق المجاورة لها في أراضي الهلال وفي وادي النيل. وتلك حقيقة ثابتة فيما يختص بالموجات السامية التي حدثت في العصور التاريخية القديمة، لكن من الصعب أن نقول باستمرارها أو نربط بها كل حركات القبائل العربية قبيل الميلاد وبعده: فهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن كثيرًا من هذه الهجرات المتأخرة إنما جاءت من مناطق أخرى في شبه الجزيرة غير المناطق شبه الصحراوية التي في الشمال[1]. والكتابات العربية - كما سنرى - تكاد

---

(1) راجع: Huzayyin, pp. 218-219.

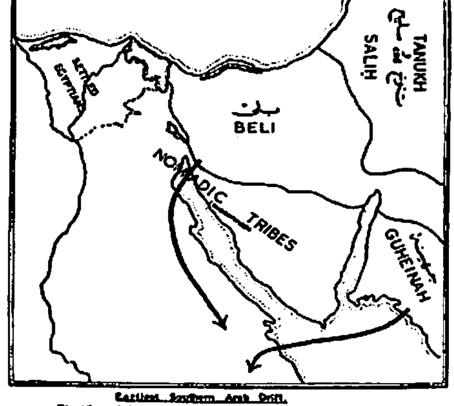
تجمع على أن أصل كثير من القبائل الشمالية القوية من الجنوب، كما تكاد تجمع تلك الكتابات كذلك - معتمدة على ما كتبه (حمزة الأصفهاني)[1] الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وعلى ما جاء في القرآن في سورة سبأ[2] - على أن مرجع هذه الهجرات وانتشار القبائل الجنوبية شمالًا في بلاد الحجاز ثم انتقالها إلى المناطق الخصيبة، هو إلى (سيل العرم) الذي هدم (سد مأرب). وليس هناك شك في أن تهدم سد تعتمد الزراعة على ما يحجزه خلفه من ماء قد يؤدي إلى مثل هذه الحركات، لكن الأسلم أن نقيم للعوامل الاقتصادية الأخرى وزنًا، وأن نقدّر آراء (هنتنجتون) وغيره ممن يقولون بأن الحالة المناخية - في هذه المنطقة الصحراوية من آسيا - كانت تميل إلى الجفاف قبيل الميلاد حتى ظهور الإسلام، أن نعتبر ذلك عاملًا في هجرات القبائل أثناء تلك الفترة من التاريخ. وليس من الضروري أن يكون الجفاف عظيمًا فأقل تغيير في مقدار المطر في مثل تلك المناطق الصحراوية يكفي لأن يغير الحالة الاقتصادية من أساسها، والجفاف مهما كان بسيطًا يمكن - في مثل هذه الأقاليم - أن تتأثر الحالة النباتية به تأثرًا يدعو إلى تحرك القبائل وهجرتها.

وأكثر هجرات هذه القبائل تأثيرًا في سيناء هي قبائل (قضاعة) الحميرية التي سكنت أولًا شمال الحجاز، واضطرت حوالى القرن الميلادي الأول إلى أن تهجر بلاد الحجاز فتتفرق بطونها في المناطق المجاورة، وينزل على حدود سيناء الشرقية من تلك البطون (تنوخ) الذين سكنوا أرض النبط و (سليح) الذين هاجروا مع تنوخ ثم غلبوهم وكان لهم السلطان حتى انتزعه منهم الغساسنة، ولا يبعد أن من هذه القبائل ما كانت تمتد مضاربها إلى بعض جهات سيناء الشرقية، لكن بطون قضاعة التي تشير المراجع صراحة إلى أنها كانت تنزل سيناء هي قبائل (بلي)،

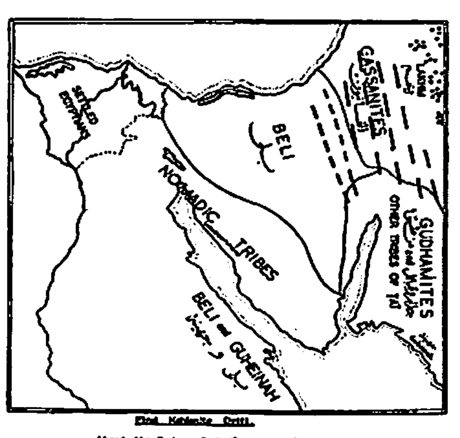
---

(1) حمزة الأصفهاني (أبو عبد الله حمزة بن الحسن) من أهل أصفهان (280-360هـ/ 893-970م). وهناك من يقول أنه توفي في 351هـ (962م). مؤرّخ، أديب ولغوي. رحل إلى بغداد للدراسة. من مؤلّفاته التنبيه على حدوث التصحيف وتاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء. جمع المستشرق الألماني أوجين متفوخ كتاباته تحت عنوان «مؤلّفات حمزة الأصفهاني» (م).

(2) راجع: حمزة بن الحسن الأصفهاني، كتاب تاريخ سنّي ملوك الأرض والأنبياء (برلين)، البابين 6 و 7، ص 63 و73 على التوالي، وراجع الآيات الخاصة بتلك القصة في «سورة سبأ» وآراء المفسرين في ذلك.



Earliest Southern Arab Drift.
The Himyaritic Branch of Kuda'a (about the first Century AD)



First Kahlanite Drift.
About the 2nd or 3rd Century A.D.

إذ يرى «الهمداني»[1] – وينقل عنه غيره – «أن منازل (بلي) في حدود جهينة، شمالًا إلى تبوك ثم إلى جبال الشراه ثم إلى معان، ثم راجعًا إلى ايله إلى المغار إلى الداروم – قرب غزة – ثم إلى الجفار غربًا إلى الفرما من حدود مصر»[2]. فهو بهذا يجعل أراضي (بلي) تشمل شمال الحجاز وأرض سيناء إلى برزخ السويس.

أما هجرات القبائل الكهلانية فما نجد في كتابات جغرافيي العرب ومؤرخيهم كلامًا صريحًا عن مدى انتشار موجاتها في شبه جزيرة سيناء في الفترات الأولى من تحركها، وما نجدهم يفصلون الكلام فيها إلا عن قبائل غسان التي ورثت (سليحا) على حدود الدولة الرومانية واستعملهم الروم فأصبحوا سادة العرب على حدود سيناء الشرقية. لكن ما يصح أن نتجاهل قبائل كهلانية نزلت إلى جوار منازل «غسان» لها أهميتها منذ الفتح الإسلامي

---

(1) الهمداني أو الهمذاني (أبو محمد). نسبة إلى مدينة همدان أو قبيلة همدان. ولد في صنعاء 280هـ وتوفي بعد 336هـ/ 947م. جغرافي، شاعر، اهتم بعلوم الفلك والحكمة والفلسفة والكيمياء. رحل في مطلع شبابه إلى مكة، وتأثر بالكتب المترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية. راسل كثيراً من علماء العراق وعاشرهم. عاد إلى اليمن نحو 311هـ/ 923م، وسجن في آخر حياته عام 334هـ وتوفي في ريدة من بلاد عمران. له الكثير من المؤلفات منها الجوهرتين العتيقتين في الكيمياء والمنهج التجريبي، وكتاب صفة جزيرة العرب أشار فيه إلى كروية الأرض، وكتاب الإكليل في التاريخ يروي فيه أخبار العرب والأمم السالفة، وأخبار الأوفياء وكتاب الأيام وكتاب الزيج في الجغرافيا وجداولها وكتاب المسالك والممالك والمطالع والمطارح في علم النحو (م).

(2) أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب (ليدن: [د. ن.]، 1883)، ج 1، ص130، و أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (طبع بولاق)، ج 2، ص 247-248.

في الشام ومصر، سنجد بطونها تنتشر فترث أرض الغسانيين، وتنزل نواحي سيناء المختلفة بل وتتجاوزها غربًا إلى وادي النيل. والمعروف من هذه القبائل (طيّء) سكنت هي وأخوتها (بنومرة) شمال الحجاز أولًا ثم تداخلوا في أرض الغسانيين، وقوي نفوذهم في أواخر أيام البيزنطيين[3]. والبطون المهمة من (طيّء) وأخوتهم، البطون التي سكنت المناطق المجاورة لسيناء وانتشرت بعد ذلك في شبه الجزيرة، هي (جذام ولخم): أما (جذام) فكانت ديارهم حول (ايله)، وكانت لهم رئاسة في (معان) وما حولها، وإذا كانت (جذام) قد تفرقت من مواطنها هذه وتوزعت في مناطق كثيرة، فسنصادف بقاياها حتى الآن في شعب (بني عقبة) الذي ينسب (الحويطات) حول خليج العقبة إليه، كما ظل شعب (العائذ) من جذام يتولى لعدة قرون ضمان الطريق من مصر إلى رأس خليج العقبة حتى ضعفت أهمية ذلك الطريق[4]. وأما (لخم) فالمعروف أنهم انفصلوا عن (بني طيّء) وهاجروا أولًا إلى حدود بلاد فارس ليعملوا للساسانيين هنالك، لكن منهم من هاجر فسكن في جوار مساكن الغساسنة ثم انتشر حولها في أوائل الفتح الإسلامي[5]. يضاف إلى جذام ولخم (آل ربيعة وسنبس والثعالب وبنو صخر) وكلها بطون حلت محل الغسانيين، وستفيدنا في دراسة انتشار القبائل في سيناء بعد ذلك.

وقبل أن ننتقل إلى دراسة الهجرات التي دفع بها التوسع الإسلامي إلى الشام ومصر، والقبائل التي مرت بسيناء أو سكنتها منذ ذلك الوقت، لا بد لنا من الإشارة إلى أولئك (الرهبان المسيحيين) الذين سكنوا شبه الجزيرة في القرون المسيحية الأولى، والذين لا يزال يمثلهم أولئك الرهبان الذين يسكنون الآن في الوديان الجنوبية وبخاصة حول دير (سانت كاترين). وقد بدأت هجرات هؤلاء المسيحيين نتيجة لتلك الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون في القرون الأولى، وفرارًا من تلك المذابح التي يشير إليها (EUSEBIUS وDIONYSIUS)[6]. ثم اشتدت تلك الهجرات منذ أوائل القرن الرابع حين قويت الحركة الدينية وانتشرت الرهبنة في مصر، انتشارًا يقول عنه (ملن) إنه سبب متاعب كثيرة

---

(3) راجع: ابن خلدون، ج 2، ص 257.

(4) راجع: مبارك، ج 9، ص 20.

(5) راجع: الأصفهاني، ص 63-64، وراجع (ما كما يكل) في: H. A. MacMichael, *A History of the Arabs in the Sudan and Some Account of the People who Preceded them and of the Tribes Inhabiting Darfur* (Cambridge: Cambridge University Press, 1922), vol. 1, pp. 139-140.

(6) راجع: John Murray, *Handbook for Travellers in Syria and Palestine* (1875), p. 67, and Robinson, p. 127.

نظرًا لهذا العدد الكبير الذي انتظم في سلكها لأسباب قد يكون التقرب إلى الله آخرها[1]!!. فكثر عدد الرهبان في سيناء حتى زادوا على ستة آلاف راهب، وبدأنا منذئذ نسمع عن قسيس سيناء حين تأسست أول كنيسة في شبه الجزيرة على يد القديس (جوليان[2])[3].

والظاهر أن جنوب سيناء كان من المناطق التي يرغب الرهبان فيها كثيرًا، ويفضلونها على المناطق الصحراوية الأخرى التي تخلو من معابد الرهبان وأديرتهم، وقد يكون لارتباط هذه المنطقة بأسطورة خروج الإسرائيليين، ولرهبة المنطقة الجبلية دخل في هذا التفضيل، لكن العامل الأكبر إنما مرجعه إلى أن هذه المنطقة منطقة غنية نسبيًا بخضرتها ومائها، وفي استطاعة الرهبان إذًا أن يتفادوا جدب المناطق الأخرى وفقرها. وما دامت منطقة (فيران) هي أغنى المناطق الجنوبية كلها فقد كانت هي مركز الرهبنة منذ القرن الرابع، وكان بها رئيس ديني ومجلس ديني، وظلت كذلك صاحبة السيادة حتى نازعتها منطقة (سانت كاترين)، حين بنى الدير فيها ووجد الرهبان أن في إمكانهم أن يحموا أنفسهم بين جدرانه إذا هاجمهم البدو الذين كانوا مصدر خوف كبير[4]. على أن ذلك لم يبلغ أشده إلا حوالي القرن العاشر حين قوي نفوذ البدو بانتشار الإسلام.

وآثار الرهبان في جنوب سيناء تدل على أنهم استفادوا من المنطقة إلى أقصى جهدهم[5]، لكن لا شك في أن نشاط هؤلاء الرهبان في استغلال مناطق سكناهم في شبه الجزيرة قد عاقه وأضعفه هجوم البدو واعتداؤهم عليهم،

---

(1) Joseph G. Milne, *A History of Egypt, 5: Under the Roman Rule* (London: Methuen, 1924), pp. 155-157.

(2) القديس جوليان عاش جوليان سابا في زمن الامبراطور فالنس، متوحدًا في مغارة بجوار نهر الفرات وكان يأكل مرة واحدة في الأسبوع. بعد طرد أسقف انطاكيا (ميليتوس) طلب منه في العام 372م أن يأتي المدينة ويدحض الهرطقات. عاد إلى مغارته بعد انتهاء مهمّته وتوفي حوالى 377م. وينسب إليه الكثير من المعجزات (م).

(3) Palmer, *Sinai from the Fourth Egyptian Dynasty,* p. 128.

(4) ترجع غالبية الكتاب بناء الدير إلى (جستنيان) حين لجأ إليه الرهبان ليحميهم ضد غارات البدو فأمر ببناء دير لهم روعي في بنائه ان يكون على شكل حصن يتحصنون فيه، وأرسل لحمايته فريقًا من (الصربيين) يراهم غالب الكتّاب الحديثين أصل «الجبالية» الحاليين الذين يسكنون في كنف الرهبان ويعملون في خدمتهم إلى الآن.

(5) يمكن دراسة آثار الرهبان وبقايا سكنى المسيحيين في: Weill, p. 194, and Wilson and Palmer, pp. 196-x.

اعتداء كان يدعو إليه التباين الكبير بين فقر البدو وغنى الرهبان، وكثيرًا ما كان يأخذ شكل المذابح كما تنص على ذلك مخطوطات الدير. وإذا كان الرهبان قد شعروا بشيء من الطمأنينة أيام قوة الرومان حين انتشرت الكنائس المسيحية في بلاد العرب الصخرية في القرن الخامس الميلادي، وقام فيها كرسي ديني عرف بكرسي (فلسطين الثالثة: PALAESTINA TERTIA) امتدت فروعه إلى ايله وفاران وجبل سيناء وغيرها[1]، فإن تلك الفترة لم تطل، إذ ما لبثت قوة الروم أن ضعفت فرجعت القبائل البدوية إلى الغزو من جديد، وظهر الإسلام فاندفعت القبائل في حماسها وفقرها تهاجم الرهبان وتعتدي عليهم، الشيء الذي نقص بسببه عدد الرهبان، والذي اضطروا معه إلى أن يهجروا المناطق المتفرقة في سيناء ليعيشوا جميعًا متقاربين في حمى الدير يتحصنون ساعة الخطر بأسواره.. وسنراهم في القرون التالية يستعينون بقبائل من الحجاز يسكنونها أراضيهم ويؤجرونها لحمايتهم من اعتداء البدو، لكن ذلك كله كان علاجًا وقتيًا، وكثيرًا ما تشير مخطوطات الدير إلى أن الرهبان قد قفلوا الدير وهموا مرارًا بهجرته نهائيًا.

يأتي الإسلام سيناء وينزل على حدودها ويمتد إلى بعض نواحيها الشرقية قبائلٍ كهلانية من (غسان) و (لخم) و (جذام)، فلما امتدت الفتوحات الإسلامية شمالًا كان لا بد من أن يتفرق النصارى من أولئك العرب ومنهم غالبية غسان، فينزل جزء منهم (أرض الجفار) في شمال سيناء حتى كان منهم حكام (تنيس) نفسها: وقد ذكر بعض مؤرخي الفتح الإسلامي لمصر كيف أن الحصون على طريق الرمل الشمالي في سيناء «كرفح والعريش والورادة والبقارة» وغيرها قد سكنها قوم من هؤلاء العرب المتنصرة يؤدون المال للملك المقوقس، كما ذكروا أن النجدة التي أرسلها (عمر بن الخطاب) عبر وسط سيناء لمساعدة (عمرو بن العاص) «قد قابلت جمعًا هائلًا يقرب من ثلاثة آلاف سألوهم فاذا هم من عرب غسان ولخم وعامله، كانوا ببلاد الشام فلما ملك العرب وهزموا (هرقلا) طلبوا أرض مدين خوفًا من العرب وأقاموا بها...»[2]. و (الهمداني) الذي يكتب عن صفة جزيرة العرب، والذي ينقل عنه باقي الكتّاب الشرقيين والأجانب يتحدث عمن تشاءم من العرب فيرى «أن مساكن لخم متفرقة

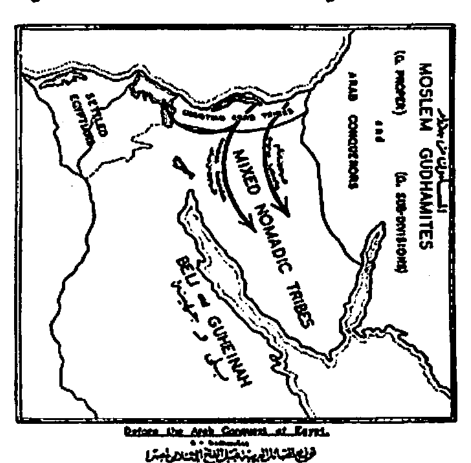
---

(1) راجع: Ritter, vol. 1, p. 7.

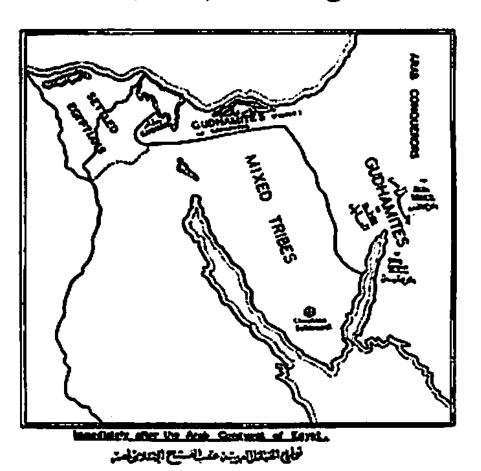
(2) راجع على سبيل المثال: أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، كتاب فتوح مصر والإسكندرية (ليدن: [د. ن.]، 1825)، ص 19، 63-66 و133-134.

وأكثرها بين الرملة ومصر في الجفار، كما يرى أن من حسمة بن جذام بطنًا يقال لهم (بنو جرى) ينزلون بالرمل...».

وإذا كانت القبائل العربية التي كانت تنتشر في شمال الحجاز قد لجأت بعض بطونها أولًا إلى نواحي سيناء الشرقية والشمالية، فأن امتلاك المسلمين لمصر، وتشجيع الولاة المتتابعين للقبائل على أن تنزح إليها، والفرصة المتسعة التي كانت للعربي في وادي النيل، كل ذلك لم يدع أمام تلك القبائل حاجة إلى أن تنزل مثل تلك الجهات الصحراوية المجدبة في سيناء، **وأصبحت سيناء طوال القرون الإسلامية الأولى طريق مرور فقط**، تعبرها القبائل بشكل لم تعهده في فترات التاريخ السابقة. وكان من الأسباب الهامة الدافعة إلى تدفق القبائل على مصر عبر شبه الجزيرة مجيء الوالي الجديد الذي كان يرافقه جيش يقرب من 20.000 مقاتل غالبيتهم من العرب وإن كانت منهم أقلية من الفرس والأتراك، والذي كان وجوده في الحكم مشجعًا للقبائل التي ينتمي إليها على أن تهاجر إلى مصر، كما يدل على ذلك تحليل القبائل المختلفة التي هبطت مصر في عهود الولاة المتتابعين[1]. كذلك كان من الطبيعي أن يكون للحوادث التي أسقطت بعض الدول الإسلامية وأقامت



Before the Arab Conquest of Egypt.



Immediately after the Arab Conquest of Egypt.

بعضها أثر في فرار بعض القبائل المهزومة إلى الولايات الإسلامية النائية ومنها مصر، كما حدث عندما حكم العباسيون إذ هبط كثير من الأمويين أرض مصر فرارًا من بني العباس.

(1) راجع: MacMichael, vol. 1, pp. 159-161.

كان من هذه القبائل المهاجرة ما يأتي مباشرة من بلاد الحجاز، ومن المعقول أن تتخذ هذه القبائل طريقها إلى مصر في مسالك سيناء الجنوبية والوسطى، إذ ليس هنالك ما يدعوها إلى أن تتخذ ذلك الطريق الطويل إلى الشمال لتسلك طريق الرمل في أرض الجفار.. وأمّا تلك القبائل التي كانت تهبط مصر آتية من بلاد الشام وصحراء سوريا فكانت تؤثر طريق الرمل الشمالي الذي رأيناه – في دراسة الطرق – الدرب المطروق بين مصر والشام منذ أيام قدماء المصريين.

وليس هناك ما يدعو إلى أن نتعرض بالتفصيل لهذه الهجرات المختلفة التي مرت بسيناء في القرون الإسلامية الأولى، بل يكفي أن نلخص الكلام عنها تلخيصًا يقف عند حد تبيان موجاتها، ما دام أنه لم يسكن شبه الجزيرة منها بطون تذكر، بل مرت كلها بسيناء مرًا... وفيما يلي ملخص لأهم تلك الهجرات، استخلصنا القليل منه من الكتابات المتفرقة في «صبح الأعشى ونهاية الأرب وقلائد العقيان»، لكن المرجع الرئيسي – سيما في الهجرات التي حدثت منذ أيام الأمويين حتى نهاية حكم الأيوبيين – إنما هو «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، كتبه المقريزي، وعثرت عليه الحملة الفرنسية فأخذت النسخة معها، ولخص (كاترمر) ما فيه، ثم أصبحت هذه الوثيقة عمدة الكتاب الأجانب عن القبائل العربية في مصر ينقلون عنه نقلًا يكاد يكون حرفيًا[1].

أيام الفتح الإسلامي وحكم الخلفاء الراشدين

الكتابات عن القبائل التي عبرت سيناء أيام الفتح الإسلامي متضاربة، ولعل ذلك راجع إلى أن أول من وصلت إلينا كتاباتهم هم مؤرخو القبط الذين كانوا يهتمون بتاريخ الأديرة، وإلى أن معظم الكتابات العربية الأولى قد ضاع، لكن يستخلص مما كتبه (القلقشندي) أن قبائل (جذام ولخم وبلي) وكثيرًا من القبائل القرشية كانت أبرز الهجرات التي عبرت سيناء مع الفتح الإسلامي[2].

---

(1) راجع: Etienne Quatermère, «Mémoire sur les Tribus Arabes établies en Egypte,» dans: Quatremère, *Mémoire Géographiques et Historiques*; MacMichael, *A History of the Arabs*, chap I, and Ferdinand Wustenfeld, *Register zu den genealogischen Tabellen der Arabischen stamme und familien.*

(2) راجع: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة: المطبعة الأميرية، 1914)، ص 329 – 333، جزء ثالث في «الكلام عن قواعد مصر المستقرة» عندما يتكلم عن «الفسطاط».

أيام الأمويين والعباسيين

الهجرات في عهد الأمويين والعباسيين معظمها قرشي من بني أمية وبني العباس، ويذكر الكتاب من الهجرات البارزة التي قطعت سيناء هجرة (قيس عيلان) عام 727 ميلادية، جاءت من أعالي نجد في ولاية هشام بن عبد الملك[1]، إذ نقل منهم نحوًا من 3000[2]، ثم كثر عددهم بعد ذلك، ومكّن لقيس في الحوف الشرقي حتى صاروا قوة لها خطرها هنالك... وهجرة (أولاد الكنز من ربيعة)، الذين كانوا ينزلون اليمامة أولًا، ودخلوا أرض مصر عبر سيناء أيام المتوكل على اللّه[3] حوالي عام 854 م في عدد كبير[4].

أيام الطولونيين

استمرت القبائل العربية تعبر سيناء في كثرة واستمرار من بلاد الحجاز ونجد منذ الفتح حتى أيام الطولونيين، لكنا ابتداءً من منتصف القرن التاسع الميلادي، نجد الخلفاء يرسلون إلى مصر تركا، ولم تعد مصر تحكم - إذا نحن استثنينا فترة الفاطميين - بالعرب بعد ذلك[5]، وبهذا نجد إن الهجرات العربية من بلاد الحجاز قد قل مجيئها إلى مصر عبر سيناء عما كان عليه، سيما

---

(1) هشام بن عبد الملك (الأموي القرشي) ولد في دمشق في 71هـ/ 691م، وتوفي في الرصافة في 125هـ/ 743م. عاشر خلفاء بني أمية. حكم من 105 إلى 125هـ (724 - 743م) وبلغت الدولة في أيامه أقصى اتّساعها. حارب البيزنطيين ووصل جيشه إلى بواتيه (فرنسا) وخسر موقعة بلاط الشهداء. بويع للخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بن عبد الملك. وحصلت في عهده فتنة عصبية بين المضرية واليمانية. واندلعت ثورة الخوارج وانتفض الإمام زيد بن علي بن الحسين في الكوفة. اهتمّ بتنظيم الدواوين وتعريبها، وترجمت في عهده الكثير من المؤلّفات وأنشأ المكتبات والمطابع ودور العلم، وأصلح الزراعة ونظام الري، واشتهر برعاية العمارة. خلفه الوليد بن يزيد بعد وفاته (م).

(2) راجع: أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، ص 64، وراجع المقريزي في الخطط في النسخة التي اعتنى بها المستشرق (Gaston Wiet) في الجزء الأول من القسم الثاني صفحة 335 في ذكر «نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشًا».

(3) المتوكل على اللّه (أبو الفضل جعفر بن المعتصم) ولد في 205هـ/ 822م، وتوفي في 248هـ/ 861م. هو الخليفة العباسي العاشر. تولى الخلافة، بعد أخيه الواثق. بويع له في 232هـ/ 847م، وجاء بعده ابنه المنتصر في 861م. تعصّب للمذهب الشافعي وأخرج أحمد بن حنبل من محنته، وأنهى فتنة المعتزلة (القول بخلق القرآن). بنى مدينة المتوكلية وشيّد المسجد الجامع المشهور بمئذنته الملوية في سامراء. ازداد نفوذ الأتراك في عهده. وأغار الروم على دمياط في سنة 238هـ. وتآمر جنود الأتراك عليه فقتلوه مع صديقه الفتح بن خاقان في 248هـ لمصلحة ابنه المنتصر الذي شهد عهده سلسلة طويلة من قتل الخلفاء وعزلهم (م).

(4) راجع: المقريزي، البيان والإعراب، ص 48.

(5) راجع: Stanley Lane-Poole, *A History of Egypt in the Middle Ages* (1921), p. 30.

وإن العناصر الجديدة من الحكام - كابن طولون - لم تكن تحابي العرب أو تقربهم، حتى رأينا قبائل كانت تسكن وادي النيل نفسه لا تتحمل حكم أحمد بن طولون فتفضل الابتعاد عن دائرة سلطانه بأن تهاجر إلى بلاد البربر وبلاد السودان[1].

أيام الفاطميين

استولى الفاطميون على مصر وبسطوا نفوذهم عليها وعلى سوريا في القرن العاشر، ورأوا في بعض القبائل العربية النازلة ببلاد الشام ما يخيفهم، ولم يجدوا وسيلة يأمنون بها جانبها ويستفيدون منها خيرًا من أن ينزلوها أرض مصر: فنرى الخليفة الفاطمي (العزيز أبو منصور) يدعو بطون (قيس من بني سليم وبني هلال) إلى أن يسكنوا مصر، كذلك يلمس الوزير (الناصر للدين أبي محمد اليازوري)[2] في منتصف القرن الحادي عشر قوة (سنبس) - إحدى بطون (طيء) التي كانت تسكن حول غزة في جنوب فلسطين، وتقلق بال الفاطميين - فيأتي بهم إلى مصر وينزلهم مديرية البحيرة في وادي النيل[3]. ولم تكن (سنبس) هي القبيلة الوحيدة التي اضطرها الفاطميون إلى أن تهجر بلاد الشام لتأتي إلى مصر عبر الطريق الشمالي في سيناء، بل أتت قبائل أخرى من (طيء) حتى زاد نفوذ هؤلاء العرب في مصر زيادة كبيرة في آخر أيام الفاطميين.

أيام الأيوبيين

وإذا كان الفاطميون قد اضطروا بعض بطون (طيء) إلى أن تترك بلاد الشام لتسكن مصر، فإن بطونًا كثيرة من طيء ظلت في بلاد الشام جنوب فلسطين، تمتد مضاربهم إلى حدود مصر (كجرم وثعلبة)[4]، وكانوا قوة انضمت

---

(1) راجع: MacMichael, vol. 1, p. 166.

(2) اليازوري، الناصر للدين (أبو محمد) ولد في يازور. وتولّى الوزارة في العهد الفاطمي سنة 442هـ/ 1050م. وفي عهده أخذ المغرب يتعرّب بعد نزوح قبائل بني هلال وبني سُليم وغيرهم من العرب. بقي الوزير اليازوري في منصبه حتى أمر المستنصر بالقبض عليه بتهمة أنّه يراسل السلاجقة ويشجّعهم على غزو مصر، وقطع رأسه وكان ذلك في عام 450هـ/ 1058م (م).

(3) راجع: المقريزي، البيان والإعراب، ص 24، و MacMichael, vol. 1, pp. 135-136.

(4) يعدد القلقشندي أفخاذا كثيرة من هذه القبائل في: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص 93-177.

إلى الفرنج ضد المسلمين، فلما انتصر صلاح الدين وأخذ بلاد الشام وفيها غزة، اضطر قبائل كثيرة من (ثعلبة) إلى أن تهاجر إلى مصر كما اضطر أفخاذا من (جرم) إلى أن تعبر سيناء ليسكنها الحوف الشرقي في مناشر جذام[1].

هذه هي الهجرات الرئيسة التي عبرت سيناء منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية حكم الأيوبيين في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، أما بعد ذلك التاريخ فإنا نجد المماليك البحرية يحكمون مصر، وبهذا يتم عزل العرب سياسيًا إذ لم يعد هنالك ما يدعو حكام مصر إلى أن يستعينوا بالقبائل العربية في الحكم حتى يشجعوا هجرتها إلى مصر... لقد كان نفوذ العرب آتيًا من قوتهم الحربية لكن الأتراك تفوقوا عليهم في هذا المجال فلم يعد هنالك إذًا ما يدعو إلى تشجيعهم على الهجرة إلى وادي النيل. والواقع أنه يمكن أن يقال إجمالًا أن بدء حكم المماليك كان بالنسبة للهجرات العربية إلى مصر فاصلًا بين فترتين: فترة سابقة كان الحكام فيها يرحبون بالقبائل العربية ويشجعون هجرتها إلى مصر فتعج بها طرق سيناء وتعظم أهمية شبه الجزيرة في مرور القبائل، وفترة لاحقة اشتدت وطأة الحكام فيها على تلك القبائل، شدة قابلها العرب في مصر بسلسلة من الثورات[2] لم ينجحوا فيها بل أخمدت تمامًا وآثرت بعض القبائل أن تترك مصر، فيلجأ عدد منها إلى الصحراوات المجاورة ويعبر عدد آخر سيناء راجعًا إلى فلسطين.

المهم أن مركز سيناء قد تغير ابتداء من القرن الرابع عشر، فقد رأيناها منذ الفتح الإسلامي مجرد قنطرة تعبرها القبائل المختلفة من بلاد الحجاز وأراضي الشام في طريقها إلى وادي النيل، لكنها منذ ذلك التاريخ أصبحت منطقة تلجأ إليها القبائل وتنزل فيها. وهذا المركز الجديد لسيناء يمكن أن نعزوه إلى العاملين الآتيين بوجه خاص:

الأول: ما وصلت إليه حالة العرب في وادي النيل تحت حكم المماليك من سوء لم يعد يرون معه ما يدعو إلى تفضيل مصر على الصحاري المجاورة:

---

(1) راجع: القلقشندي، نهاية الأرب، ص 165 و 176-177، والمقريزي، البيان والإعراب، ص 22-24.

(2) يمكن الرجوع في دراسة هذه الثورات إلى أخبار المماليك لا سيما في كتاب السلوك في أخبار دول الملوك للمقريزي، وهو مخطوط بدار الكتب طبع الأستاذ زيادة بعض أجزائه. وأهم تلك الثورات ثورة 1253 التي بدأت في الصعيد وانتشرت في الدلتا، وثورة 1299 التي انتهز العرب فيها فرصة هزيمة المغول للمماليك فثاروا.

فهم كانوا يجدون فيها مكمنًا يمكن أن يهاجموا المماليك إن شاءوا منه، وهم يستطيعون أن يغزوا الأراضي الزراعية وينهبون منها ما يريدون ثم يعودون بعد ذلك إلى تلك الصحراء آمنين بطش المماليك.

الثاني: هذه الأهمية الجديدة لسيناء التي أصبحت لها حين تحول طريق الحج إليها، ذلك التحول الذي رأيناه يتم في منتصف القرن الثالث عشر، حين ضعفت أهمية طريق الصحراء الشرقية إلى ميناء (عيذاب) ثم إلى موانئ الحجاز. ولقد أصبح لسيناء هذه الأهمية منذ حجت (شجرة الدر) بطريق الوسط وسيَّر فيه (الظاهر بيبرس) قافلة الحج عام (665هـ - 1267م)[1]. وهذه الأهمية الجديدة التي استمرت حتى قرب نهاية القرن الماضي كان من شأنها أن تجذب بعض القبائل العربية إلى العمل في نقل الحجاج، فقد كان يجد هؤلاء العرب ربحًا وفيرًا فيما يدفعه حكام مصر أجرًا لهم على حراسة القافلة والدركات، كما كانوا يجدون مجالًا متسعًا يشبعون فيه طبيعة النهب والسلب التي كانت تشتد إبان ضعف الحكام[2].

فإذا جئنا نوزع تلك القبائل التي نزلت سيناء منذ تلك الفترة، فالعوامل الجغرافية هي التي تحدد توزيعها وتعين أماكن نزولها في المناطق الآتية:

1- المنطقة الشمالية بين بلاد الشام ومصر، فهذا الجزء من سيناء أكثر جهات شبه الجزيرة مطرًا، وهو تبعًا لهذا غنى بالنبات سيما في الجهات الشرقية القريبة من فلسطين حيث يمكن أن يزرع شيء من الشعير وحيث يتوافر المرعى هناك نسبيًا. كذلك لا ننسى أن طريق الرمل الشمالي كان طريق التجارة والغزو بين مصر والشام، يستطيع أن يعمل البدو فيه في نقل المتاجر والاشتراك في الغزوات، كما أنه لم يكن هنالك ما يمنعهم من أن يعتدوا على تلك القوافل وهذه الحملات، وذلك عمل كان محببًا جدًا إليهم وكانوا يجنون من ورائه ربحًا كثيرًا.

2- مناطق مرور طريق الحج، الذي كانت تقسم دركاته، وتتولى كل قبيلة جزءًا من حماية الطريق وحراسة قافلة الحجاج، على أن هذا لا يمنع من أن

(1) راجع ما كتب في القسم السابق عن أهمية وسط سيناء كطريق للحجاج.

(2) يمكن أن يجد القارئ تفصيلًا تامًا عن الأرزاق التي كانت تدفع للبدو الذين يتولون حراسة طريق الحج، وأن يجد حوادث لا تحصى لنهب قوافل الحجاج وسلبها في كتاب درر الفرائد المنظمة الذي سبقت الإشارة إليه.

بعض القبائل كانت تتجاوز منطقة طريق الحج فتمتد مضاربها في وديان سيناء الجنوبية التي يكثر ماؤها ويتوافر فيها النبات بدرجة كبيرة. أما الهضبة الواقعة شمال طريق الحج فما كانت تغري هؤلاء البدو كثيرًا: إذ لم تكن هي طريقًا مطروقًا في التجارة والغزو كما أن الماء والحشائش فيها أقل كثيرًا مما يمكن أن يصادفه البدو في الشمال والجنوب.

ومعرفة توزيع القبائل في هذه الجهات من سيناء في ذلك الوقت البعيد أمر أساسي في معرفة أصول التوزيع الحالي وبيان مدى ارتباط ذلك التوزيع بما كان عليه في الماضي، وسيسهل بهذا أن نقف على ما حدث من تغيير لكن لن يسهل دائمًا فهم أسباب ذلك التغيير ودواعيه. والكتابات الموجودة تعتمد على ما كتبه (الحمداني) عن توزيع القبائل في مصر والشام، وهي كتابات لم نعثر على أصولها لكنا وجدناها متفرقة فيما كتبه الكتّاب بعد ذلك، أمثال (ابن فضل الله العمري[1] والقلقشندي وابن خلدون[2])[3]، وهي كتابات نراها متفقة اتفاقًا يكاد يكون تامًا على ذلك التوزيع، مما يرجح اعتمادها على مصدر واحد، ومما يدعو إلى الاكتفاء بذكر ما جاء في واحد منها، وليكن (القلقشندي) في كتابه (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) مثلًا.

والذي يرجع إلى هذه الكتابات يرى أن القبائل التي يشار إلى وجودها

---

(1) العمري، ابن فضل الله القرشي (أبو العباس شهاب الدين أحمد) ولد في دمشق سنة 700هـ/ 1301م وتوفي في القاهرة سنة 749هـ/ 1349م. مؤرخ وأديب. برع في الكتابة والعلوم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. تقلد رئاسة ديوان الإنشاء وأشرف على الكثير من الدراسات. اهتم بدراسة الجغرافيا السياسية وتواريخ الأمم وعجائبها، وكتب عن تاريخ ملوك المغول من عهد جنكيزخان إلى عصره، وكان حجة في معرفة خطوط الأقاليم والبلدان، وتجول في الشام وزار الحجاز والأناضول. من مؤلفاته «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، و«النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية» و«نفحة الروض» و«يقظة الساهر» و «الشتويات» و «الدائرة بين مكة والبلاد» (م).

(2) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الخضرمي) ولد في تونس 732هـ/ 1332م وتوفي في القاهرة 808هـ/ 1406م. تتلمذ في جامع القرويين ونهل من معارف الأبلي وابن مرزوق، وحفظ القرآن. ناظر علماء البلاط المريني في فاس. والتقى لسان الدين بن الخطيب في الأندلس. خدم الدولة المرينية في المغرب الأقصى. صاحب «المقدمة» ويلخص فيها نظرياته في الجغرافيا والفلك وأحوال البشر وطبائعهم. يعتبر مؤسس علم الاجتماع (العصبية وقوانين العمران وأطوار الدولة) وصاغ نظرية في «فلسفة التاريخ». من أشهر كتبه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وهو في تاريخ العرب والعجم والبربر(م).

(3) راجع: أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج 3، الباب 15؛ القلقشندي، نهاية الأرب، ص 63 وما بعدها، وابن خلدون، ج 2.

في شمال سيناء بين مصر والشام غالبيتها الكبرى بطون من (ثعلبة طيء) من القحطانيين، كانت تنزل «مشارق الديار المصرية ومغارب البلاد الشامية»، يجاورهم ناحية غزة إلى الجبل وبلد الخليل (بنو جرم) من طيء أيضًا، الذين نقل (صلاح الدين) أفخاذًا منهم إلى الديار المصرية. أما باقي القبائل التي ذُكرت في الشمال فهي قبائل قليلة لم يعرف الكتّاب نسبها لأن «الحمداني» فيما يذكرون لم يذكر لها نسبًا، وإن كان غيره قد رد بعض تلك القبائل إلى أصولها فكمّل بذلك ما تركه الحمداني ناقصًا.

وبطون (ثعلبة) التي ذكرها الحمداني ونقلها عنه كتّاب العرب في القرن الرابع عشر هي[1]:

آل عمران: بطن من ثعلبة طيء القحطانية، منازلهم مع قومهم ثعلبة مشارق الديار المصرية ومغارب البلاد الشامية.

الحبانيون: بطن من ثعلبة طيء القحطانية، منازلهم مع قومهم ثعلبة بأطراف مصر مما يلي الشام.

الصبيحيون: بطن من بني زريق من ثعلبة طيء، منازلهم مع قومهم ثعلبة بأطراف مصر مما يلي الشام.

السعديون: بطن من الصبيحيين من ثعلبة طيء، منازلهم مع قومهم ثعلبة بأطراف مصر مما يلي الشام.

الطليحيون: بطن من بني زريق من ثعلبة طيء، منازلهم مع قومهم ثعلبة بأطراف مصر مما يلي الشام.

العقيليون: بطن من بني زريق من ثعلبة طيء، منازلهم مع قومهم ثعلبة بأطراف مصر مما يلي الشام.

الغيوث: بطن من بني زريق من ثعلبة طيء، منازلهم مع قومهم ثعلبة بأطراف مصر مما يلي الشام.

وهذا التوزيع ليس في دقة ما ذكره (الهمداني) في توزيعه للقبائل التي

(1) اكتفينا في هذا بما ذكره القلقشندي في نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب وفي قلائد الجمان في معرفة قبائل العربان فهذا صورة مطابقة لما يكتبه الكتّاب الآخرون.

تشاءمت ونزلت بطون منها في شمال سيناء، فقد رأيناه يحدد مناطقها تحديدًا أتم مما ذكره (الحمداني) ومن نقل عنه، ولم يكتف كما اكتفى هؤلاء بأن يترك منازلها هكذا غامضة هذا الغموض الذي يحتار معه القارئ في تعيينها في تلك المسافة الطويلة من أرض الجفار بين مصر وبلاد الشام. والقبائل التالية هي التي ذكرها الكتّاب الذين نقلوا عن الحمداني دون أن يعرفوا أصولها، وإن كانوا قد حددوا منازلها تحديدًا أدق من منازل القبائل السابقة:

الأخارسة - يذكر الحمداني أن بطنًا منهم تنزل في (قطيا) بأرض الجفار ولم ينسبهم إلى قبيلة، لكن المقريزي في كتابه البيان والإعراب سماهم (الأغارسة) ونسبهم إلى ثعلبة[1].

بنو بياضة - بطن من العرب مساكنهم بقطيا أيضًا من مشارق الديار المصرية على الدرب الشامي، ينسبهم المقريزي إلى ثعلبة أيضًا لكن الهمداني ينسبهم إلى جذام[2].

بنو صدر - يذكر الحمداني أنهم بطن من العرب في «الصدرية» وهي على طريق البر من الشام إلى مصر، وقد ذكرهم المقريزي أيضًا ولم ينسبهم - كالحمداني - إلى أصل ما.

وظاهر من هذا التوزيع كله أن شمال سيناء كان من مساكن «ثعلبة» في القرن الرابع عشر، وهي القبائل التي قوي نفوذها في جنوب فلسطين منذ القرن العاشر بدرجة رأينا معها أن حكام مصر ولا سيّما صلاح الدين قد اضطروا إلى أن ينقلوا أفخاذا منها إلى وادي النيل. هذا في شمال سيناء أما في الجنوب فالكتابة عن القبائل التي نزلت هناك قليلة، والمرجع الوحيد الذي كان يفيد جدًا في هذه الناحية هو كتاب (درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة)، لكن الجزء الخاص بدراسة توزيع القبائل وبيان دركاتها على طريق الحج غير موجود، ولم تحتفظ كتب أخرى بما جاء فيه حتى كان يمكن الاستفادة منها[3].

---

(1) راجع: المقريزي، البيان والإعراب، ص 69.

(2) راجع: المصدر نفسه، ص 19، والهمداني، ج 1، ص 130.

(3) هذا الكتاب مخطوط لا يعرف مؤلفه ولا سنة تأليفه، لكن يغلب أنه ألّف حوالى القرن 14 إذ لا يمكن أن يسبق التاريخ الذي كان طريق الحج فيه عبر سيناء موجودًا. والجزء الأول منه مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية، أما الجزء الثاني الذي يقول المؤلف عنه في مقدمة الجزء الأول «انه يشمل في الباب الخامس منه منازل العربان» فغير موجود.

على أن الكتابات العربية قد تعرضت لذلك تعرضًا عامًا يمكن أن نخرج منه بهذا التوزيع التقريبي لقبائل سيناء التي كانت تسكن الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة:

بنوعائذ (العائذ) - بطن من جذام من القحطانية، يتفق الكتّاب على أن مساكنهم كانت ما بين «بلبيس وعقبة ايله»، ويذكرون جميعًا أن طريق مكّة فيما بين القاهرة والعقبة كان لهم[1].

بنو عقبة - بطن من جذام أيضًا، كانوا ينزلون حول خليج العقبة، كما كانوا يمتدون من شمال الحجاز إلى (الكرك) وكانوا يتولون الطريق فيما بعد العقبة[2].

قبائل سيناء التي هجرتها أو ضعف مركزها فيها:

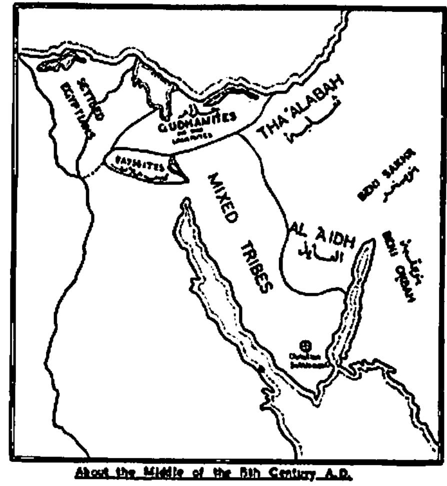
هنالك فترة تكاد تكون مظلمة في تاريخ سيناء، الكتابات فيها عن شبه الجزيرة - سيما في ناحية القبائل وتوزيعها - كتابة ضئيلة لا تغني، والمعلومات فيها عن حركات القبائل ودوافع هجرتها إلى نواحي سيناء وتنقّلها فيها تعتمد غالبًا على الاستنتاج، تلك هي الفترة الواقعة بين القرن الرابع عشر ومنتصف القرن الثامن عشر، مع أن هذه هي الفترة التي سكنت سيناء معظم قبائلها الحالية، وهي في الوقت ذاته فترة صراع القبائل المختلفة بين بعضها وبعض من جهة، وبينها وبين طبيعة شبه الجزيرة من جهة أخرى، صراعًا أدى في النهاية إلى التوزيع الذي نراه الآن: فالعرف بين عرب سيناء يجري بأن شبه الجزيرة قد شهدت تغييرًا ملموسًا في قبائلها في هذه القرون القليلة، والسكان يجمعون على أن تبدلًا كبيرًا قد طرأ على القبائل هناك فغيّر من الأهمية النسبية للقبائل المختلفة، من حيث قوّتها العددية، ومن حيث اتّساع نفوذها أو انحلاله. وفي الإمكان أن نرجع كل هذا التغيير وذلك الصراع بين القبائل إلى عاملين رئيسيين:

الأول - أن عظم أهمية سيناء في المرور، ومركزها كطريق رئيسي لنقل المتاجر بين مصر والشام، وتحول طريق الحج إليها بين مصر وبلاد المغرب من جهة وبين الأراضي المقدّسة من جهة أخرى، وما كان لبعض طرقها من أهمية خاصة بصفتها الطرق المؤدية إلى أراضي سيناء الجنوبية التي تقدّسها بعض الطوائف المسيحية وتحج إليها كل عام، كل هذا قد أغرى بعض القبائل في مصر والحجاز والشام على أن تهاجر إليها لتتولى فيها عملية النقل وحراسة

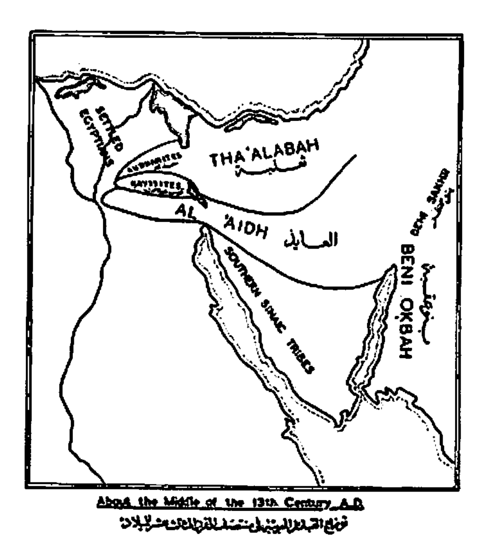
---

(1) تراجع الكتب التي سبق أن أشرنا إليها كمسالك الأبصار وابن خلدون. ويمكن ان نأخذ على سبيل المثل ما كتب في صفحة 257 من كتاب نهاية الأرب السابق أو في صفحة 69 من كتاب البيان والإعراب.

(2) راجع في الكتب السابقة الكلام عن (بني عقبة).



About the Middle of the 8th Century A.D.



About the Middle of the 13th Century A.D.

الطرق في النواحي المختلفة لشبه الجزيرة ولتقوم بتقديم الإبل اللازمة للتجار والمسافرين. وتلك كانت حرفة رابحة جدًا، إذ كانت الحكومة المصرية تدفع للقبائل مبالغ طائلة مقابل حراستها لدركات طريق الحج المختلفة وحماية قوافل الحجاج، وكان البدو يتحكمون في أجور النقل ويغالون فيها مطمئنين إلى أن التاجر أو المسافر مضطر إلى استخدامهم ما دامت مناطق شبه الجزيرة مقسمة بين القبائل المختلفة لا يسمح لقبيلة بأن تتجاوز حدود منطقتها، مما يجعل المنافسة وما قد تؤدي إليه من تخفيض في أجور النقل أمرًا يكاد يكون معدومًا. يضاف إلى ذلك تلك المغانم العظيمة التي كان البدو يخرجون بها من نهب القوافل والمسافرين، وقد كان ذلك أمرًا عاديًا في تلك المنطقة التي لا يمكن أن يقال إنه كان للحكام عليها سلطان يذكر، والتي كانت عمليات النهب فيها تتم بشكل منظم مريع[1]. مثل هذه المكاسب كانت دافعًا إلى تطاحن القبائل في سيناء وتقاتلها، وكانت سببًا رئيسيًا في إضعاف بعض القبائل بعد قوتها وإحلال قبائل جديدة مكان تلك القبائل التي لم تستطع أن تصمد أمام الموجات التي غزت أرضها، وكان أمام تلك القبائل المغلوبة إحدى طريقتين: فإما أن تهاجر من البلاد كلية تتلمس المعيشة خارج سيناء في مصر

(1) يمكن أن نتلمس نفوذ البدو هذا في الكتابات السابقة لمحمد علي، مع ملاحظة أنه كثيرًا ما كان نفوذ البدو وسلطانهم مما يحول دون زيارة بعض الرحالة لجهات سيناء.

يراجع بوجه خاص: Pocoke, *A Description of the East*, and C. F. Volney, *Travels Through Syria and Egypt in the Years 1783, 1784 and 1785*, 2 vols. (1782).

أو في الشام، وإما أن تستمر بعض عشائرها تسكن شبه الجزيرة في كنف القبائل المغيرة محتفظة بشيء من ذاتيتها أو متلاشية تمامًا فيها.

الثاني – وهذا العامل يأتي طبيعيًا لاحقًا للعامل الأول ومتأخرًا عنه – أنه حينما فقدت سيناء هذه الناحية من أهميّتها فتحول طريق الحج عنها وقلّت زيارات المسيحيين لها، وحينما أضعف «محمد علي» سلطة البدو وتحكمهم في طرق سيناء المختلفة؛ بأن حدد أجور النقل فلم يتركها لجشع البدو يغالون فيها كما يشاءون، وأشرك الفلاحين المصريين في حق التمتع بنقل البضائع والمسافرين مع عربان سيناء فأوجد لهم بذلك عنصرًا منافسًا، وحين أخذ بالشدة اللصوص منهم والناهبين، وضمن حفظ الأمن في طرق سيناء بأن أغرى مشايخ القبائل، فأسكنهم مصر واتخذهم بهذا شبه رهائن يستخلص بواسطتهم حقوق رعاياه كلّما اعتدى عليهم البدو[1]. كل هذا قلّل من أهمية سيناء في نظر بعض القبائل وأضاع الجانب الأكبر من نواحي جاذبيتها، إذ لم يعد فيها ما يغري القبائل بسكناها. ومن هنا بدأت بعض القبائل، تؤثر هجرتها هجرة نهائية لم ترجع بعدها إليها، أو تحتفظ بنخيلها فيها فما تأتي إليها إلا وقت الحصاد لتجمع الثمر ثم تعود راجعة، كما أصبحت نفس القبائل التي تسكنها تعتبرها مساكن مؤقتة لها، تنزلها في أشهر المطر وتقضي معظم الأيام خارجها، تتلمس القوت لها ولحيواناتها في أرض مصر أو الشام، لأن طبيعة سيناء قاسية، وموارد الإنتاج فيها محدودة لا تسد في شكلها الحالي حاجة سكانها بحال من الأحوال.

ومن الصعب أن نحدد تأثير هذين العاملين تحديدًا دقيقًا: من جهة لانعدام تسلسل الكتابات عن سيناء في تلك الفترة، ومن جهة أخرى لأن ذلك التأثير لم يحدث فجأة وإنما أخذ مجراه بطيئًا وبالتدريج. وفيما يلي ملخص لما استطعنا أن نستخلصه من الكتابات المختلفة، وما يجري به عرف البدو بشأن تغير مركز بعض قبائل سيناء، إما بالهجرة من شبه الجزيرة نهائيًا، وإما بتغيير مناطق سكناها أو ضعف قوّتها بالنسبة للقبائل الأخرى. وسيكون من السهل أن نتلمس أسباب ذلك في أحد العاملين اللذين اعتبرناهما أساس كل ما طرأ على مركز القبائل في سيناء في تلك الفترة من تغيير.

---

(1) تراجع جهود محمد علي في القضاء على سلطة البدو، وموقفه منهم في كتابات الرحالة الذين كتبوا عن عهده وفي المراجع الخاصة بتاريخ عصره، ونوجه النظر في ذلك الاتجاه بوجه خاص إلى رحلة بركهاردت: Burckhardt, vol. 1. p. 459.

وإلى لمحة في تاريخ مصر لكلوت بك (الأصل الفرنسي أو الترجمة العربية لمحمد مسعود).

لائحة بالقبائل وتوزعها

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
	أولًا: في الجنوب	
التبنة و المواطرة	- في كتابات الدير إشارات إليهما ترجع إلى أواخر القرن السادس عشر، ولعلهما من القبائل التي استعان الرهبان بها أولًا على حماية أنفسهم ضد القبائل الأخرى، ثم جاءت قبائل بعدهما أقوى منهما فقضت على نفوذهما وأضعفتهما إضعافًا تامًا. وكان التبنة من سكان «فيران» الأصليين، وذلك طبيعي ما دام هذا الوادي هو أغنى جهات سيناء الجنوبية تطمع القبائل المختلفة في سكناه.	- لا يزال بقايا التبنة يزرعون في وادي فيران إلى اليوم لحساب (الصوالحة)[1]. - تسكن العائلات القليلة الباقية من المواطرة في حديقة الحمام قرب مدينة الطور.
الحماضة	- من القبائل القديمة في جنوب سيناء، سكنوا البلاد في وادي فيران أغنى المناطق في الجنوب، واقتسموه مع (بني واصل)، ثم حدثت حروب بينهم أضعفتهم مكنت القبائل الأخرى كالصوالحة والعليجات من أن تغلبهم وتسكن أراضيهم.	- كان من نتيجة هذه الحروب المتتالية أن أصبح عدد هذه القبائل قليلًا لا يتجاوز الأربعين بيتًا تعيش الآن في حمى (العليجات)[2].

(1) يعتبر بيدنل إن التبنة قسم من أقسام (الجبالية) الذين يقومون منذ قرون بخدمة الدير، وأصل الجبالية موضع خلاف سنناقشه في موضعه فلا داعي للتعليق على رأي بيدنل هذا الآن:.H. Y. L. Beadnell, *The Wilderness of Sinai* (1927), p. 12.

(2) يراجع في هذا كله ما كتبه نعيم بك شقير في: شقير، ص ١٠٧، وهو كلام لا يختلف عما يجري العرف به بين عرب سيناء.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
بنو واصل	- يشار إلى تلك القبيلة في بعض الكتابات الموجودة بالدير منذ أواخر القرن السادس عشر، ويغلب أنهم من بطون (بني عقبة) التي أتت من شمال الحجاز أو من شرقي مصر، فالمعروف أن بني واصل هؤلاء كانوا يسكنون في القرن الرابع عشر للميلاد في «أجأ وسلمى جبلي طيء»، كما كانوا يسكنون مع جذام في شرقي الديار المصرية[1]. وكانوا يقتسمون البلاد مع (الحماضة) فيسكنون هم في الجنوب حتى وادي فيران، ويسكن الحماضة وادي فيران وما إلى شماله حتى التيه، ثم تضعفهم الحروب لخلاف بينهم على نقل الحجاج إلى الدير، مما يسهل على الصوالحة والعليجات الاستيلاء على أرضهم.	- يسكن بنو واصل الآن في حمى الصوالحة، في قبائل صغيرة تنزل بين مساكن (مزينة) حول (الشرم) وعلى طول الساحل الغربي لخليج العقبة... وفي الوجه القبلي قبائل من بني واصل تسكن مديرية أسيوط، بينها وبين قبائل سيناء صلات في النسب يجري العرف بها[2].

(1) يراجع في ذلك: القلقشندي، نهاية الأرب، ص 357، ويحسن الإشارة هنا إلى أن ما ذهب إليه رتر - ونقل عنه بيدنل - من ارجاع اصول بني واصل إلى البربر ليس هنالك دليل يسنده، بل هو قول يرجح استبعاده، إذ أن نسبتهم إلى بني عقبة أقرب إلى الصحة لأن منازل بني عقبة تقع حول خليج العقبة ومساكن بني واصل الآن تقع في الجانب الشرقي لجنوب شبه الجزيرة. انظر: Ritter, vol. 1, p. 392, and Beadnell, p. 11.

(2) يراجع تقرير ماجور براملي المحفوظ بمصلحة الحدود بوزارة الحربية المصرية عن القبائل العربية في وادي النيل، ص 23.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
بنو سليمان	- تفتخر هذه القبيلة دائمًا بأنها القبيلة الأصلية في سيناء، ويعتبرها الكتّاب المختلفون من أقدم قبائل سيناء الجنوبية، سكنتها منذ حوالي الفتح الإسلامي في القرن السابع والثامن للميلاد في رأي (رتر وبركهاردت)، وإن كان بعض الكتّاب يرجّح أنها سكنت شبه الجزيرة مع (بني واصل) في القرن السادس عشر[1]. ولا يبعد أن يكون جزء من بني سليمان قد سكنوا شبه الجزيرة مع الفتح الإسلامي ثم تكاثرت هجرات هذه القبيلة إلى سيناء بعد ذلك. ولقد قاسى أولاد سليمان من غارات الصوالحة والعليجات عليهم، وكثيرًا ما اشتبكوا في حروب معهم انتهت بتغلب (الصوالحة والعليجات). والراجح أن بني سليمان من عرب الحجاز وأنهم بطن من بني عطية... والذين يعتبرونهم من البربر يعتمدون في هذا على أن (بني سليمان) من القبائل المغربية الكبيرة، وأن لها نفوذًا كبيرًا في «بني غازي» حيث يتمتعون بامتيازات هامة[2]. لكن ليس هنالك ما يحدد مقدار الصلة بين أولاد سليمان الذين ينزلون سيناء وبين بني سليمان الذين يسكنون حول بني غازي في بلاد المغرب.	- ضعف نفوذ بني سليمان في سيناء، فهاجرت غالبيتهم إلى مديرية الشرقية بعد أن ضاق العيش بهم، والقبائل القليلة الباقية منهم في سيناء مركزة الآن في عدة عائلات صغيرة تسكن حول الطور منذ منتصف القرن الثامن عشر، وإذا كان (بوكوك) قد ذكر بطونًا من بني سليمان تنزل حول السويس، فلعل هذه كانت بقية من بقاياها سكنت حول السويس، على حين هاجرت الغالبية الكبرى إلى مديرية الشرقية[3].

(1) راجع: شقير، ص 109؛ بركهاردت في رحلته عام 1816 في الجزء الخاص ببدو سيناء:
Burckhardt, vol. 1, pp. 557 - 565, and Ritter, vol. 1, p. 392.

(2) راجع: Pococke, p. 137.

(3) يراجع في ذلك تقرير (براملي) عن القبائل العربية في مصر الذي كتبه عام 1920 والمحفوظ بمصلحة الحدود، ص 15، ويراجع معه كذلك الوثائق المحفوظة بسجلات هذه المصلحة عن توزيع القبائل العربية في مصر وعدد كل قبيلة منها اجابة على خطاب وزارة الحربية الدوري الى المديريات في حزيران / يونيو 1929.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
النفيعات	- قبائل لا يعرف أصلها على وجه التحقيق، وإن كان البدو - فيما يروي نعيم بك شقير عنهم - يرجعونها إلى (نافع ابن مروان) من بطون ثعلبة طيء من نجد الحجاز[1]. أتى ذكرها في شبه الجزيرة في أواخر القرن السادس عشر حين دخلت سيناء مع الصوالحة، وكانت عاملًا في إضعاف القبائل السابقة، فاقتسمت البلاد مع الصوالحة الذين كانوا أشد منهم بأسًا فاستطاعوا أن يتغلبوا عليهم، وما تمكنت النفيعات من أن تقف أمام الصوالحة إلا حين أتتهم قبائل (العليجات) من الحجاز فحالفتهم ضد الصوالحة، ثم ظهر العليجات على النفيعات، ففضل هؤلاء الأخيرون أن يهجروا سيناء ليسكنوا مصر تاركين جزءًا منهم يعيش متفرقاً في أنحاء شبه الجزيرة.	- ظل للنفيعات بقايا في سيناء أهمهم (السواعدة)، ولا يزال لهم إلى اليوم أراض يمتلكونها في وادي فيران ونصب وقطيه والذين هجروا سيناء من النفيعات يسكن معظمهم الآن مديرية الشرقية، وقسم من النفيعات يكونون عرب منطقة «طره» الحاليين[2].

(1) يراجع: شقير، ص 110.

(2) يراجع تقرير براملي السابق، ص 29، والوثائق الأخرى التي جمعتها وزارة الحربية عن القبائل العربية في يونيه 1929.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
الربابين و الصبايحة[1]	- ينفرد (بركهاردت) بالإشارة إلى هاتين القبيلتين فقد استطاع - فيما يذكر - أن يحصل من المخطوطات العربية المحفوظة في دير سانت كاترين، والمكتوبة في أوائل القرن الثامن عشر، على أن هاتين القبيلتين كانتا ضمن حرس الدير، والأولى من أفخاذ جهينة المعروفة في الحجاز ومنهم من كان يسكن قرب «المويلح» عند زيارته لسيناء، كما أن منهم من كان يسكن حول الطور، يحرسون أملاك الدير ويشتغلون أدلة للسفن... أما أولئك (الصبايحة) فيذكر أنهم كانوا في أيامه قبائل صغيرة تسكن شرقي العقبة بين مساكن عرب (العمران)[2]...	- ليس هناك وجود الآن للقبيلة الأولى لا في سيناء ولا في الأراضي المصرية، ولا يبعد أن تكون قد مثلتها قبائل أخرى قوية أتت بعدها، أما الصبايحة فإن أخذنا بأنها تحريف «للصفايحة» فتسكن الآن غربي التيه في سيناء، من جبيل حسن إلى بئر مبعوق، وأهم مراكزها جبل المغارة والجفجافة وبئر الخصيب وعين صدر.

(1) يغلب أن يكون اسم (الصبايحة) تحريفًا لكلمة (الصفايحة) الذين هم بطن من عرب (الحيوات) سيما وأن بركهاردت يذكرها مع هذه القبيلة بالذات.

(2) يراجع بركهاردت في رحلته 1816: Burckhardt, vol. 1, p. 594.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
	ثانيًا: في الوسط، على طريق درب الحج	
عرب العائذ أو (بنو عائذ)	- يشير (الحمداني) والكتب التي اعتمدت عليه في توزيع منازل العرب ومساكنهم إلى أن عرب (العائذ) بطون من جذام، كانت مساكنها بين «بلبيس والعقبة»، تتولّى فيها دركات طريق الحج حتى يتسلمها منها عرب (بني عقبة) الذين كانوا يتولون دركاته بين «العقبة والدام» في شمال الحجاز[1]. وما دامت الكتابات منذ القرن الرابع عشر للميلاد تشير إلى حقهم هذا، فهم إذًا أولى القبائل العربية التي تولّت حراسة طريق الحج الذي ترجع أهميته في وسط سيناء إلى ما يقرب من ذلك التاريخ.	- يفرق (نعيم بك شقير) وحده بين عرب العائذ والعيايدة ويعتبرها قبائل منفصلة[2]، في حين أن جميع الكتابات عن قبائل العربان في مصر تأخذ اسم (العيايدة) وتضم (العائد) تحته. والعيايدة هؤلاء يوزعون في وادي النيل الآن حسب الإحصائيات الأخيرة في جهات حلوان (305 أشخاص) وفي مديرية القليوبية (8100) وفي الجيزة (5036)، ويسكن في مديرية الشرقية والدقهلية من العيايدة الشرقيين حوالي 2000 نفسٍ[3].

(1) يراجع ما كتب في هذا الفصل عن عرب العائذ.

(2) يراجع: شقير، ص 108-110.

(3) يراجع تقرير براملي السابق، ص 25، والمعلومات التي جمعتها وزارة الحربية في 1929 في الاجزاء المكتوبة عن عرب ضواحي القاهرة ومديريات القليوبية والشرقية والدقهلية والجيزة.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
	ثم طمع بنو عقبة – وإليهم ينسب (بنو عطية) الذين أكثروا الغارة على الجزء القريب منهم من درب الحج – في دركات (العائذ) فاستولوا منها على الجزء الواقع حول العقبة، وفيه نقب العقبة نفسه مدفوعين إلى هذا بالأرباح الطائلة التي كان يجنيها البدو من الحجاج، «ولما لم يستطع أمير العائذ أن يدفع شرهم وكل إليهم أمر ذلك الجزء من الطريق وأعطاهم في نظير ذلك مبالغ من المال سنويًا»[1]... ثم أخذ سلطان (بني عطية) يتسع على طريق الحج حتى رأيناهم سادة (نخل) نفسها، وأصبح عرب العائذ يقومون بحماية الطريق حتى هذه النقطة ثم يرجعون هم ليتولى عرب (بني عطية) حراسة باقي الطريق إلى الحجاز[2]...	أما في شبه جزيرة سيناء فمساكنهم الحالية حول الإسماعيلية وإلى الشرق منها، ممتدة من ضواحي القنطرة في منطقة الرمال الشمالية حتى (قطية).

(1) راجع: مبارك، ج 9، ص 20.

(2) راجع: المصدر نفسه، ج 14، ص 9.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
	والظاهر أن عرب (العائذ) لم يكونوا يتخذون شبه الجزيرة مساكن لهم، بل كانوا يقومون بعملية نقل الحجاج وحراستهم فقط، وكانت مساكنهم الحقيقية في شرقي الدلتا من أراضي وادي النيل، فلما فقدت سيناء أهميتها كطريق لمرور الحجاج، فضل عرب العائذ أن يستوطنوا وادي النيل عن أن يسكنوا تلك المناطق المجدبة في سيناء، لكن ذلك لا يمنع من أن تكون أفخاذ من العائذ قد ظل لها بعض أملاك في نواحي سيناء المختلفة تضاءلت شيئًا فشيئًا أمام قوة القبائل الأخرى[1]...	

(1) راجع في هذا الفصل توضيح ذلك.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
بنو عطية	- هذه فروع من (بني عقبة) من (جذام)، رأيناها منذ التوسع الإسلامي، وفي كتابات القرن الرابع عشر للميلاد تنزل حول خليج العقبة، وتسكن برية الحجاز ممتدة شمالًا إلى (الكرك)[1]... وهذه القبائل هي التي مرّ أنها أخذت جزءًا من دركات عرب العائذ في طريق درب الحج حتى صارت لها سيادة الطريق من شمال الحجاز إلى نخل. وقد تغير توزيع قبائل بني عطية هؤلاء: فكان نقب العقبة أولًا لفروع «الوحيدات والمساعيد والرتيمات والترابين»، أما المَناخ نفسه - وكان يسمى الحمام - المحصور بين النقب والبحر فكان لطائفة من بني شاكر يعرفون «بالمراشدة» يشاركهم فيه فرع من بني عطية الكرك يعرفون «بالكعابنة»... فإذا كان منتصف القرن السادس عشر أصبحت السيادة لبطون أخرى من بني عطية يغلب عليها اسم (الحويطات)[2]، تضم تحتها عرب «الحويطات والعمران والعلويين»[3].	- يغلب أن تكون بطون قبائل بني عطية الأولى قد تفرقت في منطقة (العرابة) أو سارت شمالًا إلى بلاد الشام. «فروبنسن» مثلًا يذكر عن (بني راشد) أن معظمهم يسكن حول الشوبك، لكن في زيارته عام 1867 قيل له إنهم ينزلون في إقليم الكرك[4]... وهنالك عائلات من «الوحيدات» تسكن حول غزة، وكانت «الرتيمات» تنزل حتى أوائل القرن 19 شرقي بلاد العريش فطردهم الترابين منها فهاجروا إلى غزة وسكنوا حولها، أما «المساعيد» فتضعهم خريطة توزيع القبائل المرفقة بكتاب (هينس) شرقي خليج العقبة أمام ميناء (دهب) من ناحية الحجاز[5].

(1) راجع ما كتب في هذا الفصل خاصاً ببني عقبة.

(2) يذهب علي باشا مبارك إلى أن هذه البطون أخذت اسم الحويطات (مما بنته من بعض الحيطان على النخل): مبارك، ج 8، ص 107، لكن (مري) ينسبهم إلى (حويط بن سام) راجع: G. W. Murray, *The Sons of Ishmael* (1935), p. 245.

(3) راجع: مبارك، ج 14، ص10-12، في باب العرب الذين يتولون دركات طريق الحج.

(4) راجع: Robinson, vol. 2, p. 155.

(5) تراجع الخريطة المواجهة في: Alfred E. Haynes, *Man-Hunting in the Desert: Being a Narrative of the Palmer Search-Expedition, 1882 - 1883* (1894), p. 207.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
	وهذه هي القبائل التي نصادفها في كتابة الكتّاب المختلفين منذ القرن الثامن عشر صاحبة السيادة في تلك المنطقة[1]...	أما قبائل بني عطية الجديدة - الحويطات والعمران والعلويين - فلا تزال في مناطقها حول رأس خليج العقبة وإن كان تعديل الحدود الشرقية لشبه جزيرة سيناء قد أخرج هذه القبائل كلها من عربان سيناء، وأصبحنا لا نصادف هذه القبائل في شبه الجزيرة إلا في تلك الغارات التي اشتهرت بها، والتي لم يوقفها تمامًا إلا إنشاء الخط الحربي على الحدود الشرقية عام 1925 وتجهيز سيناء بالسيارات المسلحة[2]...

(1) يمكن الرجوع في هذا إلى: Burckhardt, vol. 1, pp. 507-512; Ritter, vol. 1, pp. 407-411, and Robinson, vol. 2, pp. 155-158.

(2) يراجع: Jarvis, pp. 80-82.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
	ثالثًا: في الشمال	
اللخميون و الجذاميون	- اعتبر (الهمداني)، وهو يتكلم عمن تشاءم من القبائل العربية، أن مساكن (لخم وجذام) كانت متفرقة، وأن أكثرها كان بين «الرملة ومصر» في شمال سيناء من أرض الجفار... وذكر في توزيعه لبطون هذه القبائل أن (بني جرى) من جذام تنزل بالرمل من «الفرما» ومعها (بلى) وأن (بني بياضة) من جذام و (بني راشدة) من لخم ينزلان «بالبقارة والورادة والعريش على الطريق من مصر والشام»[1]. وبهذا يعتبر هذا الكاتب أن شمال سيناء كله مساكن للخميين والجذاميين، لا يذكر معهم بطونًا أو أفخاذًا لقبائل عربية أخرى.	- يغلب أن هذه القبائل اللخمية والجذامية، قد بدأ يحل محلها بطون (ثعلبة) منذ حوالي القرن العاشر الميلادي وما بعده، حين قويت ثعلبة في جنوب الشام قوة أشرنا إليها في موضع سابق[2]. وكان من تأثيرها أن تركت بطون لخم وجذام شمال سيناء لها، وهاجرت هي إلى مصر أو الشام، واستطاعت ثعلبة أن تمثل الفلول الباقية من تلك القبائل، حتى رأينا (المقريزي) - وهو من كتّاب القرن الرابع عشر - ينسب (بني بياضة) إلى ثعلبة مع أن الهمداني[3] ينسبهم صراحة إلى جذام. ثم حل ببطون ثعلبة نفسها ما حل بالقبائل السابقة، فأصبحنا لا نجد لمعظم بطونها وجودًا في كتب الرحالة المتأخرين، مما يدل على أن هجرات أخرى قد أغارت على شمالي سيناء وسكنتها، واضطرت قبائل ثعلبة إلى أن تترك هذه الجهات إلى مصر أو الشام، وأن تتلاشى معظم الأفخاذ الباقية في شخصية القبائل القوية التي أغارت عليها وحلت محلها.

(1) راجع ما كتبه الهمداني في: صفة جزيرة العرب، ج 1، ص 129-131، وما كتب في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(2) راجع ما كتب في هذا الفصل عن ذلك.

(3) راجع ما كتب في هذا الكتاب.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
ثعلبة طي	- إن كتّاب القرن الرابع عشر وما بعده، الذين يعتمدون اعتمادًا كليًا على ما كتبه (الحمداني) يعتبرون شمال سيناء كله مساكن لبطون من ثعلبة، يعدون منها «آل عمران والحبانيين والصبحيين والسعديين والطليحيين والعقيليين والغيوث»[1]، لا يسكن معها إلا بعض قبائل أخرى «كالأخارشة وبنو بياضة» في (قطية) «وبنو صدر» في (الصدرية على طريق البر بين مصر والشام)، وهذه القبائل الأخيرة يختلفون في نسبها: فيرجعها بعض الكتّاب إلى «جذام» ويعتبرها كتّاب آخرون قبائل من بطون ثعلبة أيضًا[2].	على أننا لا نعدم وجود بعض قبائل قليلة من لخم وجذام وبطون ثعلبة، استطاعت أن تحافظ على كيانها وأن تظل حتى الآن ممثلة في القبائل النازلة في شمال سيناء حتى اليوم: وهذه هي بلى وبنو بياضة والعقيليون والسعديون، يسكنون في شمال سيناء في منطقة الزقبة وقطية ويمتدون إلى قناة السويس، وسنشير إلى مناطق سكناها بالتفصيل حين يأتي دور الكلام على توزيع قبائل سيناء الآن.

(1) راجع: المقريزي، البيان والإعراب، ص19، والهمداني، ج 1، ص 130.

(2) راجع على سبيل المثال ما كتبه القلقشندي في نهاية الأرب أو في قلائد العقيان وما كتب في هذا الكتاب عن ذلك. [هكذا وردت في الأصل. الصحيح قلائد الجُمان (م)].

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
السواركة	- سكنت هذه القبيلة سيناء في فترة غير معروفة تمامًا، لكن لا شك في أن ذلك إنما أتى في فترة متأخرة عن القرن الرابع عشر إذ لم يأت لها ذكر في كتابات ذلك القرن. وقد استطاعت هذه القبيلة أن تمد سلطانها لا على منطقة الرمل في شمال سيناء فقط بل امتدت أراضيها في هضبة التيه نفسها، حتى لنجد علماء الحملة الفرنسية يذكرون أن هذه القبيلة تسكن الصحراء نفسها حتى جبل الطور[1]... أي أن أراضيها كانت تتسع فتشمل غالبية أراضي «التياها والترابين» الحالية، إذ يذكر كتّاب الحملة أنهم كانوا ينزلون في مناطق محدودة جدًّا في شبه جزيرة سيناء، فما تتجاوز أراضي (الترابين) في توزيعهم «المنطقة الصحراوية بين القاهرة ووادي غرنديل، وإن كانوا ينتشرون حول غزة»، وكان (التياها) - الذين سموهم التهيانية - يسكنون «حول خان يونس، يتبعون غزة، وإن كانوا يقومون برحلات كثيرة إلى مصر»[2].	كان من نتيجة هذا الاتّساع في أراضي التياها والترابين أن أصبحت منطقة السواركة في سيناء منطقة محدودة تكاد تنحصر بين حدود سيناء الشرقية وبين بئر العبد شرقًا وغربًا وبين رجم القبلين والبحر الأبيض شمالًا وجنوبًا. وسنرى حين ندرس توزيع القبائل الحالية في سيناء أن (السواركة) سوف تضيع منهم المنطقة بين (رفح والشيخ زويد)، إذ يسكنها الآن عرب (الرميلات) الذين اضطرهم (الترابين) إلى أن يتركوا مساكنهم الأولى حول «خان يونس» مهاجرين إلى أطراف سيناء الشمالية الشرقية غربًا[3]...

(1) راجع: *La Description de l'Egypte*, vol. 16, pp. 110-115.

(2) راجع: المصدر نفسه، مج 16، ص 110 - 115.

(3) يصح أن نشير إلى أن علي باشا مبارك يعتبر (الرميلات) بطنًا من بطون (السواركة)، وسواء صحت هذه النسبة أم لا، فالعرف عند البدو يجري بأن هذه القبيلة حديثة في سيناء وأنها كانت تنزل (القرارة في برية خان يونس) إلى أن هاجروا غربًا أمام الترابين... فإذا أخذنا بنسبة علي باشا مبارك كان معنى ذلك أن السواركة كانوا يمتدون حتى تلك النقطة (راجع: مبارك، ج 14، ص 39).

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
	لكن هذا الاتّساع العظيم في أراضي (السواركة) لا يلبث أن ينكمش منذ أوائل القرن التاسع عشر أمام اتساع قبائل التياها والترابين، حتى إننا في كتابة (بركهاردت) نجده يشير إلى أن (الترابين) و(التياها) يسكنون بعضهم إلى جوار بعض في مرتفعات التيه، يمتدون حتى (غزة) و(حبرون)[1]. ولعل انتشار (الترابين) - الذين كانوا يتولون أمر القوافل بين السويس وغزة - في سيناء مرجعه إلى زيادة نفوذ «محمد علي» والموقف الحازم الذي وقفه من البدو مما لا يبعد أن يؤثر في هذه القبيلة، تأثيرًا ترى معه أن الأفضل لها أن تؤثر سكنى صحراء التيه على أن تخضع لسلطة ذلك الباشا القوي الذي عرف كيف يضرب على أيدي البدو فما يمكنهم مما تعودوه من عبث وفوضى.	

(1) راجع رحلة بركهاردت في 1816: Burckhardt, vol. 1, pp. 468-469.

اسم القبيلة	ما طرأ على مركزها في شبه جزيرة سيناء	أثر ذلك في توزيعها الحالي في سيناء أو خارجها
المعازة و بلي	- كانت تمتد أراضي هاتين القبيلتين في شبه جزيرة سيناء أكثر من امتدادها الآن، ثم كان توسع (الترابين) وتوغلهم في أراضي التيه وما إلى شمالها وغربها، حتى استطاعت أن تطرد أمامها هذه القبائل، فاضطرت المعازة إلى أن تهجر سيناء كلية، مكتفية بتلك الغارات التي كانت تشنّها من وقت إلى آخر على أراضي الترابين في سيناء... وكذلك كان الحال في قبائل (بلي) التي انكمشت أراضيها - كما انكمشت أراضي العيايدة بنفس المؤثر فيما رأينا - في سيناء انكماشًا كبيرًا[1].	- ليس في سيناء الآن من (المعازة) أحد، وإنما مساكن المعازة في الديار المصرية الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر من قرب حلوان الى طريق قنا والقصير، أما أرض بلى في سيناء فتقع في مناطق محصورة قرب (قطية)، ويسكن معظمها الآن في القليوبية، وإن كان منها عدد قليل يسكن بعض مديريات الصعيد.
الطميلات	- تمتلك هذه القبيلة حدائق للنخيل في (قطية) بالرغم من أنها لا تسكن الآن في سيناء، مما يدل على أنها كانت تسكن تلك المنطقة في وقت ما. ولعلّها كانت من القبائل التي أغرتها حركة النقل في طريق الرمل الشمالي بين مصر والشام، فهاجرت بعض بطونها إلى منطقة (قطية) الغنية بنخيلها حيث اشتغلت بالنقل وزرعت لها هنالك نخيلًا، فلما اضمحلت أهمية الطريق الشمالي ونافست القوافلَ وسائلُ النقل الأخرى، رجعت تلك البطون إلى مواطنها الرئيسية الأولى في مديرية الشرقية دون أن تترك أحدًا منها في سيناء.	- يسكن عرب «الطميلات» الوادي المعروف بذلك الاسم في شرقي الدلتا، حيث يعرفون أحيانًا باسم عرب (الوادي)... ومراكزهم الرئيسية حول (أبي حماد)، أما في سيناء فما يذهبون إليها إلا في أشهر جمع البلح، حيث يرحلون إلى قطية لجمع ما يملكون هنالك من نخيل، فإذا انتهى موسم البلح عادوا إلى مديرية الشرقية راجعين.

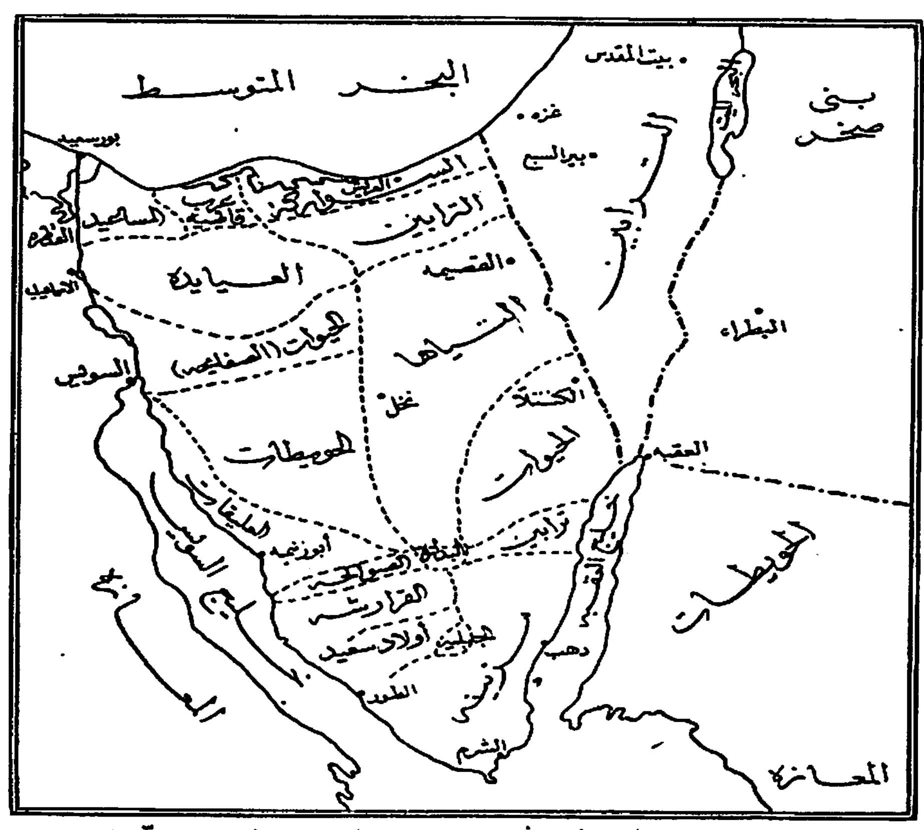
(1) يشير هينس إلى ذلك ويتكلم عن العداوة الشديدة بين هذه القبائل (المعازة وبلى والعيايدة) وبين الترابين، تلك العداوة التي ظلت قائمة حتى حرب الاحتلال الإنجليزي لمصر، إذ نرى (المعازة) يتهزون الفرصة فيشتد اعتداؤهم على أراضي الترابين في سيناء انتقامًا منهم: Haynes, p. 92.

تلك هي القبائل التي سكنت سيناء وانتشرت فيها في القرون الحديثة، ثم اضطرت بعد ذلك إما إلى أن تهجر شبه الجزيرة هجرة نهائية لسبب من السببين الذين تقدما قبل ذلك الاستعراض لها، وإما أن مناطق سكناها قد تحددت وانحصرت ليمتد مكانها نفوذ قبائل أخرى هي التي تعين التوزيع الحالي للقبائل العربية في شبه الجزيرة، وهو توزيع ما كان يمكن أن يفهم الفهم الصحيح دون أن يقدم له بمثل ذلك الاستعراض، الذي هو في الحقيقة أساس لدراسة حركات الموجات الأخيرة في شبه الجزيرة، وهو تمهيد لهذا الاستقرار النسبي الذي لم تعهده القبائل في سيناء في الفترات السابقة، ذلك الاستقرار الذي ساعد عليه خضوع القبائل الآن لنظام إداري حازم لا يسمح لها بما تعودته في أيامها الماضية من زحف وغارات...

التوزيع الحالي لقبائل سيناء

تتأثر كثافة السكان في منطقة ما بمقدار الفرصة التي تهيّئها الطبيعة في تلك المنطقة لأولئك السكان، وتزداد تلك الكثافة أو تقل على حسب طاقة المنطقة ومبلغ ما يمكن أن تتحمله مواردها، وتكون حياة السكان في حالة تنقل أو استقرار تبعًا لما تكون عليه البيئة نفسها من فقر أو غنى... وشبه جزيرة سيناء – فيما تدل عليه الدراسة المناخية والنباتية – منطقة ضيّقة الموارد جدًا ومحدودة الإنتاج، والبيئة فيها بيئة مجدّبة فقيرة غير مضمونة الثروة، لا تسمح مطلقًا بأن يعتمد عليها إلا عدد محدود جدًا من السكان، كثيرًا ما يصعب عليهم أن يجدوا فيها ما يكفي عددهم القليل، فهم لذلك يضطرون في أوقات طويلة إلى أن يهجروها، ملتمسين العيش في الجهات المجاورة لسيناء حيث تكون البيئة أقل عسرًا والانتاج أكثر توافرًا.

والذين يتتبعون حياة السكان في شبه الجزيرة في الفترات المختلفة، يجدون أن الفرصة الحالية أمامهم أشد ضيقًا مما كانت عليه، وأن كفاحهم الآن في سبيل العيش أقوى مما عرفه الذين سبقوهم في سكنى تلك المناطق. وما نقصد بهذا أن نرجع بالمقارنة إلى تلك القرون البعيدة التي يتحدّث الكتاب عن أن سيناء كانت فيها أكثر مطرًا وأغنى نباتًا وأكثف سكانا، ولا أن نعود فنناقش الآراء المختلفة في تلك الناحية، وإنما يكفي أن نرجع بالمقارنة إلى هذه الفترات القريبة فالكلام عنها أكثر دقّة وأقل غموضًا... فبالرغم من أن هنالك



التوزيع الحالي لقبائل شبه جزيرة سيناء (عن مرّي)

تسليمًا بأن سيناء في جميع فتراتها التاريخية كانت مناطق صعوبة دائمة فإن السكان فيها كانوا يجدون أمامهم فرصًا أوسع يستعينون بها على تخفيف جدب المنطقة وصعوبتها، إذ أنهم إلى جانب الحياة النباتية المحدودة في سيناء كانوا يستفيدون من نواح أخرى أهمها:

1- الاشتغال بنقل المتاجر وحمايتها عندما تعبر شبه الجزيرة، إذ كانوا يحتكرون طرق القوافل بين مصر من جهة وبين بلاد الشام وما يجاورها في آسيا من جهة أخرى. والأرباح التي كانوا يجنونها من ذلك أرباح طائلة، إذا روعي مركز شبه الجزيرة وما كان لها من أهمية كطريق رئيسي لمرور التجارة، وإذا تذكرنا أن أرباحهم لم تكن مقصورة على الأجر الحلال الذي كانوا يغالون فيه مغالاة فاحشة، وإنما كانت تتعداه إلى السلب والنهب والاعتداء على المتاجر...

2- كان لهم حق نقل الحجاج وحماية دركات درب الحج، سواء في ذلك

أولئك الحجاج المسلمون الذين كانوا يعبرون سيناء من مصر وبلاد المغرب إلى أراضي الحجاز المقدسة، أو هؤلاء الحجاج المسيحيون الذين كانوا يأتون من أوروبا ليزوروا المناطق المقدسة في جبل موسى وسانت كاترين، وكان ذلك العمل مورد رزق متسع لقبائل شبه الجزيرة تقتسمه معًا، وتختص كل واحدة منها بدرك لا يصح لغيرها أن تتعدى عليها فيه... وكان موسم الحج موسم يسر لسكان سيناء توزع عليهم فيه الأقمشة والحبوب، فوق ما كان يصرف لهم من مرتبات مقابل حماية الطريق وحراسة الحجاج، فإذا أضيف إلى هذا أن البدو لم يكونوا يتورعون على الاعتداء على قوافل الحج ونهبها، وروعي أن ذلك النهب كان أمرًا اعتياديًا في كل مواسم الحج بلا استثناء، أدركنا كم كانت القبائل تخرج من ذلك بأرباح طائلة تنفق منها حتى يحين موسم الحج من جديد[1].

3- يضاف إلى هذا أن البدو في سيناء كانوا يجدون في أشجار شبه الجزيرة موردًا لهم يظهر أنهم كانوا يستفيدون منه إلى حد كبير، فقد كانوا يقطعون تلك الأشجار التي تكثر في جنوب سيناء ويحرقونها ليحصلوا منها على الفحم النباتي الذي كان سلعة يتاجرون فيها ويستبدلون بها الحبوب في أسواق «السويس» بوجه خاص... والكتّاب والرحالة الذين كتبوا في القرون الأخيرة يذكرون ذلك دائمًا، ويعتبرون الفحم النباتي أهم ما يبيعه بدو شبه الجزيرة[2]، بل إن (محمد علي باشا)[3] نفسه حين اعتدى بدو سيناء على إحدى قوافله رأى أن يفرض على البدو ضريبة عينية من الفحم النباتي، حين لم يجد عندهم ما يمكن أن يأخذه منهم عوضًا!

---

(1) يمكن أن يرجع في المرتبات التي كانت تصرف للقبائل، وفي أخذ صورة عن الفظائع التي كانت القبائل ترتكبها في نهب قوافل الحج والاعتداء على الحجاج إلى ما هو مكتوب في الجزء الأول من كتاب الفرائد المنظمة في أخبار الحج ومكة المعظمة، وهو الكتاب الذي أشرنا إليه غير مرة والمحفوظ بدار الكتب المصرية.

(2) يراجع في هذا كتب الرحالة المختلفين: C. Niebuhr, *Voyage en Arabie et en d'autres pays Circonvoisins* (1776- 1780), vol. 1, pp. 193 ff.; Burckhardt, p. 561, et J. M. Goutelle, dans: *La Description de l'Egypt*, vol. 16, p. 185.

(3) محمد علي باشا ولد في قولة (محافظة مقدونيا شمال اليونان) في 1769، وتوفي في الإسكندرية (قصر العين) في 1849. بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر وانسحابها في 1801، اندلعت ثورة شعبية بقيادة نقيب الاشراف عمر مكرم ضد الفوضى والتسلط والفساد بظل ولاية خورشيد باشا. واختار الزعماء والأعيان محمد علي لتولي الحكم في 1805 بعد موافقة السلطان العثماني سليم الثالث. ارتكب مذبحة القلعة ضد بقايا المماليك ونفى مكرم إلى دمياط ليستقر الحكم لمصلحته من دون منافس. يعتبر محمد علي مؤسّس مصر الحديثة على المستويات العمرانية والتعليمية والعسكرية والصناعية والاقتصادية والإدارية والتجارية (م).

أما الآن فقد أشرنا إلى أنه لم يعد بدو سيناء يستفيدون من تلك النواحي الثلاث شيئًا يذكر، فتطور وسائل النقل وطرقه أفقد سيناء أهميتها كطريق لنقل المتاجر بين آسيا وأفريقيا، وأصبحت القوافل التي تقطع شبه الجزيرة والتي كان البدو يستفيدون منها حقيقة تاريخية لا وجود لها الآن تقريبًا، وطريق الحج إلى مكة قد تحوّل إلى البحر الأحمر وقضت السفن على أهمية درب الحج الذي كانت القبائل تقتسم دركاته وتستفيد منه كثيرًا، والحجاج المسيحيون قل مجيئهم لزيارة منطقة الدير في سيناء بل إنّ الانتقال الآن بالإبل إلى الدير أصبح من الأمور التي لا يفكر فيها الزائر لشبه الجزيرة فأمامه السيارات يستطيع أن يستخدمها فيقتصد من وقته وماله ويجد فيها بلا شك راحته. وأصبح السلب والنهب - بعد تنظيم إدارة سيناء وحفظ النظام فيها - عملًا لا يطرأ على بال البدوي الآن. أما الفحم النباتي فلم تعد هنالك أشجار في سيناء كلها يمكن أن يستخرج منها شيء له قيمته التجارية إذ يظهر أن السكان في الماضي قد قضوا على الأشجار قضاء يكاد يكون تامًا.

لهذا إذًا ضاقت موارد سيناء، فهي الآن تكاد لا تتعدى دائرة الإنتاج النباتي المحدود، سواء في ذلك تلك الحشائش التي تنبت فترعاها الحيوانات، أو تلك الزراعة الضعيفة التي تقوم في بعض نواحي شبه الجزيرة... ومن هنا أصبح توزيع القبائل في سيناء أمرًا يرتبط ارتباطا تامًا بتوافر الحياة النباتية أو عدم توافرها، وأصبح السكان يكثرون أو يقلون بمقدار وفرة الحياة النباتية في أنحاء شبه الجزيرة... وليس معنى ذلك أن في أراضي سيناء مساحات غير مملوكة، فكل جزء فيها يدعي ملكيته فرد ما يدافع عنه كأنما يدافع عن أكثر جهات الأرض خصوبة وغنى، وكثيرًا ما يقع بين القبائل بعضها وبعض مشاكل على تحديد أراضيها كأن النزاع هنالك على ملكيات صغيرة وفيرة الإنتاج[1]... لكن ينبغي أن يفهم أن غالب تلك الملكية ملكية صورية وأن ادّعاء البدو لتملك الأراضي وحرصهم عليها لا يفيد أن لتلك الأراضي قيمة كبيرة[2].

---

(1) راجع: Jarvis, pp. 60 and 67.

(2) لا تقر الحكومة مطلقًا ملكية البدو لأراضي الصحراء، وإن كانت تسمح لهم بالزراعة فيها، وتحتفظ لنفسها بحق نزعها منهم إن كانت في حاجة إليها أو إذا أصبحت ذات قيمة بتحسين ريها. وإذا بديء البحث عن المعادن فإنا لا نعدم بدويًا يطالب بالتعويض مدعيًا أن الأرض أرضه بوضع اليد، لكن بطبيعة الحال لا ينظر إلى مثل تلك الدعاوى إلا إذا كانت المنطقة ذات قيمة زراعية فان البدوي يعوض في الغالب بتعيينه هو خفيرًا عليها (راجع: المصدر نفسه ص 60 وما بعدها).

ولقد مرّ أن تلك الحياة النباتية التي تعتمد حياة القبائل في سيناء الآن عليها تتوقف على أساسين يمكن أن نعتبر ثانيهما متأثرًا بأولهما وهما:

أولًا – المطر، وهو الأساس الأكبر في توافر الحياة النباتية أو عدم توافرها، فالري في غالب مناطق شبه الجزيرة يعتمد على ماء المطر، أما الري الصناعي فمناطقه محدودة جدًا في سيناء... ومقدار المطر هنا قليل لا يمكن أن تتوافر معه حياة نباتية تكفي لعدد كبير من السكان، كما أن سقوط المطر نفسه أمر غير منتظم مطلقًا فقد يسقط عامًا ثم ينقطع سنين، ومن هنا كانت حياة القبائل حياة قلقة لا يمكن أن تستقر، فهم أثناء المطر يجدون المرعى لحيواناتهم، ويستطيعون أن يزرعوا الوديان حبوبًا لا بأس بمحصولها، لكنهم في سنين الجفاف لا يجدون في مناطق سكناهم ما يمكن أن يعيشوا عليه هم وحيواناتهم؛ وإذًا فهم يضطرون إلى أن يهجروا تلك المناطق إلى أن تنتهي مدة الجفاف وقد تدوم سنوات. والمهم في سقوط المطر ومدى فائدته للزراعة أن ينتظم في أشهر الشتاء حتى يمكن أن تنتفع به زراعة القمح والشعير، أما إذا تأخر سقوطه – كما حدث في عام 1924 مثلًا حين جاءت معظم أشهر الشتاء جافة وهطل المطر غزيرًا في شهر مارس بدرجة لم تعهدها سيناء من قبل – فان ذلك لا يفيد الحبوب وإن أفاد زراعة البطيخ والتين وهي أقل أهمية من زراعة القمح والشعير[1]...

ثانيًا – ماء العيون، ومناطق تلك العيون في سيناء محدودة ومحصورة في جهات قليلة في سيناء، فعلى هذه العيون وحدها يمكن أن يقال إن هنالك شيئًا مضمونًا من الزراعة، تقوم عليه حياة يصح أن تسمى تجاوزًا حياة استقرار إذا ما قورنت بحياة القبائل المعتمدة على ماء المطر وحده.

وما دام الارتباط هكذا كبيرًا بين حياة السكان وبين توزيع الماء في شبه الجزيرة وما يتبع ذلك من توزيع المرعى والنبات، ففي الإمكان إذًا أن نأخذ مناطق توزيع الماء والنبات ونعتبرها بذاتها أساسًا صالحًا لتوزيع القبائل في سيناء، وتكون شبه الجزيرة بهذا من حيث كثافة السكان فيها مقسّمة إلى نفس مناطق توزيع الماء والنبات الثلاثة في الشمال وفي الوسط وفي الجنوب.

---

(1) يراجع تقرير مصلحة الحدود عن سيناء 1923–1924، ص 1–2.

1- المنطقة الشمالية: وتضم المساحات الساحلية في شمال سيناء، ومنطقة الكثبان التي تمتد إلى جنوبها حتى تعترضها الكتل الجبلية في «يلج ومغارة والحلال». وهذه المنطقة التي تتمتع بمطر لا بأس به نسبيًا، يزداد مقداره كلما سرنا في المنطقة الساحلية شرقًا ولكنه يكون أقل في الجنوب والغرب وتحتفظ الكثبان بكثير من الماء الذي يصيبها في فصل الأمطار... وهذه المنطقة أغنى نسبيًا في نباتها، إذ يتوافر المرعى والعشب في معظم جهاتها، وتقوم زراعة لا بأس بها حول «العريش» تروى بالسواقي وطواحين الهواء وتصبح المنطقة إلى شرقي العريش أكثر توافرًا في النبات، كما نصادف ما يشبه الواحات في المناطق المنخفضة بين الكثبان حيث يقرب الماء المحفوظ فيها من السطح. وأغنى جهات هذه المنطقة في حياتها النباتية هي الأراضي الواقعة حول العريش في مصب وادي العريش إذ تقوم زراعة دائمة لبعض الخضروات والفواكه وقليل من الحبوب. والجهات المحيطة «برفح» التي هي أكثر جهات سيناء مطرًا والتي ركبت فيها ماكينة لرفع المياه تقوم عليها زراعة الفواكه وبعض الحبوب، ثم هذه المناطق المنخفضة بين الكثبان التي تعتبر أشبه شيء بالواحات وهي مراكز غنية بالنخيل تنتج أحسن ما تشتهر به سيناء من أنواع البلح.

ومراكز السكنى الهامة في هذه المنطقة الشمالية من سيناء يسهل الآن تعيينها بعد هذا الكلام التمهيدي القصير:

أ- منطقة العريش: وهي منطقة استقرار بصفتها أولًا المركز الإداري لشبه الجزيرة، ولأنها منطقة غنية بمائها تكثر آبارها وتدوم زراعتها... وسكان العريش يعرفون (بالعريشية) وهم ليسوا بدوا رحلًا بل يسكنون بيوتًا يعيشون فيها عيشة مستقرة... ولا يدل مظهرهم وتقاطيع وجوههم والحياة التي يحيونها على أنهم يرجعون إلى نفس الأصل الذي يرجع إليه غالبية البدو في سيناء، فلونهم أكثر بياضًا، وتقاطيع وجوههم أجمل تنسيقًا... وعلى حين يتميز البدوي بكرهه الشديد للعمل وهروبه منه مهما قيل عن نتيجته وثمرته[1] نجد (العريشي) رجل

(1) يتحدث جارفس بك عن كسل البدو واليأس من حملهم على العمل كلامًا واضحًا نقتبس منه الجملة الآتية مكتفين بها كمثل يوضح ما نقول: «Suggest to an Arab that he should take a (fas) and put in an hour's work cutting a water channel to his cultivation and he will wear the expression of a martyr going to the stake and if one takes one's eyes off him for a moment will probably fade away with his family to Palestine for a year to escape the task...»: Jarvis, chap. 2, pp. 24-25.

عمل، يحتكر التجارة في شمال سيناء، ويستغل جهل البدو وغفلتهم فيتحايل في الاستيلاء على الأرض التي يملكونها والتي يمكن أن تصلح للزراعة، سواء بتزوير عقود الرهن والبيع، أو بالتغيير في كشوف حساب عملائه منهم بشكل مريع لفت نظر الإدارة هنالك فنصحت للبدو بأن يبيعوا أراضيهم - ما داموا لا يستطيعون زراعتها - إلى (العريشية) لكن على أن يكون ذلك عن طريق الحكومة، ومع ذلك رفض البدو هذه الطريقة وآثروا ألا تتداخل الحكومة، واستطاع (العريشي) أن يحصل على أرض البدوي بثلث ثمنها أو أقل[٦]...

ويغلب أن يكون (العريشية) هؤلاء خليطًا من العناصر المختلفة التي كانت تأتي بها الحكومات المتتابعة كحرس لقلعة العريش يسكنون فيها هم وعائلاتهم. وأملاك هؤلاء (العريشية) تمتد خارج منطقة العريش، فلهم أراض كثيرة حول «رفح»، ولهم فوق ذلك جزء كبير من تلك المساحة التي ترويها الآن (عين الجديرات) في منطقة (القصيمة) بعد أن نظمتها إدارة سيناء واستغلت مياهها في السنوات الأخيرة...

ب- منطقة رفح: سواء منها ما أحاط بالبلدة نفسها حيث تقوم الزراعة على ماكينة ركبت هنالك، وحيث يوجد سكان مستقرون في بيوت من الطين... أو في تلك المساحة الممتدة في غربها إلى (الشيخ زويد). وهذه هي المنطقة التي تتمتع بأكبر مقدار من المطر في سيناء كلها، ولذا نجدها من أهم جهات شمال سيناء إنتاجًا في الحبوب بعد مطر الشتاء، وفي البطيخ والتين أيام الصيف، كما هي غنية بحشائشها ومراعيها، ومن هنا كانت القبائل التي تنزلها من (السواركة) ومن عرب (الرميلات) بوجه خاص أغنى بدو سيناء، يلمس ذلك في حياتهم الخاصة وفي امتلاكهم للخيل والبقر وهي حيوانات لا نصادفها في غير هذه المنطقة من سيناء.

ولا يمكن أن يقال عن عرب (الرميلات) إنهم بدو رحل تمامًا، فهم يسكنون في عشش، ولم نصادفهم هنالك يسكنون خيامًا من الشعر أو الوبر كما

---

(٦) الواقع أن هذه مشكلة تواجه الإدارة في سيناء، أشار إليها جارفس بك في كتابه، وتضمنتها تقارير مصلحة الحدود السنوية، والظاهر أن جهود الإدارة في هذا الاتّجاه من الأمور التي ينظر إليها البدوي نظرة المتشكك، ولذا فهو لا يؤمن بها ويحاول بقدر الإمكان ألا تتداخل الإدارة في شئونه أبدًا.

يسكن البدو الآخرون. ويلمس الذين يزورون مناطق سكناهم أن كثافة السكان هنالك تزيد عنها في معظم مساكن البدو الأخرى في سيناء بدليل تقارب هذه العشش تقاربًا كبيرًا، وهذه ظاهرة أصبح تعليلها واضحًا على ضوء ما تقدم من دراسة للماء والنبات[1]...

ج- منطقة قطية: الغنية بنخيلها، والتي يسكنها بدو يعرفون عامة (بعربان برقطية)، وهم بطون متفرقة من «العيايدة والمساعيد والأخارسة والعقايلة وبلى والقطاوية والبياضيين والدواغرة». وغالب هذه القبائل حديثة السكنى هناك، تفرعت عن أصولها في مديرية الشرقية وأتت هنا فسكنت سيناء وعملت في نقل القوافل وامتلكت النخيل في تلك المناطق، يدل على ذلك أن كثيرًا من هذه البطون الصغيرة تسكن قبائلها الكبرى شرقي الدلتا[2]...

والظاهر كذلك أن عدد هذه القبائل كان أكبر مما هو الآن، وأن بطونًا كثيرة من تلك الأصول النازلة في مديرية الشرقية كانت تنزل هذا الجزء الغربي من سيناء الشمالية إلى أن ضعفت أهمية (الدرب السلطاني) كطريق للقوافل ونقل البضائع بين مصر والشام، وعندئذ آثرت تلك البطون أن تعود إلى أصولها في شرقي الدلتا تاركة منها تلك الأفخاذ القليلة [3]... ومما يؤيد هذا القول ما نراه من أن بعض عرب مديرية الشرقية يملكون نخيلًا في منطقة (قطية) لا يأتون إليه إلا في زمن الحصاد حيث يجمعونه ثم يعودون إلى مساكنهم في مديرية الشرقية، وما يمكن أن نفسر هذه الظاهرة إلا إذا سلمنا بأن هذه القبائل كانت

---

(1) نحب أن نأخذ صورة بسيطة لحالة النبات من العريش إلى رفح من وصف أحد الرحالة: «... بدأنا نسير من العريش في أرض قاحلة، لاحظنا فيها بعض زراعات للقمح متفرقة وكلما تابعنا السير شرقًا زادت كثافة النبات ورأينا كثيرًا من البدو يعملون في أراضيهم التي تزرع منها مساحات كبيرة... ومررنا بالوديان الخصيبة مثل الجرادي وخرويه، مشاهدين بعض البقاع المزروعة، وقد رأينا الأرض تتحسن، وفي كثير من الجهات لاحظنا حقولًا لا بأس بزراعتها فإذا جاوزنا «الشيخ زويد» مررنا وسط مراع وفوق تلال رملية تغطى منحدراتها بالحشائش ثم تتحول هذه الأراضي بدورها إلى حقول الشعير حتى نأتي الحدود بين مصر والشام...».

يراجع هذا الوصف بالتطويل في كتاب: Ludwig Salvator, *The Caravan Route Between Egypt and Syria*, Translated from the German by the Chevalier de Hesse-Wartegg (London: Chatto and Windus, 1881), pp. 48 - 58.

(2) يراجع في هذا تقرير (براملي بك) والتقارير الأخرى المحفوظة بوزارة الحربية خاصة بالقبائل في مديرية الشرقية، وستظهر هذه الحقيقة ملموسة حين ندرس توزيع القبائل العربية في شرقي الدلتا.

(3) سنشير بعد إلى توزيع هذه القبائل على دركات طريق القوافل.

تسكن هذه الجهات وتمتلك في وقت ما ذلك النخيل[1]... ولقد كانت الصلة بين هذه الفروع وأصولها قوية جدًا والتزاور والتصاهر بينها مستمرًا، وكانت جميعًا تتبع في الإدارة إلى مديرية الشرقية، وتدين بالولاء لشيوخها في مصر، لكن حفر قناة السويس أضعف هذه الصلة من غير شك وتحوّلت إدارة هذه القبائل إلى العريش فانفصلت عن مديرية الشرقية، وأصبح ذلك الفاصل المائي ومراقبة عبور القناة والإجراءات المعقدة في (القنطرة) مما يعوق الصلة السابقة ويضعفها، لكن رغم ذلك لم تقطع العلاقات بين هذه القبائل وأصولها في الشرقية قطعًا باتًا...

وما دام عماد سكان منطقة (قطية) هو النخيل فما يمكن أن تكون حياتهم مستقرة ولا شبه مستقرة، بل نراهم مضطرين - بعد موسم البلح - إلى أن يرحلوا بأهليهم وحيواناتهم إما إلى فلسطين حيث يكون المرعى أكثر توافرًا، وإما إلى بعض نواحي شرقي الدلتا يعملون بإبلهم في حمل الحاصلات كالذرة وغيرها، أو يتاجرون في «العجوة» التي تكاد تكون محصول أرضهم الوحيد، والذي يزور شمال سيناء عقب موسم البلح يلمس هذه الظاهرة واضحة، كما أن من المناظر المألوفة للمسافر في طريق الدرب السلطاني - عندما يقترب موسم حصاد البلح - تلك الجماعات من البدو التي نصادفها وقتئذ راجعة من فلسطين في استمرار لا ينقطع... وحكومة فلسطين لا تمانع في هجرة قبائل سيناء إليها بل هي على العكس تسهّل لهم تلك المهمة فهم عندما يعبرون الحدود يعد عمال الجمارك ما معهم من حيوانات، ثم ينتظرون حتى إذا رجعوا بعد الرعي أخذوا منهم على الجمل 12 قرشًا وعلى الرأس 4 قروش، فإذا لم

(1) يمكن أن نأخذ على سبيل المثل ما أثبته براملي بك في تقريره عن البياضيين، فقد ذكر أنهم «... يسكنون مديرية الشرقية، لكنهم يقضون جزءًا من السنة في قطية في سيناء حيث يملكون بعض نخيل البلح هناك، وقد استقرت منهم عدة قبائل في الشرقية مثل القطاوية وأولاد منه والأخارسة لكنهم يملكون نخيلًا في سيناء يرحلون إليه في أوقات موسمه، ويعزى امتلاكهم للبلح إلى أيام أجدادهم الذين أوكل إليهم ابراهيم باشا أمر المواصلات وحماية الطريق فاشتغلوا بالنقل وزرعوا النخيل، فلما انتهت الحرب رجعوا إلى أوطانهم ثانية «صفحة 21 و 22 من تقريره»... لكن ينبغي أن نحترس في قبول كلامه عن البياضيين والأخارسة واعتباره لهم حديثين في سيناء بهذا الشكل، فقد رأيناهم في دراستنا السابقة من أقدم القبائل التي سكنت شمال سيناء، أتى ذكرهم في توزيع الحمداني والقلقشندي وغيرهما في القرن الرابع عشر وإن كان ذلك لا يمنع من أن تكون منهم بطون هاجرت إلى الشرقية ثم عادت إلى سيناء للاشتغال بالنقل وتأمين الطريق في أيام محمد علي وابراهيم. [الحمداني (ابو المحاسن). توفي سنة 670هـ. صاحب كتاب «الانساب». دوَّن فيه اسماء قبائل وبطون لم ترد عند من سبقه. اعتمد منهج البحث الميداني، لذلك اختلف عن كتابات الكلبي، ابن حزم، ابن عبد البر، السمعاني، المقريزي، القلقشندي، العمري، السويدي ،الجزيري في معالجة الموضوع (م)].

يدفع البدوي أرسلوا في طلب شيخه فإن امتنع الشيخ خاطبوا في ذلك الحكومة المصرية.

وإذا كانت مثل هذه الضريبة مفهومة من ناحية حكومة فلسطين بصفة أن هذه القبائل غريبة تتمتع بمرعى ينبغي أن تدفع عليه أجرًا، فالحكمة غير مفهومة في أن تأخذ مصلحة الجمارك المصرية على الحيوانات التي تدخل من سيناء إلى مصر ضريبة من أصحابها البدو رغم أنهم تابعون لمصر يسكنون في أرض مصرية، الشيء الذي يشكو منه البدو والذي لا يتحمله فقر هؤلاء السكان ولا يتفق مع اعتبارهم مصريين[1]... إذ أنهم بهذا يعاملون معاملة البدو الذين يأتون بإبلهم وحيواناتهم من خارج حدود سيناء ليتجروا بها في أسواق مصر مع أن التفريق بينهم أمر واجب، فإذا كانت الصعوبة في أن يميز عمال الجمارك بين الحيوانات الآتية من سيناء نفسها والحيوانات الآتية من خارج سيناء فإن ذلك لا يمكن أن يقوم عذرًا مقبولًا إذ من السهل أن تراقب الحيوانات على الحدود الشرقية لا على الحدود الغربية لشبه الجزيرة في القنطرة والاسماعيلية والسويس.

د- منطقة الزقبة: وهي أرض متسعة تنحصر بين بحيرة البردويل من الشمال وطريق القوافل من الجنوب، ثم بين بئر العبد شرقًا وقطية غربًا، وكثير من أراضي (الزقبة) يصلح لزراعة الشعير والبطيخ، وينمو فيها بعض النخيل، يساعدها في ذلك ما يصيبها من مطر لا بأس به بصفتها منطقة ساحلية تتأثر كثيرًا بمرور الأعاصير... ويذكر (نعيم بك شقير) في كتابه عن سيناء «... أن أراضي الزقبة قد دخلت في أملاك الحكومة المصرية في عهد (توفيق باشا)، فكانت تؤجرها بالمزاد العلني حتى عام 1907 ثم تركتها للقبائل القاطنة فيها والمجاورة لها لتزرعها وتنتفع بها لكنّها لم تعط هؤلاء السكان حق بيعها[2]... والقبائل التي تسكنها معظمها من بدو (الدواغرة) من عرب (مطير)، لكن يزرعها معهم من قبائل برقطية الأخرى قبائل «السماعنة والسعديين والأخارسة والبياضيين»... وكان الدواغرة هؤلاء بدوا مستضعفين، يحتقرهم جيرانهم

---

(1) يذكر البدو أن الضريبة التي تؤخذ منهم هي: جنيه على الجمل إذا عبر القناة وبيع فإذا رجع من دون أن يباع فالضريبة التي تؤخذ هي 30 قرشًا ويؤخذ على الضأن والماعز ضريبة هي في نظرهم مما لا تتحملها حالتهم، وقد رأيتهم يلحون بشدة في طلب إلغاء ذلك.

(2) راجع: شقير، ص 26.

ويعتبرونهم (هتيما)[1]... وهم لذلك كانوا يتلمسون حمايتهم بدفع أتاوة لهم تعرف عندهم (بالخاوة)، لكنهم الآن أحرار تحميهم الحكومة وإن ظلت القبائل الأخرى لا تتزاوج منهم حتى الآن أبدًا.

* * *

ويلاحظ أن سقوط المطر بغير انتظام، وبحالة غير مضمونة ولا معروفة، قد أدّى إلى صعوبة ضمان المرعى للحيوانات في جميع المناطق التي ذكرناها وما يتبع ذلك من استحالة قيام حرفة الرعي على أساس اقتصادي مفيد، أو اشتغال بدو سيناء بتربية الحيوانات واستغلالها بشكل نافع... حقيقة إن حالة المرعى في بعض السنوات قد تكون جيدة جدًا، وإن وديان سيناء القاحلة الجافة قد تغطى - إبان سنين المطر - بحشائش تكفي أضعاف أضعاف ما تحتاج إليه حيوانات البدو في سيناء[2]. لكن تربية الحيوانات والإكثار منها لا يمكن أن يرتبط بمثل تلك السنوات الشاذة وإنما يكون اعتماد الرعاة على الحالة العادية حتى لا تتعرض حيواناتهم للموت والجوع...

ويصح الإشارة هنا إلى الصعوبة الكبيرة في تربية الحيوانات التي تعين السكان في استغلال المناطق التي يمكن أن يقوم بها شيء من الزراعة، وهي صعوبة أساسها أيضًا عدم ضمان المرعى لتلك الحيوانات، وقلة الفائدة من أن يحل (العليق) محل (العلف) الأخضر رغم غلاء العليق وفقر السكان... ولقد جرّبت زراعة البرسيم في مناطق سيناء الصالحة للزراعة فكان نجاحها بسيطًا واحتاجت البقرة الواحدة إلى نصف فدان على الأقل وهذا غير متيسّر مطلقًا... ولذا عملت تجربة أخرى لزراعة نبات يعرف باسم (English Mangel WURSEL) وهو نبات تتغذى عليه الحيوانات، تدل النتائج على نجاح زراعته، سيما وقد ثبت أنه ينتج من العلف ستة أضعاف ما تنتجه المساحة التي تزرع برسيما، ويمكن الاستفادة منه في أشهر الخريف. كما جرّبت زراعة (الجزر) ونجحت كعلف للماشية في أشهر الشتاء[3]... لكن ما دامت مناطق زراعة مثل هذه النباتات كلها مناطق محدودة، فستظل فائدتها - رغم نجاح تجربة زراعتها - فائدة محدودة

---

(1) يطلق لفظ (هتيم) على القبائل المستضعفة التي تعيش في حمى غيرها وتدفع (الخاوة) لها.

(2) يراجع لمثل هذه السنين الشاذة تقرير مصلحة الحدود عن سيناء 1925-1926، ص 12.

(3) تراجع تقارير مصلحة الحدود في الجزء الخاص بالتجارب الزراعية منذ عام 1924 وما بعدها.

كذلك، وبهذا يبقى عدم ضمان المطر عاملًا قويًا في بقاء مشكلة المرعى قائمة في شبه الجزيرة، وسيظل مستقبل حرفة الرعي غير مشجّع على الإطلاق.

وبالرغم مما ذكر من أن حياة السكان في هذا الجزء الشمالي من سيناء مرتبطة بتوزيع الحياة النباتية التي تعينها كمية المطر، ومن أن عمل السكان يتوقف توقفًا يكاد يكون تامًا على مدى ما تهيّئه تلك الحياة النباتية من فرصة لهم، فإن هنالك إلى جانب ذلك ناحيتين أخريين تستنفذان جزءًا لا بأس به من نشاط السكان، ينبغي الإشارة إليهما لأنهما موارد للرزق إن اعتبرا قليلي الأهمية في المناطق الأخرى الوفيرة الإنتاج، فهما هنا في مثل تلك المنطقة الفقيرة المجدبة لا يمكن إغفال شأنهما في دراسة الإنتاج وعمل السكان، وهاتان الناحيتان هما:

أولًا – صيد السمان: يشهد الزائر للمنطقة الساحلية في شمال سيناء في المدة بين أواخر شهر أغسطس ومنتصف شهر أكتوبر، أن بدو سيناء يعملون بنشاط في صيد السمان، ويرى المسافرون بطريق سكة حديد فلسطين في المحطات المختلفة حركة كبيرة لشحن ذلك الطائر، الذي يزيد ما يصدر منه على خمسين ألف سمانة في اليوم ثمن الزوج منها حوالي القرش، لا يقبض البدوي أكثر منه وإن كان الوسطاء سواء في سيناء أو في خارجها يبيعون السمان بثمن أعلى للمستهلكين. وهذه المقادير ترسل يوميًا إلى مدينة (بور سعيد) لتصدر منها إلى أسواق أوروبا: مرسيليا وجنوه وأثينا والبندقية وقد يصل بعض البلاد الأخرى كلندن وغيرها جزء قليل من السمان.

ومركز هجرة ذلك الطائر هو سهول القمح في روسيا ورومانيا والمجر، يتوالد فيها ويقضي أشهر الصيف هنالك، فإذا كان الخريف هاجر إلى وسط أفريقيا مارًا بسواحلها الشمالية وما يرجع إلا في شهري فبراير ومارس، وقد يؤخره نضوج القمح في مصر فهو يتغذى عليه مدة أخرى قبل رجوعه إلى أوروبا... وكان سكان ساحل البحر الأبيض في شمال أفريقيا ينتهزون فرصة مرور ذلك الطائر فينصبون الشباك لصيده، إما شباكًا قائمة يقع فيها الطائر الذي يهبط إلى الأرض دائمًا في الفجر فلا يرى في الضوء القليل ما ينصبه الصيادون له من شباك، وإما شباكًا صغيرة يغطون بها العشب الذي يسارع إليه الطائر ثم لا يستطيع التخلص من الشباك بعد ذلك. وكان السكان لا يهمهم

إلا أن يصطادوا أكثر ما يستطيعون من السمان، فهم لذلك كانوا يغالون في أن تنصب شباكهم قريبة ما أمكن من الساحل ليقع فيها الطائر بمجرد وصوله إلى البر، كما كانوا يحرصون على ألا يتركوا للطائر فتحات في المناطق التي يصطادون فيها، الشيء الذي كان يصعب معه أن ينجو من الطير نسبة تزيد على 10 ٪ من الطيور المهاجرة، والذي أدى إلى نقص مريع في عدد السمان الذي كان لا بد من أن يبقى ليتوالد ويمون موسم العام التالي بصغاره موسمًا بعد آخر.

هذا النقص لم يجد من يتدارك أسبابه في المنطقة الغربية من ساحل البحر الأبيض فتأثر ذلك المورد تأثرًا يكاد يكون تامًا. أما على السواحل المصرية فلم تترك السلطات المحلية هذا الأمر يصل إلى تلك الدرجة من السوء، بل سنت من القوانين ما يكفل حماية ذلك الطائر وما يضمن وصول عدد كبير منه إلى السواحل المصرية كل عام: فهي تحرم أن تنصب الشباك على بعد أقل من 500 ياردة من ساحل سيناء أو ألف ياردة من السواحل في الصحراء الغربية. وهي تشدّد في أن يترك الصائد فتحة مقدارها مائة ياردة في كل كيلومتر واحد، كما تحرم وضع الشباك على مساحة 25 ميلًا شرقي بور سعيد، ترمي بهذا كله إلى أن يكون أمام السمان فتحات ينجو بها منه عدد كبير لا غنى عنه ليمد حركة المهاجرة بما يمونها عندما يرجع إلى أوروبا بعد رحلة الشتاء وأوائل الربيع: ولقد حققت تلك القوانين الغاية التي سنّت من أجلها، والصيادون الآن في شمال سيناء وغيره من السواحل المصرية يستفيدون - دون أن يشعروا - كثيرًا من ذلك، وإن كانوا يرون - جهلًا - في مثل هذه القيود ما يغل أيديهم عن رزق ساقه اللّه إليهم، وما تستسيغ عقليتهم حكمة القانون إن أشار أحد إليها[1]...

ثانيًا: صيد الأسماك: وإنتاجه أهم من صيد السمان وإن كان من الصعب أن نعين عدد المشتغلين في كل منهما لاستحالة الحصول على إحصائيات في هذا الموضوع. والمركز الهام لصيد السمك في سواحل سيناء الشمالية هو بحيرة (البردويل) شرقي مدينة بور سعيد بحوالي 30 مترًا، تقدّر التقارير الأخيرة لمصلحة خفر السواحل عن المصائد المصرية أن مساحتها تبلغ

---

(1) اعتمدنا في هذه الناحية على ما كتبه جارفس بك: Jarvis, chap. 14, pp. 258 - 264.

162.734 فدانًا[1]... وهذا تقدير تقريبي لأن طولها وإن بلغ حوالي 80 ك. م فإن امتداد عرضها يختلف فيكون في الطرف بين كيلومتر وثلاثة كيلومترات، ويتراوح في الوسط بين 20 و 30 كم[2]، أما مستواها عن سطح البحر فينخفض من 6 إلى 10 أقدام.

وبالرغم من أن قاع البحيرة لا ينمو فيه نبات يذكر، وبالرغم من أن الجوانب رملية فقيرة، فانه لا شك في وجود غذاء يعيش عليه السمك ويتغذّى به لأن السمكة التي تدخل البحيرة في أشهر الخريف زنتها نصف رطل لا يكاد الصيف يبتدئ حتى تزيد زنتها على رطلين وحتى تملأ بالدهن والبطارخ، ثم تندفع إلى البحر خارج البحيرة، إما رغبة منها في أن تتوالد أو تخلصًا من حرارة ماء البحيرة، لكن توضع شباك تعترض خروجها حتى ولو لجأت إلى القفز كما يحدث في أحوال كثيرة[3].

وتنتج (البردويل) سنويًا كميّات كبيرة تبلغ حوالي ثلاثمائة وخمسين طنًا تقريبًا من أجود أصناف سمك «البوري» و«التوبار» و«لوت» و«مياس» و«سحيلي» و«الحوت» و«الجران». - كما يبين الجدول الإحصائي التالي لهذا والذي يدل على جملة الإنتاج في الأصناف المختلفة -، يصدر بعضها طازجًا إلى جهات القطر المصري المختلفة - القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة - أو إلى مدينة «يافا» ببلاد الشام، ويستخرج من جزء كبير منها بطارخها التي اشتهرت (البردويل) بها والتي يباع الرطل منها بحوالي 25 قرشًا في السنين العادية، أما باقي السمك فيملح «فسيخا» ويصدر إلى داخل القطر المصري.

وكان نظام المصائد في مصر أن تعطى بطريق الالتزام لمن يدفع أكبر إيجار، وظلّت هذه الحالة قائمة حتى عام 1903 حيث صدر الأمر العالي باتّباع نظام الضريبة، وإباحة حرية الصيد نظير رخص يحصل الصيادون عليها بعد أن يدفعوا لذلك رسمًا، وعمم هذا المشروع في جميع البحيرات عدا البردويل عام

---

(1) يراجع في هذا تقرير مصلحة السواحل عن مصائد القطر المصري 1932 المطبوع 1935، ويصح أن نذكر على سبيل الموازنة مساحات البحيرات المصرية الأخرى. قارون 550.35 فدانًا ومريوط 59.000 وادكو 35.000 والبرلس 140.000 والمنزلة 307.000 وبهذا تأتي البردويل في المرتبة الثالثة بعد بحيرتي قارون والمنزلة.

(2) يراجع تقرير مدير إدارة المصائد المائة عام 1925، ص 58.

(3) راجع: Jarvis, chap. 1, pp. 7 - 8.

1905 ثم طبق على مياه نهر النيل عام 1920[1]... والواقع أن نظام الالتزام هذا كان يضر من ناحيتين:

أ- أن الملتزمين كانوا يتحكمون في الصيادين الضعفاء الذين يخضعون مضطرين، والذين كانت جهودهم تسخر لمطامع الملتزم وحده.

ب- أن الملتزمين ما كان يهمهم إلا أن يحصلوا في مدة الالتزام على أكبر كمية ممكنة من السمك، وكانت النتيجة إضرارًا بإنتاج السمك الذي كان يصطاد صغيرًا... ولقد كانت نية مصلحة خفر السواحل منصرفة إلى تطبيق نظام الضريبة على رخص الصيادين في بحيرة البردويل، وإلغاء نظام الالتزام هناك لترفع بهذا عن الصيادين عبء الملتزمين من جهة، ولتستطيع أن تتولى بالتحسين هذه المساحة الكبيرة فيزداد إنتاجها من السمك، لكن يظهر أن بعد البحيرة عن العمران وقلة وجود صيادين في الجهات القريبة منها لم يساعدا على تحقيق هذا وظلت بحيرة البردويل هي المساحة المائية الوحيدة التي تؤجر في مصر بطريقة الالتزام...

وكان إيجار هذه البحيرة حتى الحرب العظمى الأولى 1000 جنيه في العام[2] ...، ثم جاءت الحرب فأوقفت استغلالها لأسباب حربية، حتى إذا كان عام 1924 أعلن مزاد إيجارها فرسا بمبلغ 8150 جنيهًا سنويًا، - (أنتجت البحيرة في الخمسة أشهر التالية لتوقيع الإيجار سمكًا ثمنه 12143 جنيهًا كما تشير إلى ذلك دفاتر الملتزم) - ، خفض بعد خمس سنوات إلى 6050 جنيهًا في السنة، ثم عاد الإيجار فخفض في سنة 1932 إلى 3000 جنيهٍ في العام مدة عشر سنوات نتيجة للأزمة وكساد الأسواق التجارية.

وقد قام الملتزم منذ رسا عليه المزاد الأول بإحضار الصيادين الذين يسكنون في أكشاكهم على سواحل البردويل، وعمل فتحة في البوغاز الضيق بين البحيرة والبحر، وكانت العقبة دائمًا أن الرواسب تسد هذه الفتحة في أشهر كثيرة، وكانت الحكومة تطالب المتعهد دائمًا بإصلاح هذه الفتحة فيلاقي في ذلك صعوبة كبيرة، لكنه استطاع الآن أن يشتري (كراكة) بخارية خاصة بتطهير الفتحة، وبهذا يظل

(1) يراجع تمهيد تقرير مصلحة خفر السواحل لعام 1925.

(2) يراجع: شقير، ص 27-28.

الاتّصال موجودًا بين البحيرة والبحر طول العام كما يؤدي إلى كثرة دخول السمك فيها وزيادة الأرباح منها[1].

الشهر	بوري	توبار	لوت	مياس	سيحلي	حوت	جران	الجملة بالشهر
يناير...	–	–	–	–	–	–	–	–
فبراير...	694	4359	550	–	–	–	–	5603
مارس...	1195	4914	1286	–	–	–	–	7395
أبريل...	2346	11149	3498	477	–	1	–	17471
مايو...	10795	46783	3784	2032	–	34	–	63428
يونيه...	20814	29693	1509	571	304	269	–	53160
يوليو...	18764	25519	1682	–	181	886	217	47249
أغسطس...	13925	20621	284	11	294	1502	–	36637
سبتمبر...	12062	20165	272	–	644	3099	12	36254
أكتوبر...	13615	26277	1170	–	–	1121	–	42183
نوفمبر...	872	3190	1477	–	–	–	–	5539
ديسمبر...	939	2970	1393	–	–	–	–	5302
الجملة	96021	195640	16905	3091	1423	6912	229	كيلو جرام 320221

وإلى جانب هذا العدد الكبير من الصيادين الذين يعملون في بحيرة البردويل يوجد عدد قليل يصطادون السمك على الساحل القريب من محطة (الشيخ زويد) شرقي العريش، يعرفون (بالطراطرة)، وهؤلاء يدعون أنهم من البدو، والواقع أنّهم من (السقالين)، فريق من (العريشية) يسكنون بلدة (أبي سقل) إلى شرق العريش يزرعون التين والبطيخ، ولعل هذا العدد من الصيادين هم الذين أشار إليهم تقرير مصلحة الحدود (1931-1932) بأن تحسين وسائل تصدير السمك إلى مصر والشام قد أغرى بعض الأشخاص بأن يشتغلوا بالصيد اشتغالًا دائمًا، غير مكتفين بالإنتاج لحاجة العريش وحدها كما كان الحال، بل هم يرسلون السمك إلى أسواق أخرى خارج حدود سيناء، وقد ربحوا من ذلك أرباحًا كبيرة لم يعودوا معها بالذين يستهويهم العمل في

(1) يصح أن نذكر هنا على سبيل المثال ما أنتجته بحيرة البردويل عام 1932 الوارد في تقرير 1935، صفحة 102 والتقدير بالكيلوجرامات.

تهريب الحشيش[1]... ولا يبعد أن تجذب هذه الحرفة عددًا أكبر من سكان سيناء، سيما إذا ألغى نظام الالتزام وترك الصيادون يعملون في البردويل لحسابهم الخاص فعندئذ يكون مكسبهم كبيرًا يغري غيرهم من سكان المنطقة الساحلية لأن المثل الناجح هو أحسن ما يؤثر في جذب مثل هؤلاء السكان إلى مثل تلك الأعمال...

❊ ❊ ❊

2- المنطقة الوسطى: إلى جنوب المنطقة الشمالية، حيث الهضبة الكلسية التي يطلق عليها إجمالًا هضبة التيه بما يجاورها ويحف بها من أراض تصل إليها نهايات الكثبان الرملية... وهذه المنطقة نصيبها من المطر نصيب قليل لا انتظام له، ينفذ في مسام الهضبة وما يظهر إلا حين تهيئ الظروف الطبيعية له فرصة الظهور على شكل عيون. وتلك المنطقة من الطبيعي أن تكون أفقر في مائها من المنطقة الشمالية ومن أجل هذا أشير إلى أن المستعمرين القدماء اضطروا إلى أن يحفروا في الجهات المختلفة فيها خزانات ينساب المطر إليها زمن سقوطه فيستفيدون منه في مدة الجفاف... والحياة النباتية في جملتها أفقر منها في المنطقة الشمالية وما يمكن تبعًا لما سبق أن تكون متوافرة مضمونة إلا حيث توجد تلك المصادر التي يضمن ماؤها، أما فيما عدا ذلك فالوديان الكثيرة المنتشرة في أجزاء الهضبة تصبح غنية بزراعة الحبوب التي تجود فيها إذا ما كان العام عام مطر، فأما في سنين الجفاف فالوديان - كسائر جهات الهضبة - مجدبة تتعذر الحياة فيها إذ لا ينمو هنالك وقتئذ إلا تلك الحشائش الصحراوية التي لا تستطيع الحيوانات أن تعتمد عليها كثيرًا في المرعى والغذاء.

وطبيعي أن يكون سكان هذه المنطقة - رغم اتساع أراضيهم كثيرًا عن أراضي سكان المنطقة الشمالية - أقل منهم عددًا وأقل درجة في الكثافة[2].

---

(1) يراجع تقرير مصلحة الحدود عن سيناء، 1931-1932.

(2) من الصعب أن نطمئن إلى الإحصاءات التي تعطى عن عدد البدو في سيناء، من جهة لأنه لا يمكن ضبطها، ومن جهة أخرى لأن البدو أنفسهم إن اضطروا إلى إعطاء معلومات فهم يغالطون كثيرًا فيها... على أن نعيم بك شقير في كتابه عن سيناء يذكر أن عدد سكان بلاد العريش (المنطقة الشمالية) 16120 نفسًا منهم سواركة ورميلات 12000 وعربان قطية 4120، ويعتبر أن بدو التيه (المنطقة الوسطى) عددهم 12900 منهم حيوات 4200 وتياها 4200 وترابين 3000 وحويطات 1500 وهو بهذا لا يذكر بعض القبائل الأخرى في المنطقتين. انظر: شقير، ص 125-129.

ومن الصعب أن يقال إن البدو هنالك رحل يتنقلون في أجزاء تلك الهضبة فمناطقهم موزعة بينهم، تختص بطون القبائل وأفخاذها بأجزاء خاصة منها تستغلها وتزرعها وما يسمح للبطون الأخرى بأن تشترك معها في ذلك الاستغلال. حقيقة إن حق الرعي مباح للقبائل جميعًا في نواحي الهضبة كلها، لكن أهمية الهضبة في الرعي أهمية قليلة لفقرها فيه، والبدو الذين يعيشون على الرعي في الهضبة ويتنقلون بينها ووراءه عددهم قليل محدود. وإذًا ففي الإمكان أن يقال إجمالًا إن قبائل المنطقة الوسطى مركزة في مناطق الزراعة، مستقرة حول العيون وفي الوديان ما دام المطر كافيًا لزراعتها، أما في سنين الجفاف فما يكون تنقلها في هضبة التيه وإنما تكون هجراتها إلى خارج سيناء في بلاد شرقي الأردن وفلسطين حيث تكون الحياة النباتية أكثر توافرًا، وحيث لا تقف الحدود السياسية حائلًا دون أن تنتقل تلك القبائل إلى الأراضي الواقعة خارجها: لأن حكومتي شرقي الأردن وفلسطين تسمحان بمثل هذه الهجرة، سيما وأن الحدود بينهما وبين سيناء حدود صناعية في الجزء الغالب منها وكثيرًا ما تقسم مناطق القبيلة الواحدة - كما يظهر ذلك بوجه خاص في أراضي «العزازمة والتياها والترابين» - مما يصعب معه أن يحرم بينها الاتّصال الذي لا تدعو إليه مجرد الروابط العائلية، وإنما الدافع الأساسي فيه دافع اقتصادي لا يمكن إغفاله بحال من الأحوال.

ونظرًا لتلك المصلحة الاقتصادية المشتركة بين كثير من القبائل البدوية في سيناء والقبائل الأخرى في شرقي الأردن وفلسطين مضافًا إلى ذلك روابط الدم التي تجمع بين عدد كبير منها، لا يصبح غريبًا أن تكون وجهة نظر غالبية تلك القبائل هي إلى الجهات الشرقية لسيناء، تتصل بأهلها، وتبتاع في أسواقها، وتلجأ في أوقات الحاجة إليها، أما نظرتها الآن إلى خارج حدود سيناء الغربية فقد أصبحت ضعيفة وقد تحولت كثيرًا عنها لأنها من جهة لا تلمس دافعًا اقتصاديًا يدفعها إليها، وقد يكون حفر قناة السويس وتلك القيود المعقدة التي تفرض عليها حين تجتاز تلك القناة، من العوامل التي ساعدت على إضعاف تلك الصلة التي تكاد تكون مقصورة الآن على عدد قليل من القبائل الصغيرة النازلة إلى شرقي القناة مباشرة، والتي تربطها بالقبائل الواقعة غربي القناة وفي مديرية الشرقية صلة من القرابة لا يسهل التحلل منها.

والآن يمكن أن تقسم هذه المنطقة الوسطى في شبه جزيرة سيناء من حيث أهميّتها كمراكز للسكنى ومن حيث مدى استقرار القبائل فيها إلى الأقسام الثلاثة الآتية:

أولًا، مناطق تأتي في الدرجة الأولى من الأهمية بصفتها مراكز يمكن أن يتجمع فيها السكان بشكل لا نصادفه في أنحاء المنطقة الأخرى، كما أن الحياة فيها يمكن أن نعتبرها نسبيًا أشبه بحياة الاستقرار، لا تضطر القبائل معها إلى أن تنتقل كثيرًا فيها إذ ليس هنالك ما يدعوها إلى ذلك... وتلك هي المناطق التي يتوافر ماؤها بشكل منتظم مستديم، وهي مناطق العيون الغنية بحياتها النباتية في مرعاها وفي شيء من زراعة الحبوب وإنتاج بعض الفواكه أحيانًا. وخريطة توزيع العيون هي خير ما يعين هذه الجهات التي تعتبر أهم مراكز السكنى في هضبة التيه والتي يمكن أن نعد منها منطقة (عين الجديرات) والقصيمة ومنطقة العيوب الموجودة عند حافة التيه الجنوبية والتي ينتشر فيها عيون يرقة وحجية وأبي نتيجينا و... و... مضافًا إليها تلك الآبار الكثيرة التي تنتشر في تلك المنطقة. ثم تلك المنطقة المعيية أيضًا الواقعة إلى جنوب شرقي العجمة حيث مياه سوانه والبيار وغيرهما، والمنطقة الغنية بآبارها حول نخل والتمد والحسنة، يضاف إلى هذا كله منطقة خزانات وادي أم خشيب التي يمكن أن يستفاد منها أكثر لو نظفت فتزيد الكمية التي تستطيع أن تحتفظ بها من ماء الأمطار.

وأهم هذه المناطق كلها في السكنى إذا نظرنا إلى المستقبل القريب لها هي منطقة (عين الجديرات) التي عنيت مصلحة الحدود بها واهتمت بتنظيم استغلال مائها بما أقامته من سد في مجرى ماء العين وبما مدته من أنابيب ثم بعمل رافع (هيدروليكي) لتوصيل الماء إلى مساحات مرتفعة ما كان يمكن أن يصل إليها ماء العين من قبل مع أنها أراض غاية في الخصوبة... وتعطي منطقة الجديرات هذه محصولًا لا بأس به من القمح والذرة كما نجحت بها زراعة بعض الخضروات والفواكه حتى إن منطقة الجديرات لتمد الأهالي بفواكه كثيرة، وحتى إنه ينتظر أن تتمكن تلك المنطقة في مدى سنوات قليلة من أن تبعث إلى العريش بجزء كبير مما يلزمها من الفاكهة. كذلك قد نجحت زراعة الزيتون بها وانتشرت فيها، وتشير التقارير المختلفة إلى شدة الاهتمام بإقامة معصرة للحصول على زيت الزيتون اللازم للأهالي كما تدل الحالة على أنه من

المنتظر أن تتمكن الجديرات في العشر سنوات القادمة من تصدير زيت الزيتون إلى وادي النيل ما دامت زراعة الزيتون في زيادة مستمرة[1].

ومياه الجديرات تكفي لري مساحات واسعة لكن الصعوبة هي عدم توافر الأيدي العاملة التي يمكن أن تتعهد الزراعة وترعاها: فسكان المنطقة من بدو (التياها) لا يبدون اهتمامًا يذكر بتحسين حالتهم والاستفادة من هذا المورد الهام، ومن الصعب أن ننتظر من هؤلاء البدو تقدمًا ملموسًا لأنهم عاشوا في المنطقة يزرعون على المطر فلا بد من وقت طويل يدرّبون فيه على طرق الزراعة بواسطة الري سيما وهم بطبيعتهم محافظون لا يمكن أن يغيروا أسلوب معيشتهم بسهولة. ولقد دعا هذا التراخي من ناحيتهم إلى شيء كبير من اليأس من الانتفاع بهم ووجهت الأنظار إلى الاستفادة من (العريشية) الذين هم أنشط من البدو وأقدر على استغلال أرض الجديرات منهم. وقد رأى هؤلاء (العريشية) مبلغ ما يمكن أن يجنوه من أراضي الجديرات فاحتالوا على عدد من البدو واستولوا على أرضهم هنالك وزرعوها. وكانت الفائدة من وصول هذا العنصر النشيط مزدوجة: فإلى جانب أنه كان عامل إنتاج يفضل البدوي كثيرًا فإنه قد وضع أمام البـدوي مـثـلًا لما يمكن أن تدره عليه زراعة الأرض بالطرق الجديدة من ربح كان دافعًا لبعض البدو إلى أن يقلّدوا وأن يعملوا في أراضيهم كفلاحين[2]... ومن المنتظر إذا ما استمرت عناية الحكومة بالقيام بتجاربها في منطقة الجديرات وإذا ظل تحسن الإنتاج مستمرًا أن تزيد جاذبية المنطقة لعدد أكبر من الأهالي سواء من (العريشية) أو من بدو (التياها) أنفسهم. ولا يبعد أن يلجأ المستغلون لها إلى أن يسكنوا بعائلاتهم، وإلى أن يبنوا لهم بيوتًا فتصبح منطقة الجديرات منطقة سكنى مستقرة تكفي أهلها بل وتزيد في إنتاجها عما يحتاجون.

ثانيًا، مناطق لها أهميتها في السكنى أيضًا، لكن تلك الأهمية لها أوقاتها المحدودة وظروفها الخاصة، فإذا لم تتوافر تلك الظروف - وكثيرًا ما يحدث ذلك - فعندئذ تضمحل تلك الأهمية وما نصادف فيها إلا عددًا قليلًا جدًا من السكان، في حين أنها في ظروف أخرى تشتد كثافة السكان فيها بدرجة تفوق

---

(1) راجع تقرير مصلحة الحدود عن سيناء لسنة 1930-1931 وتقريرها عن سنة 1931-1932.

(2) راجع تقرير مصلحة الحدود عن شبه جزيرة سيناء، 1930-1931.

كثافة القسم السابق بشكل واضح. تلك هي الوديان التي تنتشر في أجزاء الهضبة والتي تعظم خصوبتها وتشتهر لوفرة إنتاجها في الحبوب في السنوات التي تصيب الهضبة فيها كميات من المطر كافية بري الأرض. أما في سنين الجفاف فتلك الوديان نفسها تصبح مناطق جدب يهجرها سكانها حين لا يجدون فيها ما يمكن أن يعيشوا هم وحيواناتهم عليه من مرعى ونبات.

هذه الوديان تكاد تتجمع في مجموعتين عظيمتين: وادي (الجرافي) الذي يتصرف ماء حوضه إلى العرابه، والذي تتصل به فروع عدة أهمها (رحيه والأغيدره وخميله وسلالم والهاشة)، ووادي العريش الذي يتصرف ماؤه إلى البحر الأبيض بعد أن يتصل به فروع كثيرة تأتيه من سائر أنحاء الهضبة أهمها (أبي متيتنة ومجمر ولقين وأبي عليجانه وأبي طريفية والرواق) ووادي البروك ثم وادي العقبة مع فروعه القريص والطيبة والتمد ووادي قرية مع فرعه الهام وادي معين والفهدي، وتلك الوديان التي تأتيها مياه وادي القصيمة والمويلح والجديرات، ثم وادي الأبيض. يضاف إلى هاتين المجموعتين هذه الوديان الموجودة في شمال غربي التيه وغربيها وإن كانت هذه أقل أهمية لأن جزءًا كبيرًا منها يجري في مناطق رملية يغور ماؤها فيها كما هو الحال في وديان مغاره والحمه والحسنه والجفجافه وجدى وأم خشيب ووادي الحاج والراحة وفروعها[1]...

وما دامت المشكلة هنا هي مشكلة سنين الجفاف فستظل حالة السكان على ما هي عليه الآن من قلق، إن طرأ عليها شيء من التغيير فسيظل تغييرًا غير جوهري لأن الجفاف كثيرًا ما يطول أمده إلى عدة سنين وبذلك لا يمكن بسهولة أن تحل مشكلته، وليس من مشروعات الإصلاح ما يتجه نحو التفكير في هذه المعضلة العويصة في حياة هذه المنطقة من أرض سيناء؛ على أن ذلك لا يمنع من أن تحاول تجربة يظهر أنها كانت قائمة وربما أفادت بعض الفائدة بأن تقام سدود في مجاري الوديان الهامة لمحاولة إمكان الاستفادة من ماء المطر وتنظيم الزراعة أكثر مما لو ترك الماء يجري ضائعًا لا يستفاد منه. وهناك بقايا لمثل تلك السدود في كثير من الوديان الواقعة على الحدود الشرقية لهضبة التيه سيما في وادي (معين والأبيض)، وهي سدود كانت تخرج من ورائها قنوات تنقل الماء إلى أحواض وأراض زراعية قد يكون مما ساعد على وجودها أن تلك المناطق كانت أكثر مطرًا مما هي الآن، أما مسئولية السكان

---

(1) تراجع في خريطة المساحة أهم الوديان في هضبة التيه.

الحاليين من البدو وجهلهم باستغلال تلك المناطق فما يمكن أن يكون السبب الجوهري فيما نراه من جدب يسود فيها الآن[1]...

ثالثًا، أما أقل أجزاء هذه المنطقة الوسطى أهمية في السكنى، فهي الجهات الواقعة خارج مناطق العيون ومزارع الوديان، فهي في فقرها في الماء والنبات لا يمكن أن تقوم فيها حياة، وما تعيش الأفخاذ البدوية الصغيرة التي تمتلكها إلا عيشة انتقال مستمر إلى بلاد الشام طورا وإلى الأراضي المصرية طورًا آخر، ومثل هذه المناطق نصادفها منتشرة في المنطقة الرملية إلى شرقي قناة السويس وإلى غربي «نخل والحسنة»، وستظل هذه الأجزاء، بعد أن أصبحت الحياة في سيناء متوقفة على مدى توافر النبات، مناطق لا قيمة لها كمراكز للسكنى تأتي في الدرجة الأخيرة في شبه الجزيرة كلها، وليس هنالك ما يدل مطلقًا على أن شيئًا من التغيير سوف يطرأ عليها سيما وأنه قد ظهر أن عمليات البحث عن الماء التي أجريت في وسط سيناء لم تؤد إلى نجاح يذكر في ذلك الاتّجاه...

وهذه المنطقة الوسطى في سيناء يقتسمها خمس قبائل بدوية هي: (التياها والترابين والأحيوات والحويطات والعيايدة) يغلب أن تكون كلها من قبائل (بني عطية)[2] إذا ما استثنيت قبائل (العيايدة) التي يرجح أنها من عرب (العايذ) الذين كان لهم حق حماية طريق الحج وتولي دركاته من مصر عبر سيناء، هاجرت تلك القبائل من الحجاز إلى شبه الجزيرة، أو سكنت شبه الجزيرة بعد؛ إذ هاجرت أولًا إلى بلاد الشام أو مصر، ولا تزال بقايا بطونها وأفخاذها تنزل خارج حدود سيناء[3]... إذا ما تقيّدنا بالحدود السياسية لشبه الجزيرة وهي حدود لا تتمشى مع توزيع القبائل كثيرًا.

---

(1) هناك دراسات مطولة لبقايا الزراعة في مثل هذه الوديان يتخذها أنصار تغيير المناخ دليلًا قويًا من أدلتهم وهذه يمكن الرجوع إليها في: Robinson, pp. 173 - 208, and Huntington, *Palestine and its Transformation*, pp. 39 - 121.

(2) الكلام في أصول هذه القبائل ينبغي أن يؤخذ بشيء كثير من الاحتراس لأنه ليست هنالك معلومات يمكن أن نطمئن إليها في ذلك، وإذا كان هنالك كثير من الكتاب يميلون إلى إرجاع هذه القبائل إلى بني عطية، فتقاليد التياها مثلًا لا تسلم بهذا لأنهم يعتبرون أنفسهم من بني هلال.

(3) عارف العارف، تاريخ بئر السبع وقبائلها (1934)، الباب الثالث وفصوله الستة، وتراجع خريطة توزيع قبائل المنطقة فيه.

وسنحاول الآن – نظرًا لصعوبة ربط هذه القبائل بمراكز السكنى السابقة – أن نحدد مناطق كل قبيلة منها، وسيكون من السهل بعد أن قسمت أجزاء هذه المنطقة من حيث أهميتها للسكنى أن تظهر أهمية كل قبيلة، وهي أهمية لا ترتبط مطلقًا باتّساع المساحة التي تملكها، وإنما تتوقف تلك الأهمية على الحالة الطبيعية لتلك المساحة ومبلغ ما يكون فيها من ماء ونبات:

1- التياها: أخذت هذه القبائل اسمها من اسم الهضبة التي تسكنها، وهي تسمية غريبة لأنه يندر أن تغير القبائل العربية تسميتها بسهولة لتنسب إلى المناطق التي تسكنها، ويجب أن نفرق هنا بين اسم (التياها) واسم (الطوارة) في هذه الناحية لأن ذلك الاسم الأخير يطلق على قبائل المنطقة الجنوبية إطلاقًا عامًا على حين تحتفظ كل قبيلة باسمها الأصلي، أما اسم التياها فما نجد بجانبه أسماء القبائل الأصلية وإن كان ذلك لا يمنع من أن يقسم التياها إلى فروعهم المختلفة... ويصح الإشارة إلى أن هنالك من الكتّاب من يعتبر هذه القبائل بقايا سكان سيناء الأصليين[1]... وهذا كلام فيه شيء من الغموض إذ أننا لا نفهم تمامًا المعنى المقصود بذلك، ولا ندري أي سكان أصليين يقصدونهم على أنه في الوقت ذاته لا يمكن إنكار ما تمتاز به هضبة التيه في فقرها وجدبها من عزلة تجعلها صالحة لأن تكون ملجأ لبعض القبائل التي تدفعها أمامها الهجرات الأخرى، فتتلمس في هذه المنطقة التي لا مطمع فيها مأوى لها أمام القبائل القوية، على ألا يكون معنى ذلك التسليم بأن سكانها كلهم من بقايا ما سماه هؤلاء بالسكان الأصليين، والا ينتفي معه وصول قبائل في فترات متعاقبة حديثة، يفهم من تسميتها بالتياها أنها فقدت أسماءها الأصلية لأسباب من الصعب التكهن بها مع قلة المعلومات التي بين أيدينا واستحالة الاعتماد على كلام البدو لما فيه من بعض الخرافة التي لا تستساغ كثيرًا.

والعرف في سيناء يجري بأن (التياها) أقدم من سكن هضبة التيه من القبائل، ويذكر شيوخهم «أنهم من برية نجد هاجروا منها فرارًا من المعازه، ومعهم الترابين فسكنوا هم في بلاد التيه وسكن قسم من الترابين في شرقي بلاد الطور، ثم وقعت بينهم حروب انتصر فيها التياها وفر الترابين إلى مصر ثم عادوا فاصطلحوا على أن يكون للتياها أرض الجلد وللترابين أرض

(1) يراجع في هذا: Ritter, vol. 1, p. 404.

الدمث...»[1]. والظاهر أن ذلك الاتفاق حديث يأتي قبيل القرن التاسع عشر، فقد سبقت الإشارة إلى أن كتّاب الحملة الفرنسية حين حددوا مناطق التياها - التهيانية في تعبيرهم - قد جعلوا أراضيهم هم والترابين حول (خان يونس) يتبعون (غزة) وإن كانوا يقومون برحلات كثيرة إلى مصر، وإذًا فمعظم أراضي التيه كانت منازل للسواركة حتى جبال الطور[2]...

ومساكن التياها الحالية في منطقة التيه يحددها الاتفاق السابق بينهم وبين الترابين على أن تكون من «مطلة نخل الشرقية إلى جبيل حسن شرقًا وغربًا، ومن جبل الحلال إلى نقب الراكنة شمالًا وجنوبًا»، ومعنى ذلك أنهم يملكون أهم مراكز السكنى في بلاد التيه، إذ هم يضعون أيديهم على غالبية حوض (الجرافي، ووادي العريش)، ويمتلكون أغنى جهات التيه بالعيون والآبار. ويمكن أن توزع أهم مساكن التياها على الفروع الرئيسية لهم كما يأتي[3]...

أ- بنو عامر: في نخل، وأم سعيد والملحة ويرقة والحديد وأعالي العريش والمويلح وجديس... ويتبع بني عامر (تياها الجديرات) الذين يسكنون وادي الجديرات والذين يشتد الخلاف بين الكتاب في مدى نسبتهم إلى التياها[4]...

ب- البريكات: في قرية وعجرود ومعين[5].

ج- الشتيات: في الحظيرة وجبل الحلال.

د- المنيات: في القصيمة والحسنة والتماده والحمة.

---

(1) يراجع: شقير، ص 115، والعارف، تاريخ بئر السبع، ص 103 - 104، للوقوف على الآراء المختلفة في أصل هؤلاء التياها وهي آراء متباينة لا يمكن الوصول معها إلى شيء نهائي.

(2) راجع: *La Description de l'Egypte*. vol. 16, pp. 110-115.

وراجع كذلك ما كتبناه عن أسباب توسع هذه القبائل في أرض التيه على حساب السواركة.

(3) اعتمدت في هذا التوزيع على آراء مشايخ العربان في سيناء الذين قابلتهم في دار المحافظة في العريش أثناء زيارتي لشمال سيناء في أغسطس 1933.

(4) يرجع في أصل الجديرات، وهبوطهم إلى شبه جزيرة سيناء، وتوزيعهم في بلاد فلسطين إلى: العارف، تاريخ بئر السبع، ص 121-125.

(5) يرجع الهزيليون - الذين امتد سلطانهم أيام الحكم التركي من جبل الخليل حتى وادي العرابة والذين كانوا يتحكمون في المنطقة تحكمًا تامًا ويعيثون فيها فسادًا - أنفسهم إلى البريكات وهؤلاء كانوا في سيناء ثم هاجروا إلى منطقة بئر سبع (المصدر نفسه، ص 106).

ويدخل في حمى التياها بدو يعرفون (بالبداره) يسكنون هضبة العجمة - وتمتد مساكنهم فيما يروي البدو - إلى أبى (نتيجينا ويرقة وحچية وحمايت) قرب حافة التيه الجنوبية... وموقع هذه القبيلة الصغيرة بين القبائل القوية من «الحيوات والتياها والعليجات، جعلها مذبذبة في علاقاتها مع تلك القبائل الثلاثة، فبينما نراها حليفة «للتياها» أولًا، نراها في فترة أخرى تحالف «الحيوات»[1] ثم تعود الآن إلى حماية «التياها»، وهي في كل ظروفها مسالمة تصادق «العليجات». ويغلب أنها كانت مسيرة في علاقاتها المذبذبة بباقي القبائل المجاورة بعلاقة هذه القبائل الثلاثة نفسها بعضها ببعض، إذ ما كان يمكن لقبيلة صغيرة مستضعفة مثلها أن تكون لها في علاقتها سياسة مستقلة. وحين استتب الأمن في شبه الجزيرة وقل احتكاك القبائل بعضها ببعض استطاع (البداره) - رغم أنهم في حمى «التياها» - أن تكون علاقتهم الآن بكل من يجاورهم من البدو علاقة ودّية.

وأراضي (التياها) تمتد خارج حدود سيناء إلى جنوب فلسطين، يكثرون بوجه خاص حول «بئر السبع» حيث يعيش حوالي خمسة عشر ألف تيهي[2]... والواقع أن تياها شبه الجزيرة فروع من تياها فلسطين، وأن أصول هذه القبائل توجد غالبيتها هناك وليس في ذلك غرابة بعد ما سبق ذكره من أن مساكن قبائل التياها كانت حتى أوائل القرن التاسع عشر مركزة حول غزة وخان يونس والمناطق الأخرى في جنوب فلسطين، وما دامت تلك الجهات أكثر صلاحية للسكنى من جهات التيه لملاءمة الظروف الطبيعية فيها فمن الطبيعي أن تؤثر غالبية التياها البقاء فيها، وما ينتظر أن يكون قد هاجر إلى سيناء إلا أقلية ضئيلة منهم قد تكون اضطرت إلى ذلك تحت ضغط شديد عليها، وقد تكون اندفعت إلى ذلك طمعًا في الاستفادة من وديان سيناء سيما وأنها لم تر في ذلك ما يمنعها من أن تتمتع بحق الاستفادة من الرعي في مساكنها الأصلية لأن الحكومة هنالك لا تمانع في ذلك أبدًا، ومن المحتمل أيضًا أن يكون التياها

---

(1) يراجع: شقير، ص 107، و Murray, *Sons of Ishmael*, p. 245.

(2) يمكن أن نرجع في عدد التياها حول بئر السبع وإلى فروعهم هناك إلى: عارف العارف، القضاء بين البدو (1993) ، ص 8-35، ومثل هذا العدد الذي يذكره يتضاءل أمام عدد التياها في سيناء إذا أخذنا بتقدير نعيم بك شقير لهم وهو 4200 نفسًا.

الذين سكنوا التيه هم من القبائل التي كانت تشتغل مع الترابين في نقل المتاجر بين مصر والشام، والتي لم تجد أمامها بعد اضمحلال أهمية هذه الحرفة إلا تلك الوديان في هضبة التيه.

أما في وادي النيل فما يوجد ما يمثل التياها بين القبائل المختلفة فيه[1]، وذلك معقول أيضًا، لأن التياها لم تصل هجراتهم إلى مصر وإنما كانت مناطق الجاذبية لهم هي بلاد فلسطين، وهم بحكم موقعهم في شبه الجزيرة بعيدون عن وادي النيل، يفصل بينهم وبين قبائله قبائل أخرى... وحتى فيما يختص بعملهم في نقل المتاجر بين مصر وفلسطين يظهر أن نصيبهم من ذلك كأن قليلًا كذلك، وأن الترابين هم الذين كانوا يستأثرون بالجزء منه.

2- الترابين: يرجع العرف السائد بين بدو سيناء هذه القبيلة إلى بني عطية من عرب الحجاز[2]، وقد سبق القول عند الكلام على التياها أن الترابين سكنوا أولًا شرقي بلاد الطور ثم هاجروا لحروب بينهم وبين التياها إلى وادي النيل حيث كان لهم قوة كبيرة، وكانوا موضع قلق في عهد المماليك، مما دعا (علي بك الكبير) إلى أن يقاومهم فيترك عدد منهم أراضي مصر ليسكن في جنوب فلسطين، أو يتفرق مؤقتًا في أرض التيه إلى أن تسنح الفرصة فيعود من جديد إلى مصر... وكان يخص (الترابين) النصيب الأوفى من نقل المتاجر عبر سيناء بين السويس من جهة وغزة وحبرون من جهة أخرى. ثم اضطروا أمام مقاومة «محمد علي» لنفوذ البدو ثم بسبب اضمحلال طرق التجارة هذه، إلى أن يوسعوا أراضيهم في شبه الجزيرة وجنوب فلسطين على حساب قبائل السواركة والرميلات[3] كما سبقت الإشارة.

---

(1) رجعنا إلى تقرير الماجور براملي الذي كتبه عن القبائل العربية في مصر في عام 1910 وإلى تقارير وزارة الحربية المختلفة التي عملت في 1929 عن قبائل مصر فلم نجد فيها ذكرًا للتياها وقد أخبرني مشايخ العرب في سيناء أنه يوجد للتياها حوالى اثني عشر شخصًا يزرعون في جزيرة شبرا قرب العياط، لكن مثل هذا العدد إن صحت رواية البدو ضئيل جدًا لا يؤثر مطلقًا فيما ذكرناه عن عدم تمثيل التياها بين قبائل وادي النيل بل هو على العكس يؤيد ما ذهبنا إليه.

(2) يراجع الفصل الخاص بهم للوقوف على ترابين تلك المنطقة، في: العارف، تاريخ بئر السبع، ص 77 وما بعدها، ويلاحظ بوجه خاص نسبة هذه القبيلة إلى (تربة) الواقعة شرقي مكة، التي يسكن حولها عرب (البغوم) لأن من الترابين أفخاذًا تنزل في الطرف الغربي لبئر السبع تعرف الآن بعرب (البغوم).

(3) راجع الإشارة إلى ذلك في الصفحات السابقة.

ويختلف (الترابين) عن التياها - من حيث توزيعهم في سيناء، ومدى انتشارهم خارج حدودها - في ناحيتين: أولاهما أنهم ليسوا كالتياها منحصرين في منطقة واحدة وإنما تتعدد مناطق سكناهم في شبه الجزيرة بحكم تطور اتصالهم بها، وانتقال مساكنهم في الفترات المختلفة بينها انتقالًا لا شك في أنه كان يترك وراءه فروعًا من قبائل تؤثر أن تسكن الجهات التي وصلت إليها عن أن تشارك الفروع الأخرى في استمرار الحركة والانتقال، فحين نزل (الترابين) أولًا شرقي بلاد الطور تركوا وراءهم بعد تحركهم من يمثلهم حتى الآن هناك، وحين عملت القبيلة في النقل عبر سيناء بين السويس وبلاد الشام تركت وراءها من يمثلها هناك كذلك. ذلك هو الفرق الأول بين توزيع الترابين والتياها أما الفرق الثاني فهو أن قبائل الترابين تمثل تمثيلًا تامًا بين القبائل البدوية في وادي النيل على حين أننا رأينا التياها لا يكاد يكون لهم وجود هناك، ولعل ذلك راجع إلى أن الترابين كانت لهم بمصر علاقات أشد من علاقات التياها بها، فهم في حروبهم مع التياها لجأوا إلى وادي النيل، ورأوا في خيراته ما يغري قبائل كثيرة بأن تنزل فيه وتستمر في سكناه ثم تستقر بطون منها وتشتغل بالزراعة، وهم كذلك كانوا أكثر القبائل عملًا في نقل المتاجر بين مصر وفلسطين مما يجعل صلتهم بتلك البلاد قوية ومما شجّع كثيرًا من تلك القبائل على أن تنزح إلى مصر. ولذلك نجد الآن حوالي ثلاثة آلاف منهم يسكنون «زمام البساتين وحلوان والمعصرة وعددًا آخر يزيد على ذلك يسكن في مديرية الجيزة الآن...»[1]. على أن الترابين يمثلون أكثر من ذلك خارج حدود سيناء الشرقية حول بئر السبع وجنوب فلسطين حيث يوجد العدد الأكبر منهم، وحيث تسمح الظروف الطبيعية بأن يسكن حول بئر السبع وحدها أكثر من ستة عشر ألفًا منهم[2]... يستفيدون مما يصيبهم من مطر قليل يزرعون عليه شيئًا من الحبوب، وترعى ماشيتهم وأغنامهم ما ينمو على المطر من مرعى وفير.

ومساكن الترابين الرئيسية في سيناء تنحصر بين مناطق «التياها» في الجنوب وأراضي «السواركة» في الشمال، أما المنطقتان الأخريان قرب رأسي

(1) اعتمدنا في تلك الأرقام على الإحصائيات المحفوظة بسجلات وزارة الحربية عن القبائل العربية في مصر عن سنة 1929.

(2) تراجع فروع الترابين النازلة حول بئر السبع وعدد كل منها في: العارف، القضاء بين البدو، ص 8-35.

خليجي العقبة والسويس، فأهميتهما ثانوية للترابين، لا يمكن أن تقاس بأهمية المنطقة الشمالية، وفيما يلي توزيع أراضي الترابين في تلك المناطق الثلاث، نذكرها كلها في دراسة قبائل سيناء الوسطى ولو أن جزءًا بسيطًا منها يخرج في توزيعه عن حدود هضبة التيه.

أ- ترابين الشمال: وهم أحدث من سكن سيناء من الترابين جميعًا، ينزلون «أرض الدمث» محيطين ببلاد التياها من الشمال، تمتد منازلهم من شمال جبل مغارة إلى الشمال الشرقي حتى تصل غزة، فتشمل بذلك «الجفجافة وجبل مغارة والمقضبة والروافع والعمر»، وكلّها مراكز شهيرة بالآبار، لكن الذي ينظر إلى الخريطة الطبيعية يجد رمال الكثبان تصل في نهايتها الجنوبية إليها فتقلل بذلك المساحات التي يمكن الانتفاع بزراعتها... كذلك يتداخل الترابين مع السواركة في أرض (الجورة) إلى شرق العريش، وهي أراض يعتبرها الأهالي أخصب بلاد العريش كلها وأجودها تربة يزرع بها القمح والشعير وإن كانت الرمال قد أضرّت بها كثيرًا[1]... يضاف إلى ذلك منطقة (البرث) الواقعة في الجنوب الشرقي للجورة، وهي سهول مكشوفة من الرمل ممتدة إلى وادي (الأبيض) تصلح لرعي الإبل إذ تكسوها الأعشاب...

وهذه المناطق في مجموعها أفقر من أرض التياها وأرض السواركة، ليس فيها من المراكز الهامة إلا تلك المساحات التي أخذوها حديثًا من السواركة في منطقة الجورة بوجه خاص. ولعل ذلك الفقر النسبي يفسر لنا تلك الغارات المتتابعة التي كان يوجهها الترابين إلى مصر لغزوها والتي يذكر منها (بركهاردت) من رحالة القرن التاسع عشر، غزوات بزعامة (أبي جهمة) شيخ الترابين لنهب طريق الحج بين قفط والقصير والتي لم يقض عليها إلا مقاومة قبائل (المعازة) لها؛ حتى قبضوا على شيخ القبيلة وسلموه إلى (محمد علي باشا)[2]... ثم لا شك في أن ذلك التباين في الغنى بين أراضي الترابين وأراضي السواركة كان مسئولًا أكبر عن حرب (المكسر) التي وقعت بين القبيلتين عام 1856، والتي يشرحها (نعيم بك شقير) وينقلها عنه (مري) في

---

(1) يراجع: شقير، ص 25.

(2) راجع: Burckhardt, p. 462.

كتابه (أولاد اسماعيل)[1]... كذلك يفسر هذا الفقر استمرار نقص عدد هذه القبائل وكثرة هجرتها إلى أرض فلسطين حيث الظروف الطبيعية أشد ملاءمة للسكنى لأنها أكثر غنى بالمرعى والنبات...

ب- ترابين منطقة السويس: وهم أقدم من ترابين الشمال، يغلب أن يكونوا من بقايا قبائل الترابين التي كانت تتجمع عند السويس لنقل المتاجر بينها وبين غزة وحبرون ببلاد الشام. يأتي ذكر سكناهم للصحراء من القاهرة حتى وادي (غرنديل) على ساحل خليج السويس الشرقي وامتلاكهم لعيون موسى وبئر أبي صويرة في كتاب «وصف مصر»[2]... ويشير بركهاردت إلى أنهم كانوا يسكنون جبل الراحة وإلى أن منهم من كانت مياه أبي صويرة تستهويه فيصل إلى وادي (وردان)[3]... وتوزيع الترابين في ذلك الجزء من سيناء منذ أيام الحملة الفرنسية وما قبلها قريب جدًا من التوزيع الحالي الذي يمتد في جبل الراحة وعين صدر وعيون موسى ووادي الرييثة، تصل مساكنهم شمالًا إلى جدى وأم خشيب[4]... وتمتد جنوبًا إلى وادي وردان وغرنديل وثال... وأفخاذ الترابين هنا قليلة العدد، لا تستقل بسكنى هذه المناطق التي ذكرناها بل يشاركها فيها القبائل التي تجاورها سواء كانت قبائل الشمال، أو قبائل (الطواره) التي إلى جنوبها والتي تنظر دائمًا إلى الترابين كأنها دخيلة على تلك الأراضي. وإذًا فهي غريبة لا تستطيع أن تدعّى فيها حقًا قديمًا[5]...

ج- ترابين منطقة العقبة: لعل هؤلاء هم أقدم ترابين سيناء كلهم فقد مر أن الترابين أول ما نزلوا شبه الجزيرة نزلوا إلى شرقي بلاد الطور، يعملون مع إخوانهم من بني عطية في نقل الحجاج، ويسكنون هنالك، حتى إذا ما احتكوا بالتياها تزحت غالبيتهم إلى مصر؛ فمن المعقول إذًا أن يكون ترابين العقبة هم البقية التي آثرت البقاء حيث نزلت أولًا. ومساكنهم الحالية هنالك غنية بمائها

---

(1) يراجع في تفصيل الحرب: شقير، ص 582-586، و .Murray, *Sons of Ishmael*, p. 254

(2) يراجع: *La Description de l'Egypt*, vol. 16, p. 148.

(3) يراجع: Burckhardt, vol. 1, pp. 471-472.

(4) يقول بذلك (مون وصادق) في الجزء الذي كتباه عن شمال سيناء، ويشير (مرى) في كتابه عن أولاد اسماعيل إلى سكناهم لمنطقة جدى. انظر: F. W. Moon and H. Sadek, *Topography and Geology of Northern Sinai* (1921), p. 14, and Murray, p. 355.

(5) يشير روبنسن إلى ذلك منذ منتصف القرن الماضي: Robinson, vol. 1, from p. 63.

وحياتها النباتية، تقع في المنطقة المعيبة بين رأس خليج العقبة وحدود العجمة، وتشمل بوجه خاص «منطقة النويبع، وواسط، ووادي طابه، وكل وادي واتر، والجزء الأكبر من وديان غزالة وعطية والعين»، كما تشمل عيون الفرتاقة وأم أحمد وجبل جنه، ثم يكون الخلاف بينها وبين التياها على منطقة «البيار وآبار عديد» وما إليها من موارد الماء الواقعة على حدود العجمة وهو خلاف يمكن أن نتلمس منشأه فيما سبق ذكره من أن هضبة العجمة فقيرة جدًا بالماء لا نكاد نصادف مصادره فيها إلا نادرًا، وإذًا فالذين يسكنوها من قبائل التياها مضطرون إلى أن يتلمسوا مواضع يشربون منها هم وحيواناتهم، فيجدون في ذلك الجزء من أرض الترابين ماء يجذبهم إليه، وربما كان ذلك هو أساس الاحتكاك والخلاف بين القبيلتين على آبار البيار وعديد...

3- الحيوات: ترجعهم أنسابهم إلى عرب المساعيد من فروع بني عطية، وقد مر أن (المساعيد) هؤلاء مع فروع أخرى من بني عطية قد أخذت منذ التوسع الإسلامي تنتشر من شمال الحجاز فتسكن وادي العرابة وتنزل حول خليج العقبة حتى استطاعت أن تأخذ من عرب العائذ حق طريق الحج من نخل إلى العقبة[1]... وهو حق ظل الحيوات يتمسكون به ويعتبرون أنفسهم لهذا سادة (نخل) في عهد محمد علي يؤكدون أحقيتهم في حراسة القلعة، ويطالبون الباشا بضريبة مقابل تلك الخدمة، وكان الباشا يدفع تلك الضريبة حتى لا يتخذون امتناعه عن دفعها حجة يعتدون من أجلها على القوافل الصغيرة التي كانت تقطع وسط سيناء، كذلك استطاعوا بهذا أن يتوسعوا في ذلك الجزء من شبه الجزيرة فتجذبهم منطقة الدير إليها، ويكون لهم حقهم في حماية الدير وحراسته حتى القرن الثامن عشر فيما يذكر (بركهاردت). والظاهر أن حقوقهم في النصف الجنوبي من سيناء قد بدأت تضعف بعد ذلك إلى ما هي عليه الآن، فبركهاردت نفسه يجعل وادي (مقبله) حدًا بين الحيوات والطوارة، ويذكر أثناء زيارته للمنطقة في أوائل القرن التاسع عشر أنه قد رآهم هنالك يسكنون شرقي العقبة مع عرب «العلويين والعمران»[2]...

وأهم مساكن (الحيوات) الآن تجاور مساكن التياها من الشرق، إذ هم ينزلون في سيناء من «مطلة نخل الشرقية إلى وادي العرابة شرقًا وغربًا، ومن

---

(1) يراجع ذلك في موضعه من الكتاب.

(2) راجع: Burckhardt, vol. 1, p. 507.

جبل الأحيقبة شمالًا وجنوبًا»[1]... يمتلكون بهذا آبار (الكنتيلا والتمد والحيسى وآبار الغديان في وادي العرابة)[2]... وتمتد أراضي الحيوات هؤلاء خارج الحدود الشرقية لسيناء لأن فرع (الخلايفة) الذي يتصل بهم اتّصالًا وثيقًا لا يتبع الآن سيناء من الوجهة الإدارية. ونظرًا لهذه الصلة بين حيوات سيناء وحيوات العرابة، ونظراً لما يوجد في العرابة والوديان التي تنساب إليه من حياة نباتية أفضل نسبيًا من المنطقة المجدبة التي ينزل فيها حيوات سيناء، نجد أن هذه القبائل تنتشر مساكنها أيضًا في تلك الوديان التي تنصرف إلى وادي العرابة، وما يوقفها عن الانتشار إلى الشمال أكثر من ذلك إلا تلك المرتفعات التي يبرز فيها (عريف الناقة) ترتفع فاصلة بين الحيوات وبين التياها فما تصل أراضيها إلى حوض وادي العريش[3]... كما تكوِّن شبه حد بينها وبين (العزازمة) الذين يسكنون في شرقي الأردن ويردون كثيرًا عين (جديس) يرعون عندها ويستقون.

وما تقتصر مساكن الحيوات في سيناء على ذلك الجزء من شرقي هضبة التيه؛ إنما نجد قبائل منهم تعرف (بالحيوات الصفايحة)، يسكنون أراضي الترابين مجاورين للتياها إلى الغرب بوجه خاص، هؤلاء نصادف أهم مراكزهم هنالك في (مغارة والجفجافة وجبل بضيع وعين صدر وبئر مبعوق). وإذا كان وجود الحيوات في شرقي التيه مفهومًا لأن هذه المنطقة هي منطقة التوسع الطبيعي لقبائل آتية من شمال الحجاز، فإنه يصعب أن توجد أسباب طبيعية يبنى على أساسها وجود الحيوات الصفايحة في تلك المناطق التي ينزلونها بين مساكن الترابين في شمال التيه وغربيها، مما يضطر الباحث معه إلى أن يلجأ إلى العوامل التاريخية عله يجد فيها تفسيرًا لذلك: المعروف أن (الحيوات) قد ساعدوا الترابين في الحرب التي سبقت الإشارة إليها بينهم وبين السواركة في منتصف القرن الماضي، وكان لهم فضل كبير في انتصار الترابين وإجلاء السواركة عن جزء كبير من أراضيهم، وربما سمح الترابين لبطون منهم – مقابل تلك المساعدة الفعلية – بأن تسكن معهم في بعض أراضيهم حيث يوجد

(1) يراجع: شقير، ص 117.

(2) راجع: Murray, *Sons of Ishmael*, p. 249.

(3) يشير بركهاردت إلى أن هؤلاء الحيوات توجد لهم مضارب في جوار وادي العرابة حيث تجد إبلهم أفرع الشجر الأخضر في الشتاء فتعيش عليه، أما في الصيف فهم يشتغلون بجمع الصمغ العربي الذي كانوا يبيعونه في القاهرة، راجع: Burckhardt, vol. 1, p. 446.

(الصفايحة) الآن، لكن مثل ذلك التعليل ينهار تمامًا إذا وجد ما يرجع سكنى حيوات الصفايحة إلى تاريخ سابق للحرب بين السواركة والترابين وهو أمر لم يتعرض له أحد من الكتّاب حتى الآن.

وتصح الإشارة إلى أن هنالك في سيناء إلى شرقي القنطرة قبائل تعرف بقبائل (المساعيد)، يذكر (نعيم بك شقير) وينقل عنه (مري) - في كتابه الأخير عن بدو مصر - أنها والحيوات قبائل واحدة حافظت هي على اسمها الأصلي، وسميت الأخرى بالحيوات أو الأحيوات لأنها كانت تعيش في وادي (الجرافي) الذي اعتمدت فيه على نبات (الحوى)، ويرجع وجودها في ذلك الركن في شمال غربي سيناء إلى أنها انفصلت عن هجرة من المساعيد تركت منطقة العقبة إلى غزة حيث تفرقت فسارت بطون منها جنوبًا إلى العرابة والحجاز، وسارت بطون أخرى عبر سيناء غربًا إلى وادي النيل حيث عرفت هناك (بأولاد سليمان)، وتخلف منها شرقي القنطرة عدد ظل محتفظًا بتسميته الأصلية حتى الآن[1]...

4- الحويطات: أحدث قبائل بني عطية التي نزلت حول خليج العقبة، تضم معها عرب العلويين والعمران، وكانت لها السيادة هناك منذ القرن السادس عشر. مراكزها الرئيسية في شمال الحجاز إلى شرقي خليج العقبة وحول الخليج نفسه وإلى شرقي الأردن كذلك[2]... ولم يكتف الحويطات بتلك السيادة التي كانت لهم حول خليج العقبة بل توسعوا غربًا ووصلوا إلى وادي النيل وانتشروا فيه، وامتدوا على طول الطريق بين القاهرة والسويس وإلى جنوبه حتى الجلالة الشمالية. وكان عددهم في جنوب سيناء محدودًا جدًا قبل حرب سنة 1914، لكن الانقلاب الذي حدث في بلاد العرب وقيام حكومة (آل سعود) وما تبعها من شدة وطأتها على قبائل الحويطات جعلت بيوتًا كثيرة من تلك القبائل تنتقل إلى غربي خليج العقبة، وكان طبيعيًا أن يؤدي ذلك إلى

---

(1) يراجع في ذلك: شقير، ص 117-118، و Murray, *Sons of Ishmael*, pp. 248-251.

(2) يمكن أن نقرب إلى الأذهان توزيع القبائل في المنطقة القريبة من العقبة بما ذكره (رتر) عمن سماهم العرب الشرقيين الذين ينزلون في العرابة وما جاوره وهم - أ - العمران: من العقبة حتى المويلح - ب - المعازة: ترعى في إقليم حسمة والمنطقة الرملية حوله - جـ - الحويطات: يمتدون من المويلح حتى البطراء شمالًا وشرقًا إلى طريق الحج الشامي يرعون في جبل الشراه صيفًا والخور شتاءً وأرض التياها في الربيع - د - العلويين: في وادي موسى راجع: Ritter, vol. 1, pp. 408-411.

احتكاك بينهم وبين الطواره، سكان تلك المناطق، بصفتهم مزاحمين لهم في أراضيهم المحدودة الإنتاج في سيناء، ولأن سمعة الحويطات سيئة عند بدو سيناء، ولأنهم اتهموا فوق ذلك بأنهم نقلوا إلى شبه الجزيرة أمراضًا فتكت بعدد كبير من الإبل والماعز عام 1928.

وما كانت قبائل (الحويطات) تكتفي بتلك الهجرات السلمية إلى سيناء، بل كان للحالة القلقة في بلاد الحجاز بعد حرب سنة 1914 رد فعل في سيناء نفسها، إذ كثرت غارات «الحويطات» على حدودها الشرقية، وكانت القبائل تهاجم مناطق (الحيوات) وغيرها من القبائل مسلحة ببنادقها، مزودة بذخائرها، تنهب الإبل والماشية وتقتل من يقاومها مما دعا إلى أن تقام محطة للهجانة في نقطتي (الكنتيلا والتمد)، واستطاعت القوات أن توقف تلك الغارات المنظمة للحويطات، لكن الغارات الفردية لم يقض عليها إلا بعد إنشاء خط حربي للسيارات على الحدود الشرقية عام 1925، وبعد تنظيم الدوريات المستمرة، الشيء الذي رأى الحويطات معه ألا قبل لهم بمقاومته، وأن محاولة الغارة على سيناء سوف تضربهم كثيرًا[1]...

ولم تكن قبائل الحويطات في منطقة العقبة وما جاورها عامل إقلاق لسيناء وحدها بل كانت تلك القبائل من القبائل التي تحالفت مع قبائل (بلي) وثارت معها ضد قوة السعوديين عام 1932 حتى لا تكون السيادة في بلاد الحجاز لقبيلة (العنازة) التي ينتسب السعوديون إليها، ولشدة وطأة آل سعود على القبائل الأخرى، ولدوافع مختلفة قد يكون بعضها سياسيًا. لكن هذه الثورة انتهت بهزيمة الحويطات، وقتل زعيميهم (ابن رفادة وابن طقيق)... وهذه العداوة قديمة بين الحويطات وآل سعود، فقد استعان محمد علي عام 1811 بحويطات مصر عند حروبه ضد الوهابيين[2]...

وكان لسياسة الشدة التي اتبعتها إدارة سيناء مع قبائل الحويطات، وتحريم انتقال حيواناتهم عبر طرق سيناء الجنوبية والوسطى، الأثر الأكبر في أن تظل تلك القبائل الآن خارج حدود سيناء الشرقية، وأن تنحصر مناطق سكناها في

---

(1) راجع: Jarvis, p. 82.

(2) راجع: العارف، تاريخ بئر السبع، ص 115، و Murray, *Sons of Ishmael*, p. 248.

شبه الجزيرة في وسطها الغربي حيث يعيش فيه تلك البطون المتنقلة من عرب الحويطات التي لم تشتغل بالزراعة في وادي النيل، ونسبتها ضئيلة إذا قسناها بقبائل الحويطات التي استفلحت الآن في مصر سيما في مديرية القليوبية حيث يشتغل بالزراعة من رجالها ما يزيد على خمسة آلاف، قل أن يتركوا أراضيهم التي استقروا فيها الآن تمامًا[1]... وما يستقل الحويطات بمناطق سكناهم في سيناء وإنما يشاركهم فيها قبائل أخرى من «الترابين والحيوات والعليجات» وهم يعيشون في حالة تنقّل مستمر لا في داخل سيناء وحدها بل يتجاوزونها إلى المنطقة التي تعودوا أن يتنقلوا فيها على حافة الأراضي المزروعة بين القاهرة والسويس، يتصلون بأقاربهم الذين استقروا في الدلتا ويتزاورون معهم باستمرار، ومن الصعب أن تتغير طبيعة حياة الحويطات هذه لأن المناطق التي يسكنونها لا يمكن أن تساعد على عيشة الاستقرار.

وأراضيهم في وسط سيناء الغربي تمتد تقريبًا من تجاه الاسماعيلية إلى وادي غرنديل، ويكثرون في وادي جدي وأم خشيب ووادي الراحة، ثم قرب السويس شرقي بئر مبعوق والمرة، كما يسكن أحد بطونهم (الدبور)[2] في وادي صدر وحول عين صدر نفسها. وإذًا فالخريطة التي رسمها (مري) في كتابه لم تكن دقيقة في تعيين حدود مناطق سكنى تلك القبيلة ولعله أراد برسمه بيانًا تقريبيًا لمجرد الشرح والتوضيح، وقد يكون له شيء من العذر نظرًا لصعوبة تعيين الحدود بين القبائل المختلفة وتداخلها بعضها مع بعض في مثل هذا الجزء من سيناء[3]...

5- **العيايدة**: وقد سبقت الإشارة إلى أنهم بقايا عرب العائذ الذين كانت لهم دركات طريق الحج عبر سيناء، وكان ضعف أهمية ذلك الطريق داعيًا إلى أن تسكن معظم تلك القبيلة خارج حدود سيناء الغربية، وإلى أن تنكمش أراضيها في سيناء إلى المناطق المحدودة جدًا التي أصبحت لها الآن، وقد تم هذا الانكماش بالشكل الآتي:

---

(1) راجع تقرير براملي بك، ص 31، وإحصائيات وزارة الحربية عن القبائل العربية في مصر 1929.

(2) راجع على سبيل الفكاهة ما يذكره بعض الكتّاب تعليلًا لاسم (الدبور): Hull, pp. 64-65.

(3) تراجع الخريطة التي رسمها مري من كتابه الذي سبقت الإشارة إليه: Murray, *Sons of Ishmael*, p. 247.

ويراجع كذلك الخريطة صفحة 151 المرفقة بهذا الكتاب.

أ- كان للعيايدة أراض في جنوب شرقي السويس، رآهم الرحالة الشهير (بوكوك)[1] في منتصف القرن الثامن عشر يسكنونها، وقد حل محلهم فيها الآن قبائل أخرى مختلفة لا تمثل العيايدة بينها.

ب- كان للعيايدة مناطق تمتد من نخل إلى قطية، لكن عرب (الترابين) في توسعهم في شبه الجزيرة أجلوهم عن كثير من تلك المساحات وأبعدوهم إلى ناحية برزخ السويس ثم حلوا هم محلهم وأصبحت معظم تلك الأراضي لهم الآن[2].

ج- كان لهم نخيل في وادي فيران، اضطروا - حين رأوا أنفسهم بعيدين جدًا عن جنوب سيناء - إلى أن يبيعوه في عام 1904 إلى قبائل (العوارمة) من فروع (الصوالحة)، الذين يسكنون جنوب سيناء، والذين يستطيعون بذلك أن يستغلوا وادي فيران[3].

بهذا الشكل إذا تحددت بلاد (العيايدة) في سيناء في تلك المنطقة «من ضواحي القنطرة إلى تل حبوة، فالمرقب، فأم ضبان، فالشيخ حميد، فجبل الريشة»، يحدّهم من الشمال (المساعيد) ومن الجنوب (الحيوات الصفايحة) ومن الشرق (بلي) ومن الغرب قناة السويس[4]، التي تفصل بين العيايدة في سيناء وبين جزء أكبر منهم ينزل إلى الغرب من القناة، ويكون صلة بين عيايدة سيناء والعيايدة المنتشرين في وادي النيل[5]... والعيايدة لا تكفيهم تلك المساحة الفقيرة التي انتهت إليها أملاكهم في شبه جزيرة سيناء، ولذا فهم دائمو الانتقال، يهاجرون جنوبًا بعد المطر حتى جبال الجلالة الشمالية، وينتشرون غالبًا في المناطق الواقعة شمال خط يمتد بين القاهرة والسويس[6]...

3- **المنطقة الجنوبية**: وتشمل ذلك المثلث الجبلي المرتفع المنحصر بين خليجي السويس والعقبة، والذي يتكون معظمه من صخور نارية تقطعها

---

(1) راجع: Pococke, p. 137.

(2) راجع: Haynes, pp. 135 and 296.

وراجع في كتاب عارف العارف في تاريخ بئر السبع وقبائلها (ص 163) فهو يذكر أن أراضي العيايدة كانت تمتد إلى كثير من ذلك فتصل قبل هزيمتهم إلى العريش.

(3) يراجع: شقير، ص 110.

(4) يراجع: المصدر نفسه، ص 122.

(5) يراجع توزيع العيايدة في مديريات مصر المختلفة في هذا الفصل من الكتاب.

(6) يراجع: Murray, *Sons of Ishmael*, p. 244.

الخوانق والوديان متعمقة فيها، يضاف إليه هذان السهلان الساحليان اللذان ينحصران بين تلك الكتل النارية وبين خليج السويس من ناحية وبينها وبين خليج العقبة من ناحية أخرى. وما دام الماء في تلك الجهة أكثر توافرًا في كثير من نواحيها، والحياة النباتية أشد غنى فيها، فمن الطبيعي أن تكون الحياة البشرية هنا أفضل مما صادفناه في المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة، وهي ظاهرة لها ما يؤيدها في بقايا المساكن الكثيرة المنتشرة في أنحاء هذه المنطقة، وفيما يشاهد من أن حياة عدد كبير من القبائل الساكنة فيها أكثر ثباتًا واستقرارًا.

كذلك سوف يلاحظ أنه في مثل هذا الجزء الجبلي الذي تتعمق وديانه وتكون أشبه بالخوانق المتميزة، يصبح توزيع القبائل فيها متميزًا كذلك، تكاد تستقل كل قبيلة بجهات خاصة لا يشاركها فيها غيرها لأن الطبيعة قد ضمنت ذلك الانفصال وعملت على تقويته... وعلى حين أن هذه الظاهرة ليست غالبة الوجود في الشمال والوسط حيث يعظم تداخل القبائل هنالك لعدم وجود تحديد طبيعي يفصل بين مناطق القبائل ويميزها بعضها عن بعض، نجد أن هذه الظاهرة مطردة لا تشذ في كل جهات سيناء الجنوبية إلا في جهتين، أولاهما: واحة فيران حيث تمثل قبائل الجنوب كلها فيها تقريبًا، والثانية: في خارج منطقة الصخور النارية، في تلك المناطق الرسوبية الواقعة إلى الشمال الشرقي للمنطقة وإلى شمالها الغربي... أما في واحة فيران فتفسير تداخل القبائل فيها أمر واضح، لأنها منطقة الحياة النباتية الغنية في جنوب سيناء وموضع طمع القبائل كلها، فيكون لكل من قبائل الطوارة منطقة في الواحة تبني فيها أكواخها، وتجتمع فيها مدة الصيف لجمع البلح، لكن أفرادها لا يأتون بإبلهم وحيواناتهم إليها لأن المرعى فيها لا يكفي ولأن البعوض فيها كثير يخشى على الحيوانات منه، فإذا انتهى موسم البلح تركت القبائل واحة فيران إلى الجهات المجاورة لها تاركة الأمر لبقايا (التبنة) الذين يتولون هم مهمة العناية بالنخيل ويتعهدون الزراعة في الواحة لحساب القبائل المختلفة مقابل نصيب خاص لهم... وأما تداخل القبائل في المنطقة الرسوبية في شمال شرقي المنطقة وفي شمالها الغربي فمفهوم أيضًا لأن طبيعة الأرض هناك لا تتميز حدودها، ولا يمكن أن يقوم فيها ما يستطيع أن يقف حائلًا بين تداخل قبيلة في أراضي قبيلة أخرى، ومثل ذلك يلاحظ في تداخل قبائل (العليجات) من الجنوب وقبائل (الترابين والحيوات الصفايحة والحويطات) من الشمال في المنطقة جنوب شرقي

السويس، وتداخل قبيلة (مزينة) - من بدو الجنوب - (والترابين والحيوات) في الشمال الغربي لخليج العقبة.

وتسير أهمية مراكز السكنى في جنوب سيناء سيرًا مطردًا مع توزيع الماء والحياة النباتية في جهات سيناء الجنوبية ولذا يسهل تعيينها وربط القبائل المختلفة بها كما يأتي:

أولًا، مراكز تأتي في الدرجة الأولى بين مناطق سيناء الجنوبية، تنقل القبائل بينها محدود، يتمتع فيها السكان بشيء من الاستقرار. وهذه هي المناطق التي يوجد الماء فيها دائمًا، والتي يتوافر النبات ويقوم بها شيء لا بأس به من الزراعة، نصادفها منتظمة سواء في حدائق الدير أو في مزارع القبائل المتعددة في جهات متفرقة في الجنوب... ومثل هذه المناطق يمكن أن نلخصها في:

أ - منطقة جبل موسى وحوض وادي فيران وما يتصل به من روافد مختلفة مضافًا إلى ذلك تلك الوديان التي تجري في المنطقة الجبلية إلى ناحية خليج السويس وبخاصة عسلة وحبران... وهذه هي أغنى جهات سيناء الجنوبية بالماء وأكثرها توافرًا في النبات، وتلك المناطق يستقل بسكناها قبائل الصوالحة، ويقتسمها فيما بينهم فروعها الهامة: القرارشة والعوارمة وأولاد سعيد لا يشاركهم فيها إلا الجبالية الذين عملوا في خدمة الرهبان منذ مدة ولا يزالون يعملون في خدمتهم حتى الآن، وإلا بقايا قليلة من قبيلة (التبنة) التي كانت تسكن وادي الفيران والتي تضاءلت الآن، فما تتجاوز عدة بيوت تعمل لحساب الصوالحة في ذلك الوادي، وتتولى لتلك القبائل البدوية عملية الزراعة والاعتناء بالماء مقابل أجر معلوم لها.

أما الصوالحة هؤلاء فيرجعون بنسبهم إلى (حرب) من قبائل الحجاز، رحلوا إلى (ضبا) أولًا ثم توسعوا في بلاد الطور[1]. على حساب الحماضة خاصة وبني واصل والنفيعات[2] بوجه عام، وهم الآن يمتلكون قلب بلاد الطور، تمتد أملاكهم فتصل غربًا حتى المنطقة الرسوبية من أبي دربة إلى جنوبي مدينة الطور، تحدّهم قبائل العليجات من الشمال، وتكاد تفصلهم عن

---

(1) راجع: شقير، ص 114. وقد أكد لي هذا النسب مشايخ البدو الذين قابلتهم في جنوب سيناء في صيف عام 1934.

(2) راجع ما سبق ذكره في هذا الفصل من الكتاب خاصًا بهذا.

مزينة من الشرق والجنوب مرتفعات خط التقسيم. وإذا كان لفروع الصوالحة كلها أراض تزرعها في وادي فيران، فإن أملاك كل فرع هنالك محدودة معروفة: (فأولاد سعيد) أكثرهم اتساعًا، ينتشرون قرب نهاية وادي فيران ممتدين شرقًا في نقب هوى، ووادي الشيخ، ومنطقة الدير، ويمتدون جنوب وادي فيران في منطقة أم شومر وحوض وادي ميار وعسلة وحبران إلى أن يصلوا إلى منطقة الطور... وأما (القرارشة) فيمتلكون من واحة فيران وجبل سربال وينزلون في المنطقة بين نسرين وفيران إلى البحر بما في ذلك وادي مكتب وقنا ممتدين في المنطقة الساحلية من أبي دربة حتى سهل القاع. ويجاور هؤلاء ناحية الشمال (العوارمة) الذين يطلق اسم الصوالحة عليهم وحدهم أحيانًا والذين يسكنون من حمير ووادي الخميلة وبودره حتى نسرين...

وأما الجبالية - وعددهم الآن حوالى الخمسمائة - فيعملون في خدمة الدير ويغلب أن تكون تسميتهم منسوبة إلى المنطقة الجبلية المرتفعة التي يسكنونها، إذ هم ينزلون في منطقة جبل موسى وسانت كاترين. وهم يختلفون اختلافًا ملموسًا عن سائر بدو الجنوب في تقاطيعهم وطبائعهم، مما حدا بغالبية الكتّاب إلى أن يعتبروهم من غير البدو وإلى أن يقولوا عنهم إنهم من سلالة أولئك (الفلاخيين) الذين أتى بهم الامبراطور (جستنيان) حين بنى الدير ليحموا رهبانه وليحولوا بينهم وبين هجمات البدو الذين قاسوا منهم كثيرًا[1]. ولعل مما ساعد على أن يذهب أولئك الكتّاب هذا المذهب أن بدو سيناء الجنوبية ينظرون إلى الجبالية كأنهم أقل منهم مكانة، لا يتصاهرون معهم ولا يحترمونهم، وأن الجبالية يخالفون البدو في أنهم يعملون في زراعة حدائق الدير ويخدمون الرهبان، وفي أن الرهبان يتعهدون بمأكلهم ويوزعون الخبز عليهم يوميًا[2]... مع ملاحظة أن الجبالية هؤلاء كانوا مسيحيين

---

(1) الكلام في أصل الجبالية كثير فمن الكتّاب من يرى هذا الرأي مثل: Robinson, vol. 1, pp. 136-137.

وبيدنل فيما نقل عن بركهاردت وغيره: Beadnell, p. 12.

ورتر يقول إنهم فرق من الصوالحة، في الجزء الأول من الترجمة الإنكليزية (صفحة 2385) وسينسر بالمر يقول بأنهم خليط من السكان الأراميين السابقين وسبايا جستنيان والمهاجرين من جزيرة العرب: Palmer, *Sinai from the Fourth Egyptian Dynasty*, pp. 66-67.

(2) يوزع عليهم الخبز صباحًا كل يوم فنشاهدهم جميعًا واقفين بجانب أسوار الدير انتظارًا لتوزيع الخبز. وما يعتمد الدير في خبزه على الإنتاج المحلي بجنوب سيناء فهذه منطقة فقيرة لا تكفي ولذا يستورد الرهبان حبوبهم من مصر ويطحنونها في طاحونة الدير.

ولكنهم دخلوا جميعًا في دين الإسلام الآن وماتت آخر امرأة مسيحية منهم عام 1750[1]...

لكن ألا يمكن أن ننظر إلى الجبالية هؤلاء نظرة أخرى غير هذه فنعتبرهم بدوا لا يبعد أن يكون الرهبان قد قربوهم إليهم من أول الأمر وخصّوهم بحماية ديرهم وأشركوهم معهم في العناية بحدائق الدير ومزارعه وأصبحوا بهذا في شبه عزلة عن باقي القبائل الأخرى ينظر إليهم البدو كأنهم خدام النصارى؟ ثم ألا يمكن أن نفرض أن شيئًا من الاختلاط بين الرهبان - وقد كان عددهم كبيرًا - وبين هؤلاء الجبالية قد يكون من الأسباب الداعية إلى ذلك الاختلاف الذي يظهر في تقاطيع الجبالية إذا قارناها بتقاطيع غيرهم من البدو الآخرين؟

ب- الوديان الأخرى التي تقطع المنطقة النارية متصرفة إلى خليج العقبة، والتي أهمها (أم عدوى والكيد ونصب) فماؤها كذلك دائم والنبات فيها متوافر، ويوجد قرب مصباتها في الخليج مناطق غنية بالنخيل حول الشرم وذهب وغيرهما يروي نخيلها ذلك الماء الذي يجري في تلك الوديان والذي يتراجع إلى الخلف قليلًا عند المصب محجوزًا بماء البحر هناك.

ويكاد يستقل بهذه الوديان قبيلة (مزينة) التي تنزل المنطقة شرقي الدير وإلى جنوبه الشرقي، يفصل بينها وبين الصوالحة تقريبًا خط التقسيم بين مياه خليج السويس والعقبة، وهي تمتد على طول خليج العقبة حتى يحدها في امتدادها الشمالي القبائل النازلة إلى غربي رأس خليج العقبة وجنوب شرقي التيه من تياها وترابين.

وتعتبر مزينة أحدث القبائل التي جاءت إلى سيناء الجنوبية، انتهزت فرصة حرب وقعت بين الصوالحة والعليجات على موارد شبه الجزيرة ونقل الحجاج فنزلت أراضي سيناء وانتصرت للعليجات ضد الصوالحة. وكثير من الكتّاب ومنهم (دوتي) يرجعون مزينة إلى قبيلة حرب بالحجاز، وإن كان (مرى) يرى احتمال نسبتهم إلى قبيلة مزينة المعروفة ببلاد العرب قديمًا والمنسوبة إلى مزينة بنت كلب من نسل قحطان بطريق قضاعة[2].

---

(1) راجع: Augusta M. R. Dobson, *Mount Sinai: A Modern Pilgrimage* (1925), p. 105.

(2) راجع: Murray, *Sons of Ishmael*, p. 264.

ج- منطقة الطور حيث يتوافر النبات، سواء في تلك الحدائق الموجودة حول المدينة نفسها أو في وادي الحمام ومنطقة جبيل. وقد رأينا أن أراضي أولاد سعيد من الصوالحة تمتد حتى مدينة الطور وما حولها، لكن يسكن في حمى أولاد سعيد أو معهم بقايا من بعض القبائل التي كان لها أهميتها قديمًا والتي كانت تنتشر في جنوب شبه الجزيرة أكثر مما هي الآن فتصل إلى فيران بل وإلى حدود التيه، ثم تضاءلت أمام الهجرات القوية الحديثة وهاجر معظمها من سيناء دون أن يترك إلا بقايا لها نصادف منها حول الطور (المواطرة) يزرعون في حديقة الحمام هناك، وعدة عائلات من بني سليمان الذين سبق القول بأنهم كانوا من أقدم من سكن شبه الجزيرة كما كانوا من أوسعهم نفوذًا[1].

ويشتغل السكان في منطقة الطور بشيء من صيد السمك يعتمدون عليه كعمل مساعد في مثل تلك البيئة الفقيرة الإنتاج. وليس أمامنا إحصائيات دقيقة عن مبلغ اشتغال سكان هذه المنطقة بصيد السمك، إذ كل ما ذكر في تقارير مصلحة الأسماك التي رجعنا إليها إشارة موجزة في تقرير عام 1932 عن أن مجموع ما حصل في الطور إيجارًا لمراكب الصيد فيها بلغ 114 جنيه و 410 مليم[2]... وهي إشارة غامضة تحتاج إلى شيء أكثر من التفصيل. على أن مثل هذا المبلغ يمكن أن يفهم منه بوجه عام قيام حرفة الصيد في منطقة الطور وإن كان عدد المشتغلين بها عددًا قليلًا محدودًا.

ثانيًا، مناطق أفقر سكانا من المناطق السابقة، درجة تجمع القبائل فيها أقل والبيئة الطبيعية فيها لا يمكن أن تتمتع القبائل معها بمثل ذلك الاستقرار النسبي الذي يقوم في المراكز السابقة، وهذه المناطق توجد في تلك السهول الرملية والتكاوين الرسوبية التي تحف بخليجي السويس والعقبة والتي يعتبر أشدّها فقرًا تلك المنطقة الغربية إلى الجنوب الشرقي للسويس وسهول القاع والمرخاء والسهول الرملية في دبة الرملة، ثم تلك السهول الساحلية الضيقة على ساحل خليج العقبة الغربي.

---

(1) يراجع في هذا الفصل ما كتبناه عن القبائل التي ضعف شأنها في سيناء.

(2) راجع تقرير مصلحة الأسماك لعام 1932، ص 46، ويصح أن نذكر على سبيل المقارنة أن جملة ما حصل إيجارًا عن مراكب الصيد في العريش في نفس السنة بلغ 72470 جنيهًا.

وتلك مناطق فقيرة جدًا بنباتها والماء فيها من نوع لا يمكن أن يستفاد منه في الشرب كثيرًا. وقد يكون أفضل هذه المناطق الرسوبية للسكنى تلك المساحات التي انتابتها العيوب فساعدت على ظهور الماء فيها وجعلتها أكثر صلاحية للسكنى من الجهات الرسوبية الأخرى في الجنوب، ومثال ذلك المنطقة حول أعالي وادي الغرنديل ووادي أبي قادة وواطه حيث يتوافر الماء بكثرة، والمنطقة المعيبة الأخرى في الركن الشمالي الشرقي لسيناء الجنوبية في منطقة عين الحديرة وما يجاورها وفي وادي واتر والعين.

وإذا نحن استثنينا منطقة سكنى (العليجات) في الركن الشمالي الغربي من المثلث الجبلي الجنوبي، فما يسكن هذه المساحات الرسوبية الفقيرة إلا بيوت قليلة من القبائل الرئيسية التي تعيش في المناطق الغنية التي مرت الإشارة إليها في المنطقة السابقة، وهي تعتبر هذه المنطقة غالبًا مراكز ثانوية لا تعتمد عليها في الحياة كثيرًا، فقد مر أن للقرارشة من فروع الصوالحة المنطقة الرملية جنوب أبي دربة حتى سهل القاع لكن مساكنها الرئيسية مركزة بين البحر وفيران، وفي وادي نسرين. كما مر أن مزينة تمتد مساكنها على الساحل الرملي الذي يحف بخليج العقبة في حين أن مساكنها الرئيسية تقع في مناطق أكثر غنى في وادي كيد ونصب وحول منطقة الحديرة التي يكثر فيها الماء والنبات، أما هذه البيوت الضاربة في المنطقة الرملية على الساحل فقد اضطرت إلى أن تلجأ إلى البحر لتشتغل بالصيد كحرفة تساعدها على الحياة في تلك البيئة المجدبة القفراء.

أما قبائل (العليجات) - أو العليقات - التي تكاد كل مساكنها تقع في المنطقة الرسوبية إلى الشمال الغربي لمساكن الصوالحة، فينسبون أنفسهم إلى قبيلة قديمة من بني (عقبة)[1]... وإن كان شيخهم الحالي يرى أن هذه التسمية محرفة وأنهم في الحقيقة (عقيلات) لا عليقات[2]... ينسبون إلى «عقيل بن أبي طالب»، وهو كلام ينبغي أن يؤخذ بشيء من الحذر فقد يكون القصد منه مجرد الانتساب إلى بيت أبي طالب تشرفًا وتعظيمًا. هبطت هذه

(1) راجع: Murray, *The Sons of Ishmael*, p. 263.

(2) علل الشيخ (زيدان) هذا التحريف بأنهم حين وصلوا إلى سيناء قالت العرب عندئذ (عرب العلا - جات) فسموا (العليجات).

القبيلة سيناء بعد الصوالحة، وسكنت أولًا منطقة (النويبع والحديرة) قبل أن تصل مزينة. وقد رأينا (العليجات) يحالفون (النفيعات) ضد الصوالحة، ثم يحصل قحط فيهاجر معظم النفيعات إلى مصر تاركين بقايا لهم يعرفون (بالسواعدة) يسكنون في حمى العليجات بعد أن حلّت تلك القبيلة محلهم في غربي شبه الجزيرة لتحل مزينة محل العليجات في مناطق سكناهم الأولى في الجنوب الشرقي لسيناء.

وإذا كانت مساكن (العليجات) الحالية تنحصر في المنطقة الرسوبية، فهم ينزلون في المناطق الغنية بالماء والنبات فيها، في دبة الرملة ووادي الغرنديل وعيون موسى، ولهم وادي صدر وباغة وأبو جعدة ومنطقة وادي نصب، ولهم في الرملة حتى جبل «حمير»، وحيث تمتد قبائل (مزينة) إلى الشرق منهم على حين يسكن الصوالحة إلى الجنوب، ويختلطون إلى جنوب عيون موسى ببيوت (الترابين) التي سبق توزيعها في ذلك الجزء، والتي ينظر إليها «العليجات» كأنها دخيلة على المنطقة لا حق لها فيها.

ولعلّ من حسن حظ «العليجات» أن تقع في أراضيهم منطقة تعدين المنجنيز الهامة في هذا الجزء من سيناء الجنوبية، في منطقة أم (بجمة) وأبي زنيمة، حيث توجد خاماته بسيناء في المنطقة حول خط عرض 29 شمالًا وخط 30 ’33° من خطوط الطول شرقًا على بعد حوالي 10-15 ميلًا من خليج السويس[1]... وهذا المعدن له قيمته الاقتصادية، بدئ استغلاله منذ عام 1914 وأوقف العمل فيه عام 1929 وإن كان العمل قد تعطل في المناجم في فترة حرب سنة 1914 لتهديد قوات الأتراك وحلفائهم لهذا الجزء من سيناء، وما يرجع إيقاف العمل في المناجم أخيرًا إلى شيء متصل بطبيعة المعدن نفسه من حيث قلّته أو رداءة صنفه، فالمعدن لا تزال كميّته كبيرة، والنوع لا يزال من أحسن أنواع المنجنيز كلها، لكن الاستهلاك العالمي قد نقص بتأثير الأزمة، والطلب على المنجنيز قد قل بدرجة اضطرت معها الشركة إلى أن توقف العمل في مناجمها في (أم بجمة)، وهي حالة طارئة قد تزول بزوال أسبابها وانفراج الأزمة العالمية.

---

(1) يراجع في تفصيل ذلك تقرير مصلحة المناجم عن صناعة التعدين في عام 1924، والتقارير اللاحقة لذلك.

ومناجم المنجنيز قبل أن يوقف العمل فيها كان يشتغل بها أكثر من 500 شخص، جزء منهم من أهالي الوجه القبلي، والجزء الآخر من البدو... والمهم أن مدير الشركة الذي تولى الإدارة منذ أعيد العمل في المناجم بعد حرب سنة 1914 يرى «أن البدو أهل للعمل في المناجم، ويقول بأنهم يتحملون كثيرًا، وأنهم وإن بدأوا جهلة فالذنب أنهم لم يعلموا، وأنهم يتقدمون كثيرًا بالتعليم والممارسة...»[1] وتلك شهادة لها أهميّتها إذا نظرنا إلى المستقبل وفرضنا اتّساع نطاق العمل في هذا المعدن، إذ ستكون هذه فرصة طيبة لسكان هذه المنطقة من البدو، ولن يبعد أن تقوم حول أبي (زنيمة) منطقة استقرار، نواتها تلك المساكن الحالية التي أقامتها الشركة لمن يشتغل في مناجمها من موظفين وعمال.

❊ ❊ ❊

أما علاقة القبائل الجنوبية بما يجاورها من القبائل خارج حدود سيناء فينبغي أن يفرق فيه بين فلول القبائل التي كانت تسكن سيناء ثم هجرتها أمام هجرات أقوى منها حلّت محلها في جنوب سيناء وبين القبائل التي هبطت سيناء في فترات أحدث نسبيًا، فطبيعي أن تكون تلك الفلول من قبائل (بني واصل والنفيعات وبني سليمان)، التي توجد قبائلها الكبرى الآن في وادي النيل، متصلة بها كل الاتّصال، وأن تقوم هنالك علاقات قوية بين بني واصل في سيناء وقبائل بني واصل في مديريات الصعيد، وبين بني سليمان والنفيعات في سيناء وبطونها الأخرى في مديرية الشرقية، حتى إنه لا يزال للنفيعات مثلًا أراض يمتلكونها إلى الآن في أودية سيناء الجنوبية: نصب وبعبعة وفيران.

أما القبائل التي وصلت إلى سيناء في فترات أحدث فتختلف علاقاتها بحسب موقعها في جنوب شبه الجزيرة: إذ المعقول أن تكون قبائل (العليجات) - بحكم أن مساكنها أقرب إلى وادي النيل من باقي قبائل سيناء الجنوبية، ولوجود قبائل عديدة منها متفرقة في أنحاء وادي النيل

---

(1) هذا الكلام هو ما صرح به جناب مدير الشركة (مستر سمث) لي عند زيارتي لمركز الشركة في أغسطس سنة 1934.

سيما في القليوبية وأسوان[1] - أشد اتّصالًا بقبائل وادي النيل من غيرها وأن تكون قبائل (مزينة) - بحكم موقعها على ساحل خليج العقبة الغربي - أشد اتصالًا بقبائل الحجاز من غيرها، وإن كانت إدارة سيناء لم تشجع كثيرًا على تقوية العلاقات بين قبائل سيناء وقبائل الحجاز عندما اضطربت الحالة في الحجاز عقب حرب سنة 1914. وأما (الصوالحة) فلعلهم أكثر قبائل الجنوب استقلالًا وعزلة عن جيرانهم - بحكم توسطهم في قلب سيناء الجنوبية - وإن كان ذلك لا يمنع من أن تمتد صلتهم بعض الشيء خارج حدود سيناء، فهم قد ارتبطوا بمصر في فترات طويلة بما كان لهم من حق في نقل الحجاج إلى منطقة الدير. ومن الصوالحة حوالى 2500 شخص يسكنون في الدلتا حول «قليوب»[2] يرجع (نعيم بك شقير) وجودهم هنالك إلى حدوث مجاعة في سيناء اضطر معها جزء من العوارمة وأولاد سعيد من فروع الصوالحة إلى أن يهجروا سيناء، ولا يزال لهم نخيل في وادي فيران يملكونه حتى الآن[3]...

التقسيم العام لسيناء من حيث درجة توافر الرخاء فيها

والآن هل يمكن الخروج من كل تلك الدراسة السابقة للماء والنبات وتوزيع القبائل بتعيين مناطق متميزة في شبه الجزيرة تكون الطبيعة قد سخت فيها فجعلتها أكثر احتمالًا أو قست عليها فأصبحت الحياة فيها صعبة لا تطاق، أو تركتها بين السخاء والقسوة تتطلب الجهد الإنساني لكي يستطيع الإنسان أن يعيش فيها؟ أو بمعنى آخر هل يمكن أن نتلمس في سيناء تلك الأقسام المختلفة التي يقسم الكتّاب مناطق السكنى البشرية إليها - مناطق الغنى، ومناطق الفقر، ومناطق الضعف، ومناطق الارتحال، ومناطق العمل، ومناطق الصعوبة الدائمة - ناظرين في ذلك إلى درجة توافر الرخاء؟. الواقع أنه يجب - بعد كل ما تقدم - أن نكون مقتصدين هنا جدًا في فهم معنى تلك الاصطلاحات، وأن تؤخذ

(1) يراجع تقرير (براملي) عن القبائل العربية في مصر تحت اسم (العليجات)، وتراجع إحصائيات وزارة الحربية عن توزيع القبائل في مصر، وسنجد فيها أن من العليجات حوالي 4000 شخصًا يسكنون القليوبية وحوالي 6000 شخصًا يسكنون في أسوان.

(2) راجع إحصائيات وزارة الحربية عن القبائل المصرية الذي عمل في سنة 1929.

(3) راجع: شقير، ص 114.

دائمًا بمعنى ضيق محدود، وتفهم على أنها تعابير نسبية بين مناطق شبه جزيرة سيناء المختلفة.

وسيظهر عند تلمس الأقسام الستة السابقة أن منها ما لا يمثل في سيناء مطلقًا، وأن فيها أقسامًا اقتضت ظروف سيناء وطبيعة سكانها أن يتداخل بعضها في بعض بحيث يمكن أن توضع المنطقة الواحدة تحت أكثر من قسم واحد:

- أما مناطق الغنى: تلك المناطق التي تجود فيها الطبيعة بأكثر من حاجات الإنسان، والتي ينشط فيها السكان فتزداد مكافأة الطبيعة لهم، فهذه مناطق لا تساعد ظروف سيناء على أن نجد ما يمثلها فيها، وما ينتظر في بيئة تكاد تكون صحراوية فقيرة في مائها ونباتها أن يتلمس فيها مناطق غنى مهما فهم اللفظ بمعناه الضيق المحدود.

- وأما مناطق الفقر: فمعقول أن تمثل بكثرة هنا في تلك المناطق التي تقسو الطبيعة فيشتد بخلها بالماء والنبات، ويتعذر على السكان تبعًا لهذا أن يجدوا قوتهم فيها أو يصادفهم ما يمكن أن تعتمد عليه حيواناتهم من مرعى ومياه، ولذا كانت مثل هذه المناطق غير محببة إلى بدو سيناء، يندر أن يسكنها إلا بيوت قليلة من بعض القبائل إلى أجل معلوم... ولعل خير ما يمثل مناطق الفقر في سيناء هي هذه السهول الرملية التي تحف بخليج العقبة في ضيق أو التي تقع متسعة على جانب خليج السويس ممثلة في سهل القاع والمرخاء وتلك المساحات الصحراوية القفرة إلى الجنوب الشرقي من رأس خليج السويس، ثم في منطقة الرمل في دبة الرملة، وفي غالب سيناء الوسطى في هضبة التيه، مضافًا إلى ذلك تحدبات الكثبان...

- ومناطق الضعف: التي تطلق على المناطق التي يعجز الإنسان عن استغلال ثروتها، لا لضعف راجع إليه، بل لصعوبات تضعها الطبيعة يصبح معها الاستغلال في مثل تلك الظروف صعبًا متعذرًا... وليس أمامنا في شبه الجزيرة بحالتها الراهنة ما يمكن أن يؤخذ مثلًا لمناطق الضعف هذه، لكن إذا نظر إلى اتّساع المناطق التي تبعث دراسة العلماء الأمل في غناها بالمعادن، وانتشارها في أماكن يقل ماؤها ويقسو مناخها وتصعب مواصلاتها، فإن مثل تلك المراكز يمكن أن تدخل في دائرة مناطق الضعف، إذ أنه لن يتمكن الإنسان

من استغلالها عندما تكتشف معادنها إلا بالتغلب على صعوبة المواصلات وحل مشكلة الماء.

- أما مناطق الارتحال: التي يضطر السكان إلى أن يعيشوا فيها متنقلين ما دامت الموارد فيها غير ثابتة ولا مضمونة، فغالب جهات سيناء المسكونة مناطق ارتحال يعيش أهلها عيشة التنقل المستمر بين سيناء وما يجاورها في الشرق والغرب: فوديان شبه الجزيرة في نصفها الشمالي بوجه خاص وديان غنية بمرعاها وإنتاج الحبوب في مواسم سقوط المطر، لكن ذلك المطر غير مضمون يسقط عامًا وقد ينقطع أعوامًا، وإذا فلا بد للبدو عندئذ من أن يتلمسوا مرعاهم خارج سيناء حيث يكون المطر أشد ضمانًا والرعي أكثر توافرًا... والظاهر أن الأمل ليس قريبًا في تحول مناطق الارتحال هذه إلى مناطق سكني واستقرار، لا لأن السكان أنفسهم يصعب أن يتحولوا إلى حياة الاستقرار بل المشكلة الأساسية هي تهيئة الظروف التي تسمح بذلك الاستقرار، وبتوفير الماء لسنين الجفاف الكثيرة والاستفادة من ماء المطر أكثر مما يستفاد منه الآن... والواقع أن اهتمام إدارة سيناء بتلك الناحية ودراستها دراسة وافية اهتمام بسيط جدًا، وتجارب الهيئات المختصة في مثل تلك المشروعات تكاد تكون معدومة هناك، ومن الصعب مع انعدام مثل هذه المعلومات عن مدى نجاح التجارب وفشلها أن يقال في مستقبل مناطق الارتحال في سيناء رأى نهائي مقبول.

- ومناطق العمل: التي لا بد أن يبذل الإنسان فيها مجهودًا كيما تعطيه الطبيعة إنتاجًا يسد حاجته، أي أن الثروة في مثل تلك المناطق لا بد من أن تنتزع من الطبيعة انتزاعًا... فهذه مناطق ممثلة في سيناء في الأراضي التي تقوم الحياة النباتية فيها على ما يحفر من آبار، وعلى بعض تلك العيون التي يبذل الجهد لتنظيم الاستفادة منها. وخير أمثلة لذلك هي منطقة «عين الجديرات» التي أقيم خزان عليها، وركب الرافع (الهيدروليكي) للاستفادة من الماء في الأراضي الأكثر ارتفاعًا، ومدّت الأنابيب لتوصيله إلى أكبر مساحة ممكنة... وفي عين (الحديرة) في جنوب شرقي سيناء، التي نظمت الاستفادة منها، وفي مناطق الآبار المتعددة التي حفرت في شمال سيناء سيما في منطقة رفح والعريش، أو في جنوب سيناء الغربي في جوار الطور.

- أما مناطق الصعوبة الدائمة: التي تطلق على المناطق المحدودة الإنتاج، والتي لا تكفي ثروتها إلا لعدد معيّن من السكان، فهذه ممثلة في أغنى جهات سيناء وأكثرها سكانا واستقرارًا، سواء في الوديان الجنوبية الغنية بمائها الدائم في (فيران ونصب والكيد)... أو في المراكز الغنية بالماء في الشمال والتي أدخلنا جزءًا كبيرًا منها في منطقة العمل السابقة، لأن مثل هذه المناطق وإن نعتناها بالغني، ولمسنا فيها لونًا من الحياة المستقرة، فهذا غنى نسبي يظهر في هذا الوسط المجدب في سيناء، وحالة استقرار مؤقتة يتمتع فيها السكان بشيء من الهدوء والاطمئنان...



وسنختم دراسة السكان هذه بإحصائيات عن عدد السكان في مراكز سيناء المختلفة وعن متوسط عدد أفراد العائلة في كل جهة منها، وهذه بيانات يصعب أن تتم - في مثل هذه البادية القاحلة - على وجه محكم وأسس دقيقة، لكنها مع ذلك تعطينا صورة مركَّزة لما درس من قبل في توسع وتفصيل، صورة نخرج منها بالأهمية المحدودة لشبه الجزيرة من ناحية حياة الاستقرار فيها، كما نلمس فيها مبلغ التباين بين جهات سيناء المختلفة في درجة العمران، ومن السهل أن يجد القارئ تفسير كل هذا فيما تقدم من شرح وتحليل.

الجدول (1)

عدد سكان كل مركز في كل من الستة تعدادات الأخيرة (1882 - 1937) حسب حدوده الحالية

أقسام محافظة سيناء	النوع	1882	1897		1907		1917		1927		1937	
		عدد السكان	عدد السكان	الزيادة السنوية %	عدد السكان	الزيادة السنوية %	عدد السكان	الزيادة السنوية %	عدد السكان	الزيادة السنوية %	عدد السكان	الزيادة السنوية %
سيناء الجنوبي	ذكور	111	411	18.0	562	3.7	622	1.1	1847	19.7	1763	5.5
	إناث	106	203	6.1	506	14.9	423	1.6-	541	2.8	686	2.7
	جملة	217	614	12.2	1068	7.4	1045	0.2-	2388	12.9	2449	0.3
سيناء الشمالي	ذكور	1949	2079	0.4	3001	4.4	2148	2.8-	5212	14.3	6115	1.7
	إناث	1974	2002	0.1	2896	4.5	2237	2.3-	4266	9.1	4982	1.7
	جملة	3923	4081	0.3	5897	4.4	4385	2.6-	9478	11.6	11097	1.7
سيناء المتوسط	ذكور	-	-	-	192	-	-	-	137	-	570	31.6
	إناث	-	-	-	115	-	-	-	24	-	277	105.4
	جملة	-	-	-	307	-	-	-	161	-	847	42.6
القنطرة شرق	ذكور	23	90	19.4	60	3.3-	-	-	2117	-	1907	1.0-
	إناث	16	59	17.9	75	2.7	-	-	915	-	1711	8.7
	جملة	39	149	18.8	135	0.9-	-	-	3032	-	3618	1.9
جملة المحافظة	ذكور	2083	2580	1.6	3815	4.8	2770	2.7-	9313	23.6	10355	1.1
	إناث	2096	2264	0.5	3592	5.9	2660	2.6-	5746	11.6	7656	3.3
	جملة	4179	4844	1.1	7407	5.3	5430	2.7-	15059	17.6	18011	2.0

الجدول (2)

عدد العائلات والأشخاص بكل ناحية مع بيان مساحتها وتزاحمها بالسكان ومتوسط عدد أفراد العائلة (تعداد سنة 1937)

النواحي	المساحة بالكيلومتر المربع(*)	عدد العائلات	جملة عدد الأشخاص	التزاحم أي متوسط عدد الأشخاص بكل كيلو متر مربع	متوسط عدد أفراد العائلة
قسم سيناء الجنوبي:					
أبو زنيمة	-	165	271	-	2
أم بجمة	-	341	378	-	1
جبيل	-	50	156	-	3
الدير (دير طور سيناء)	-	19	19	-	1
الطور	-	77	291	-	4
محجر الطور	-	570	746	-	1
مصيعد	-	12	27	-	2
المنشية	-	115	512	-	4
وادي الطور	-	13	49	-	4
جملة	-	1362	1362	-	2
قسم سيناء الشمالي:					
بئر العبد (وتشمل موسفيج وبحيرة البردويل وسلمانة وتلول)	-	53	215	-	4
رفح	-	92	437	-	5
الشيخ زويد (وتشمل جبر عمير والحرابة والجورة وجوادة)	-	78	395	-	5
العريش (وتشمل أبو سقل والمنشية والأرطة والشواديف والمطار)	-	1586	9701	-	6

يتبع

(*) مساحتها ليست معروفة

تابع

مزار (وتشمل سبيكة والزرانيق وتلول ومحطة البردويل)	-	87	349	-	4
جملة	-	1896	11097	-	6
قسم سيناء المتوسط:					
الحسنة	-	14	46	-	3
رأس النقب	-	31	45	-	1
طابا	-	31	66	-	2
القصيمة	-	223	539	-	2
الكونتلا	-	31	79	-	2
نخل وصدر	-	53	72	-	1
جملة	-	383	847	-	2
قسم القنطرة شرق:					
الروماني	-	76	347	-	5
الشط وعيون موسى	-	88	325	-	4
القنطرة شرق	-	493	1927	-	4
مساكن عمال سكة حديد فلسطين وكيلو 16.8	-	194	1019	-	5
جملة	-	851	3618	-	4
جملة محافظة سيناء	-	4492	18011	-	4

ملحق (1)

الحدود الشرقية لشبه جزيرة سيناء

إن سيناء التي يدور البحث عليها هنا هي التي عيّنت حدودها الشرقية تلك الاتّفاقية «التي وقع عليها وتبودلت في رفح في أول أكتوبر عام 1906 بين مندوبي الدولة العلية ومندوبي الخديوية الجليلة»[1]... وهذا التحديد جاء نتيجة لحادثة (طابا)، واحتكاك تركيا في مناطق نفوذها وأملاكها التي كانت لها في الجزيرة العربية وبلاد الشام بمنطقة النفوذ التي أصبحت لإنجلترة في مصر بعد احتلالها لها عام 1882، وهو احتكاك ما كان يمكن أن تترك معه حدود مصر الشرقية كما كانت دون أن تعين تعيينًا واضحًا، سيما وأن السلطان كان يسمح بأن يتجاوز نفوذ ولاته في مصر حدود سيناء إلى قلاع الحجاز، عندما كانت مصر تخضع لحكم الدولة العلية... ولقد ظهرت مخاوف تركيا هذه مع الاحتلال الإنجليزي لمصر، فحاولت في فرمان تولية الخديوي[2] (عباس الثاني) أن تنزع منه حكم سيناء لتضمها إلى ولاية الحجاز لولا أن الحكومة الإنجليزية كانت متيقظة لذلك، فاضطرت الباب العالي إلى أن يلحق بفرمان الولاية ما يؤكد حق مصر في كل جهات سيناء في 8 أبريل سنة 1892[3]؛ فإذا

---

(1) تراجع نصوص هذه الاتفاقية في مجموعة الوثائق الرسمية الصادرة عام 1906 (طبع المطبعة الأميرية في سنة 1931).

(2) عباس حلمي الثاني (الخديوي عباس بن محمد توفيق بن اسماعيل) ولد في الإسكندرية في 1874، وتوفي في جنيف في 1944. آخر خديوي لمصر والسودان (1892-1914) - مجتمعة. أكبر أولاد الخديوي توفيق. انتهج سياسة إصلاحية وحاول مقاومة الانتداب البريطاني متحدّيًا اللورد كرومر، فخلعوه وكان آنذاك خارج البلاد وطلبوا إليه عدم العودة، ونصبّوا مكانه حسين كامل وفرضوا الوصاية (الحماية) على مصر (م).

(3) يراجع في ذلك المخاطبات الرسمية بشأن حدود مصر في شبه جزيرة سيناء: *Correspondence Respecting the Turco-Egyptian Frontier in Sinai Peninsula: Presented to Both Houses of Parliament*, by Command of His Majesty, Egypt; no. 2 (London: Printed for his Majesty's Stationery Office by Harrison, 1906), pp. 1-6.

عادت تركيا تحاول ضمان منطقة لها في شبه الجزيرة لتوقف مطامع إنجلترة، وتحرشت بمصر فاحتلت (طابا)، ثارت إنجلترة ضد ذلك، وحتمت ضرورة تعيين الحدود الشرقية لسيناء على أساس تصحيح 8 أبريل سنة 1892، وعلى قاعدة خط يمتد في اتّجاه مستقيم تقريبًا إلى الجنوب الشرقي من رفح حتى رأس خليج العقبة[1].

وهذه الحدود في الواقع حدود سياسية بحته، إذ أن تضاريس سيناء ومظاهر طبوغرافيتها[2] ونظام تكوينها الجيولوجي، يمتد خارج تلك الحدود ويتجاوزها إلى الأقطار المجاورة، حتى أن كاتبًا مثل (كرنكل) يفضّل أن تدرس جيولوجية التيه مثلًا مع جيولوجية جنوب بلاد الشام للارتباط الشديد بينهما[3]. كذلك تقطع تلك الحدود مجاري الوديان وتتركها مقسّمة، كما تفصل بين أراضي القبيلة الواحدة فيصبح جزء منها في أرض سيناء وجزؤها الآخر في شرقي الأردن؛ وتخضع بطون من القبيلة الواحدة لحكومة مصر وبطون أخرى من نفس القبيلة لحكومة فلسطين؛ وفي ذلك ما يصعب مهمة الحكام في مناطق تشتبك مصالحها في المرعى والماء، وبين سكان طبيعتهم التنقل ورابطة القربى بينهم متينة لا يسهل التجاوز عنها، الشيء الذي لم يستطع الطرفان إنكاره، بل سمحا للقبائل في كلا الجانبين بحق الانتفاع بالماء حسب سابق عادتها، وأعطيت العشائر التأمينات اللازمة لها، وتركت الملكية في المياه والحقول والأراضي كما هي دون أن تتأثر بذلك التحديد[4].

❁ ❁ ❁

تلك هي حالة الحدود الشرقية لا نجدها في الغالب قائمة على أسس طبيعية جغرافية، فهل هنالك من الأسس التاريخية ما دعا إلى الأخذ بمثل ذلك التحديد؟ الواقع أن عدم وجود طبيعية متميزة بين شبه جزيرة سيناء والبلاد الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي منها، ترك سيناء مسرحًا لتنازع القوى

---

(1) تراجع المخاطبات السابقة: *Correspondence Respecting the Turco-Egyptian Frontier*, pp. 12-13.

(رد السفير الإنجليزي في تركيا Sir N. O'Conor على توفيق باشا في 12 مايو سنة 1906).

(2) راجع: A. H. Keane, *Asia* (1909), vol. 2, p. 406.

(3) يراجع Erich Krenkel, *Geologie der Erde: Erster Teil*, Sinai, p. 87.

(4) تراجع المادتان السادسة والثامنة من اتفاقية الحدود السابقة.

المختلفة ومجالًا يمتد نفوذ القَوِيّ بسهولة إليه. وما كانت القبائل البدوية الآتية من المناطق الصحراوية المجاورة بالتي ترى في بيئة سيناء اختلافًا جوهريًا عن بيئتها الأولى، بل كانت في نظرها جزءًا متممًا لها يدخل في دائرة حدودها. ومن هنا أصبح من الصعب أن نخرج من الكتابات التاريخية المختلفة بشيء معين عن حدود مصر الشرقية، لأن هذه الحدود كانت تتقدم وتتراجع تبعًا لاختلاف التوازن بين سلطان القوى المجاورة لها أو تعادله، وكان وقوع المناطق المحيطة بسيناء تحت حكم واحد في فترات تاريخية مختلفة داعيًا لأن تظل تلك الحدود الشرقية متداخلة، إذ لم يكن هنالك ما يدعو إلى الاهتمام بتحديدها وتعيينها، سيما وأن سيناء كانت منطقة مجدبة، أهميّتها الاقتصادية تكاد تكون مركزة في شيء من المعادن، فما هي إذًا بالتي تغري كثيرًا على امتلاكها والحرص على أن تتمسك القوى المختلفة بما اكتسبته من النفوذ فيها، وكثيرًا ما كان ينظر إليها كأنها حاجز فاصل بين مصر وما إلى شرقيها من الأقطار، بدليل أن حصون مصر الشرقية أيام الفراعنة كانت ممتدة على طول برزخ السويس[1]، وبدليل أن الآثار المصرية القديمة مقصورة على مناطق التعدين في بعض جهات سيناء الجنوبية.

ومن أجل هذا نجد كتابًا مثل (بلني وهيرودوت[2] وغيرهما) يعينون حدود بلاد العرب بحيث تشمل الجزء الأكبر من سيناء الذي أطلقوا عليه اسم بلاد العرب الحجرية[3] Arabia Petra، ونجد كاتبًا (كاسترابون) وغيره يدخل منطقة الساحل في سيناء الشمالية ضمن بلاد الفينيقيين[4]، في حين أن هنالك من الكتابات القديمة ما يجعل حد مصر الشرقي ناحية الشام هو (وادي مصر) المعروف الآن باسم وادي العريش.

وجغرافيو العرب كذلك يختلفون في مدى اتّساع حدود بلاد العرب ومبلغ امتدادها في بلاد التيه وطور سيناء: منهم من يدخل سيناء كلّها في بلاد

---

(1) يراجع في هذا ما كتب عن تاريخ مصر القديم مثل مؤلفات ماسبيرو وغيره.

(2) هيرودوت (484 ق.م - 425 ق.م) مؤرّخ يوناني قديم. عاش في القرن الخامس (ق.م.)، اشتهر بكتابه «تاريخ هيرودوت» يتحدّث عن رحلاته في البحر المتوسط وحرب الميديين والفرس (م).

(3) راجع في هامش صفحة 477 تعليق المترجم على كتاب هيرودوت بخصوص تحديد بلاد العرب: Herodotus, *The History of Herodotus of Halicarnassus*, the Translation of G. Rawlinson, Revised and Annotated by A.W. Lawrence (London: Nonesuch Press, 1935), vol. 1.

(4) راجع ذلك في جغرافية استرابون: Starbo, *The Geography of Strabo*, Translated by H. C. Hamilton and W. Falconer, vol. 3, p. 171.

العرب (كالهمداني وياقوت وغيرهما)[1]، ومنهم من يخرج سيناء صراحة من حدود بلاد العرب وإن اختلفوا في تعيين الحد الشرقي لها، هل يضعونه عند العريش أو عند رفح أو في مكان أطلقوا عليه اسم الشجرتين قريبًا من العريش، ومن هؤلاء (الأصطخري) في كتابه «مسالك الممالك» و (اليعقوبي) في كتاب «البلدان»[2].

ولم يقتصر ذلك الاضطراب في الحدود الشرقية على الفترات البعيدة بل ظل هذا الغموض حتى أوائل القرن العشرين، فبالرغم من أن السلطان قد أعطى محمد علي حكم بلاد سيناء وبعض قلاع الحجاز، وضمن حكم أرض سيناء لخلفائه ابراهيم وعباس الأول وسعيد واسماعيل، فإن الاحتلال الإنكليزي لمصر، وخروج الرقابة الفعلية على مصر من يد تركيا، وخوف السلاطين من مطامع انجلترة في أملاكهم في الشام والحجاز وغيرهما، كل ذلك حرّك مسألة الحدود الشرقية من جديد، فاستردّت تركيا قلاع الحجاز، وتسلّمت العقبة في سنة 1892، وصدر الفرمان بتولية الخديوي عباس الثاني وهو يخرج شبه جزيرة سيناء من حدود مصر - كما قلنا - مشيرًا إلى أن الخريطة التي عينت حدود مصر لمحمد علي عام 1841 لا تدخل هذه المساحة ضمنها، وإنما تمتد الحدود الشرقية لمصر فيها من العريش إلى السويس[3]. ثم ينتهي الامر باعتراف تركيا - تحت ضغط الإنكليز - بحق مصر القديم في كل بلاد سيناء. لكن تركيا تعود فتثير مسألة الحدود الشرقية من جديد، ويظهر الاضطراب في تلك الحدود الشرقية من دراسة المقترحات المتنوعة التي كانت تتقدم بها تركيا بين وقت وآخر؛ فهي طورًا تقترح الأخذ بما جاء بالخريطة المشار إليها، وطورًا

---

(1) راجع: أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب (ليدن: [د. ن.]، 1883)، ج 1، ص 47، وشهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله، معجم البلدان، ج 3، ص 10.

(2) راجع: Imad Al-Dine Ismail Ben Ali Abu Al-Fida, *Géographie d'Aboulfeda*, traduit par M. Reinaud (Paris: L'Imprimerie Nationale, 1848), vol. 2, p. 99.

(3) هذه الخريطة المشار إليها مشكوك في صحة ما يقال عنها، لأن النسخة المصرية حرقت ضمن وثائق أخرى في دار المحفوظات المصرية ولم يبق إلا النسخة التركية التي تشير إليها المكاتبات التركية... يراجع خطاب «لورد كرومر» إلى (سير ادوارد جراي) في 21 مايو سنة 1906 في المخاطبات الخاصة بتعيين الحدود المصرية التركية في شبه جزيرة سيناء (ص 18) من الوثائق السابق الإشارة إليها. ويراجع كذلك: نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها: مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بينها من العلائق التجارية والحربية وغيرها عن طريق سيناء من أول عهد التاريخ إلى اليوم (القاهرة: مطبعة المعارف، 1916)، الفصل 5.

تريد تعيين الحدود بخط يمتد بين رأس محمد ورفح، وطورًا ثالثًا تعرض أن تعطي مصر المساحة من سيناء الواقعة جنوب خط ممتد من العقبة إلى السويس، مع إضافة تلك الأراضي الواقعة إلى يمين خط آخر ممتد من رفح إلى السويس، فيترك لتركيا على أساس ذلك تلك المنطقة المحصورة في مثلث يرتكز على العقبة ورفح والسويس. لكن كل هذه حلول لم توافق إنكلترة عليها لأنها كانت مصممة على إبعاد نفوذ الأتراك عن منطقة القناة، إذ كان وجودها في (نخل) - على أساس تعيين الحدود بخط ممتد بين رأس محمد ورفح -، أو وجودها قرب السويس - على أساس الاقتراح الثاني - يجعلها في مركز يقلق إنكلترة، ويمكن تركيا الإسلامية من أن تنشر دعايتها، فتثير العالم الإسلامي ضد الإنكليز كما أشار (لورد كرومر)[1] صراحة إلى ذلك... ولهذا تمسّكت إنكلترة بوجهة نظرها، وانتهى الأمر بتعيين الحدود الحالية، على أساس لم يراع فيه غير العوامل السياسية ووجهة النظر الحربية.

---

(1) كرومر (إفلين بارنغ) ولد 1841 وتوفي 1917. رجل دولة بريطاني (لورد) ودبلوماسي وإداري مستعمرات. أمضى في مصر ربع قرن (1882-1906)، وألّف كتاب مصر الحديثة أوضح فيه خطة عمله لتغريب مصر (م).

ملحق (2)

مراجع البحث

ليس هنالك من المراجع ما يمكن أن يُطمأَنَّ إليه في دراسة سيناء في الفترات القديمة، وكل ما يصادفنا هو مجرد فقرات تأتي عرضًا عند الكلام على بلاد العرب التي كثيرًا ما كانت سيناء تضم إليها وتعتبر جزءًا منها. وحتى في تلك الفقرات القصيرة نفسها نجد غموضًا لا يمكن أن نخرج منه بصورة واضحة مفيدة، فالكتابات التي نجدها في مؤلفات كتاب تاريخ مصر القديم أمثال (ماسبيرو وشارب وبدج وشمبليون و.. و... إلخ) لا تتجاوز الكلام عن غارات عناصر بدوية كانت تسكن سيناء وتنزل على حدود مصر الشرقية، ولا تتعرض إلا لهذا الصراع المستمر بين تلك العناصر وبين حكام مصر الذين قاسوا منهم كثيرًا؛ وإن أشارت تلك الكتابات إلى سيناء فإشارات محدودة إلى مناطق التعدين في جهاتها الجنوبية. وكتّاب الفترة المسيحية الذين كتبوا في القرون الأولى للميلاد أمثال Ommonius, Nilus, Martyr, Antoninus وغيرهم لم يهتموا إلا بمناطق الرهبنة في سيناء، والكلام على حالة الرهبان في منطقة الدير وما حولها؛ وإن أشاروا إلى العناصر الأخرى فما يشيرون إلا إشارات وجيزة، لا نخرج منها إلا بتصوير للحالة القلقة التي كان يعيش الرهبان فيها لكثرة ما كان يهددهم من غارات البدو والمحاربين.

فإذا جاءت الفترة الإسلامية، فإن اهتمام كتّاب العرب بسيناء يظل ضئيلًا فما يمسونها في كتابتهم إلا مسًا خفيفًا لا يغني؛ حقيقة إن هؤلاء الكتّاب قد فصلوا الكتابة في شبه الجزيرة العربية وسكانها، وإنَّ منهم كثيرين اعتبروا سيناء ضمن بلاد العرب لكنهم مع ذلك لم يخصوها بتفصيل ما. وإذا رحنا نتلمس نصيبها بين هذه الكتابات العامة فنحن أمام معلومات يصعب أن نستسيغها، وإنّ

هؤلاء الكتّاب ليكرر بعضهم كلام بعض دون نقد أو تصرّف[1]. وحتّى (ابن خلدون) نفسه - الذي أخذ على من سبقه من الكتّاب السرد والمبالغة - لا نجده يستطيع التخلّص من ذلك العيب الذي وقع فيه من تقدموه، وإن كان هو قد حاول ذلك فنجح فيه أحيانًا[2].

وبالرغم من أن معلوماتنا عن سيناء وقبائلها قد اتّسعت ابتداءً من القرن الثامن عشر وما بعده، نتيجة لما كتبه الرحالة المختلفون أمثال (نيبور - بركهاردت - سيتسن - روبل - روبنسن - ولستد - لابورد -، وغيرهم) فإن كتابة هؤلاء جميعًا تحتاج إلى شيء كثير من التمحيص والحذر في قبولها، لأنهم من جهة كانوا زوارًا يقضون في شبه الجزيرة أيامًا قصيرة، ولأنهم من جهة أخرى كانوا يجهلون لغة القبائل، ويعتمدون في الغالب على أقوال يلقيها عليهم ادلاؤهم دون تدقيق أو تمحيص.

والغريب أن النقص في كتابة أمثال هؤلاء الرحالة لا نجد ما يكمله في كتابة الذين كانت أمامهم فرصة أكثر اتساعًا، بإقامتهم في سيناء عددًا من السنين وباحتكاكهم بالأهالي هنالك احتكاكًا مستمرًا طويلًا: فسجلات (مصلحة الحدود) التي رجعنا إليها لم نعثر فيها على شيء كبير ذي أهمية، والموظفون المختلفون الذين تعاقبوا على سيناء لم نر لغالبيتهم ما يثبت دراستهم واختباراتهم وتجاربهم ومشاهداتهم في شبه الجزيرة مدة إقامتهم بها.

ولعلّ المصادر التي تعرضت للدراسة المناخية والأنثروبولوجية والأركيولوجية لشبه الجزيرة هي أضعف مصادر البحث كلها؛ ففي الناحية المناخية لا يوجد في سيناء كلها محطة متيرولوجية دقيقة، وليس أمامنا إحصائيات وافية كاملة، وغالب ما يدونه الرحالة في ذلك الاتجاه منصب على فترة محدودة من السنة هي في الغالب أشهر الربيع والشتاء... أما الدراسة الأنثروبولوجية لشبه الجزيرة فتكاد تكون معدومة، إذ لم يصادفنا في هذه الناحية إلا ما كتبه (شانتر) الذي درس قبائل (الطوارة) في سيناء الجنوبية دراسة

(1) يأخذ جورجي زيدان ذلك على كتّاب العرب في مقدمة كتابه العرب قبل الإسلام جزء أول طبع سنة 1908.

(2) راجع: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 2.

مفصلة، وإن كان هو يصرح بأن معظم الأفراد الذين درسهم إنما كانوا من قبيلة (العليجات)، الأمر الذي يجعل دراسته محصورة ومحدودة، وإن كان هو يرى (العليجات) مثلاً طيباً لقبائل الطوارة جميعاً[1].

وأخيراً فإن عدداً كبيراً من الكتب التي كتبت عن سيناء وبحثت فيها تصطبغ بصبغة دينية، وتدور نقط بحثها حول طريق الاسرائيليين، وتحقيق المحطات التي ورد ذكرها في التوارة، نظراً لارتباط جنوب سيناء بقصة خروج موسى وتيه بني اسرائيل. ومثل هذا اللون من الكتابة يفيدنا فائدة محدودة جداً، ويتطلب شيئاً كبيراً من الحرص في قبول النقط الجغرافية التي يعالجها، لأنه في الغالب ينحو نحو تسخير الجغرافية لوجهة النظر التي يأخذ الكاتب بها في هذا الاتجاه.

---

(1) راجع: Ernest Chantre, *Recherches anthropologiques dans L'Afrique Orientale; Egypte* (1904), pp. 203-227.

المراجع

أولًا- المراجع العربية

ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد. بدائع الزهور في وقائع الدهور. بولاق، مصر: المطبعة الكبرى الأميرية، 1894.

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. مهذب رحلة ابن بطوطة، المسماة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. القاهرة: وزارة المعارف العمومية، 1933.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. المسالك والممالك. ليدن: مطبع بريل، 1889.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

ابن رسته، أحمد بن عمر. الأعلاق النفيسة.

ابن فضل الله العمري، أبو العباس أحمد بن يحيى. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

أبو صالح الأرمني. تاريخ.

الاتفاق الخاص بتعيين حدود مصر الشرقية في سيناء الممضي في أول أكتوبر سنة

1906 والمستخرج من الوثائق الرسمية الصادرة في سنة 1906 (طبع المطبعة الأميركية، 1931)

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ليدن: [د. ن.]، 1893.

الأصطخري، أبو اسحق إبراهيم بن محمد. كتاب مسالك الممالك.

الأصفهاني، حمزة بن الحسن. كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء.

البتانوني، محمد لبيب. الرحلة الحجازية (1909).

التعداد العام سنة 1937؛ الكراسة الخاصة بتعداد محافظات الحدود.

تقارير مصلحة الحدود السنوية عن شبه جزيرة سيناء منذ عام 1923.

التقارير المحفوظة في سجلات مصلحة الحدود بوزارة الحربية عن الطرق والماء بسيناء.

تقارير مصلحة خفر السواحل عن مصائد الأسماك في القطر المصري.

تقرير مصلحة المناجم المصرية عن صناعة التعدين في مصر.

الخطيب، محب الدين. اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب (1923).

درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (مخطوط بدار الكتب؛ رقم 37 م).

زيدان، جورجي. تاريخ التمدن الإسلامي. القاهرة: دار الهلال، 1902.

ــــــــــــ. العرب قبل الإسلام (1908).

الشريف الإدريسي، محمد بن عبد الله بن إدريس. صفة المغرب وأرض السودان

ومصر والأندلس (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (طبع ليدن، 1893)).

شقير، نعوم. تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها: مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بينها من العلائق التجارية والحربية وغيرها عن طريق سيناء من أول عهد التاريخ إلى اليوم. القاهرة: مطبعة المعارف، 1916.

صادق، حسن. التفسير العلمي للمناظر الطبيعية المصرية: الكتاب السنوي الثالث. القاهرة: المجمع المصري للثقافة العلمية، 1932.

صادق، محمد. دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج (1866).

العارف، عارف. تاريخ بئر السبع وقبائلها (1934).

______. القضاء بين البدو (1933).

فانديك، ادورد. تاريخ العرب وآدابهم.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج. نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة (ملحق بكتاب ابن خرداذبة).

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة: المطبعة الأميرية، 1914.

______. قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية).

______. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب.

كرد علي، محمد. كتاب خطط الشام.

كلوت، أنطوان بارثلامي. لمحة عامة إلى مصر. تعريب محمد مسعود. 2 ج. [مصر: مطبعة أبي الهول، د. ت.].

كمال، يوسف. المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الأفريقية (1933).

لطفي، أنطوان يوسف. «مشروع خط سكة حديدية تصل القطر المصري بالديار السورية» (خطاب ألقاه في الجمعية الجغرافية المصرية بجلسة يوم الجمعة 20 مارس سنة 1891).

مبارك، علي. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة.

مخطوطات بمكتبة دير سانت كترين ليس لها عناوين تتعرض لعلاقة البدو بالدير.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر.

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن: مطبع بريل، 1906.

المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي. البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب.

______. خطط المقريزي.

الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد. صفة جزيرة العرب. ليدن: [د. ن.]، 1883.

الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر. كتاب فتوح مصر والإسكندرية. ليدن: [د. ن.]، 1825.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله. معجم البلدان. طبع دار السعادة.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. كتاب البلدان.

ثانيًا- الخرائط والأطالس

أطلس مصر المقدم للمؤتمر الجغرافي بلندن عام 1928، مصلحة المساحة، باللغة الإنجليزية.

الأطلس المناخي لمصر، مصلحة المساحة، باللغة الإنجليزية.

خرائط سيناء مقياس $\frac{1}{250000}$ لمصلحة المساحة المصرية.

خريطة سيناء مقياس $\frac{1}{500000}$ لمصلحة المساحة المصرية.

خريطة مصر مقياس $\frac{1}{1000000}$ لمصلحة المساحة المصرية، (الفترة الرومانية).

لوحات (بيتنجار) الخاصة بالطرق الرومانية.

ثالثًا - المراجع الأجنبية

Books

Abu Al-Fida, Imad Al-Din Ismail Ben Ali. *Géographie d'Aboulfeda*. Traduite par M. Reinaud. Paris: L'Imprimerie Nationale, 1848.

Amélineau, Emile. *La Géographie de l'Egypte à l'époque copte* (1890).

Ammar, Abbas. *The People of Sharqiya, their Racial History, Serology, Physical Characters, Demography and Conditions of Life*. 2 vols. Cairo: [s. n.], 1944.

Annales du service des antiquités de l'Egypte. Le Caire: Conseil suprême des Antiquités égyptiennes, 1916.

Ascherson, M. P. *Le Lac Sirbon et le mont Casius*.

Azadian, A. *Les Eaux d'Egypte*, 2 vols. (1930).

Ball, John. *The Geography and Geology of West-Central Sinai*. Cairo: Govt. Press, 1916.

Barron, T. *The Topography and Geology of the Peninsula of Sinai: Western Portion* (1907).

Beadnell, H. J. L. *The Wilderness of Sinai* (1927).

Benedite, Georges. *La Péninsule sinaïtique ... Une carte* (1891).

Besant, Walter. *Palestine Exploration Fund : 30 Years Work in the Holy Land.*

Bevan, Edwyn. *A History of Egypt, 4: Under the Ptolemaic Dynasty*. London: Methuen, 1927.

Bramley (Major). *Report about the Arab Tribes in Egypt* (1920).

Breasted, James H. *Ancient Times, a History of the Early World* (1916).

Brown, R. H. *The Land of Goshen and The Exodus* (1899).

Budge, E. A. *Babylonian Life and History.*

Burckhardt, John Lewis. *Travels in Syria and the Holy Land* (1882).

Burton, Richard. *The Land of Midian*. 2 vols. (1879).

Champollion, Jean-François. *L'Egypte sous les Pharaons*.

Chantre, Ernest. *Recherches anthropologiques dans l'Afrique Orientale; Egypte* (1904).

Charlesworth, Martin P. *Trade-Routes and Commerce of the Roman Empire* (1926).

Correspondence respecting the Turco-Egyptian frontier in the Sinai Peninsula: Presented to both Houses of Parliament. London: Printed for His Majesty's Stationery Office by Harrison, 1906. (Egypt; no. 2)

Damas, R. P. De. *En Orient; voyage au Sinai.*

La Description de L'Egypte (Different Volumes).

Dobson, Augusta M. R. *Mount Sinai: A Modern Pilgrimage* (1925).

Dumas, Alexander. *Travelling Sketches in Egypt and Sinai.*

Dussaud, Renee. *Les Arabes en Syrie avant L'Islam* (1907).

Elgood, P. G. *Egypt and the Army* (1924).

The Encyclopaedia Britannica (11th and 14th Eds.).

Flinders Petrie, W. M. *Researches in Sinai* (1906).

Hamilton, James. *Sinai, the Hedjaz, and Soudan* (1857).

Haynes, Alfred E. *Man-Hunting in the Desert: Being a Narrative of the Palmer Search-Expedition, 1882-1883* (1894).

Herodotus. *The History of Herodotus of Halicarnassus.* The Translation of G. Rawlinson Revised and Annotated by A. W. Lawrence. London: Nonesuch Press, 1935.

History of the Great War Based on Official Documents (British Official History), Military Operations: Egypt and Palestine. London: H.M.S.O., 1928.

Huart, Clément. *Histoire des Arabes* (1912).

Hull, Edward. *Memoir on the Geology and Geography of Arabia Petraea, Palestine, and Adjoining Districts* (1886).

______. *Mount Seir: Sinai and Western Palestine* (1885).

Hume, W. F. *A Brief History of North Sinai and of Pelusium: The Border Fortress of Egypt* (1918).

______. *Explanatory Notes to Accompany the Geological Map of Egypt* (1912).

______. *Geology of Egypt* (1934).

______. *Report on the Oilfields Region of Egypt* (1916).

______. *The Topography and Geology of the Peninsula of Sinai (South-Eastern Portion)* (1906).

Huntington, Ellsworth. *Palestine and its Transformation* (1911).

______. *The Pulse of Progress* (1926).

Huzayyin, S. A. *Arabia and the Far East; their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times*. Cairo: [s. n.], 1942.

Jarvis, C. S. *Yesterday and Today in Sinai* (1933).

Kammerer, A. *Pétra et la Nabatène: L'Arabie Pétrée et les Arabes du Nord dans leurs rapports avec la Syrie et al Palestine jusqu'à l'Islam*. 2 vols. Paris: [P. Geuthner], 1929-1930.

Kappers, C. U. Ariëns. *An Introduction to the Anthropology of the Near East in Ancient and Recent Times*. Amsterdam: Noord-hollandsche Uitgeversmaatschappij, 1934. (Human Relations Area Files, M 1, Middle East; 55)

Keane, A. H. *Asia* (1909).

Krenkel, Erich. *Geologie der Erde: Erster Teil.*

Lammens, Henri. *Le Climat syro-palestinien autrefois et aujourd'hui* (1898).

Lane-Poole, Stanley. *A History of Egypt in the Middle Ages* (1921).

Lepsius, Richard. *Discoveries in Egypt, Ethiopia, and the Peninsula of Sinai, in the Years 1842-1845* (1852).

______. *Letters from Egypt, Ethiopia, and the Peninsula of Sinai* (1852).

Luke, Harry Charles and Edward Keith-Roach (eds.). *The Handbook of Palestine and Trans-Jordan* (1930).

MacMichael, H. A. *A History of the Arabs in the Sudan and some Account*

of the People who Preceded them and of the Tribes Inhabiting Darfur. Cambridge: Cambridge University Press, 1922.

Maspero, G. *The Dawn of Civilization* (1896).

_______. *Histoire de L'Orient* (1891).

______. *The Struggle of the Nations: Egypt, Syria and Assyria.* London: [s. n.], 1925.

Mengin, Félix, Edme François Jomard and Louis Mathieu Langlès. *Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed-Aly* (1823).

Military Operations: Egypt and Palestine. Compiled by George MacMunn and Cyril Falls. 2 vols. in 3 (1928-1930).

Milne, Joseph G. *A History of Egypt, 5: Under Roman Rule.* London: Methuen, 1924.

Moon, F. W. and H. Sadek. *Topography and Geology of Northern Sinai* (1921).

Murray, G. W. *Sons of Ishmael* (1935).

Murray, John. *Handbook for travellers in Syria and Palestine* (1875).

Musil, Alois. *Arabia Deserta* (1927).

______. *The Northern Hejaz* (1826).

Niebuhr, C. *Voyage en arabie and en d'autres pays circonvoisins* (1776-1780).

Palmer, Henrey Spenser. *The Desert of the Exodus.* 2 vols. (1871).

______. *Sinai from the Fourth Egyptian Dynasty to the Present Day* (1892).

Pococke, Richard. *A Description of the East, and Some Other Countries* (1743).

Quatremère, Etienne. *Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte, et sur quelques contrées voisines* (1811).

Raimondi, Jean. *Le Désert oriental égyptien; du Nil à la mer Rouge; ses richesses dans le passé son importance dans l'avenir.* Caire: La Société royale de géographie d'Egypte, 1923. (Mémories de la Société royale de géographie d'Egypte; 4)

Reports on Boring for Oil in Egypt (Different Publications).

Ritter, Carl. *The Comparative Geography of Palestine and the Sinaitic Peninsula.* Translated by W. Gage. Edinburgh: [s. n.], 1866.

Robinson, Edward. *Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions* (1867).

Salvator, Ludwig. *The Caravan Route between Egypt and Syria* (1811).

______.________. Translated from the German by the Chevalier de Hesse-Wartegg. London: Chatto and Windus, 1881.

Savary, M. *Letters on Egypt* (1799).

Semple, Ellen. *Influence of Geographic Environment* (1911).

Serjeant-Major, R. A. M. C. *With the R. A. M. C. in Egypt* (1918).

Sharpe, Samuel. *The History of Egypt.* 2 vols. London: [Moxon], 1852.

Smith, George Adam. *The Historical Geography of the Holy Land* (1894).

Sprenger, Aloys. *The Ishmaelites, and Arabic Tribes who Conquered their Country.*

Stanley, Arthur Penrhyn. *Sinai and Palestine: In Connection with their History* (1864).

Strabo. *The Geography of Strabo.* Translated by H. C. Hamilton and W. Falciner.

Tonsello, Marino Sanudo. *The Book of the Secrets of the Faithful of the Cross.*

Views of Typical Desert Scenery in Egypt: Presented to the International Geographical Congress at Paris, 1931. Giza: [s, n.], 1931.

Volney, C.-F. *Travels through Syria and Egypt in the years 1783, 1784, and 1785*. 2 vols. (1782).

Weill, Raymond. *La Presqu'île du Sinai* (1908).

Wilson, C. W. *Picturesque Palestine, Sinai, and Egypt* (1881).

______ and Henrey Spenser Palmer *Ordnance Survey of the Peninsula of Sinai* (1869).

Worrell, William H. *A Study of Races in the Ancient Near East* (1927).

Wüstenfeld, Ferdinand. *Register zu den genealogischen Tabellen der Arabischen stamme und familien.*

Periodicals

Ammar, Abbas. "Physical Measurements and Serology of the People of Sharqiya (Egypt)." *Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*: vol. 70, no. 2, 1940.

______. "Racial Elements in the North-Eastern Province of Egypt: A Study of Ethnic Stocks in Sharqiya. Part I: Ancient Drifts." *Journal of the Royal African Society*: 1941- 1942.

Scottish Geographical Magazine: vol. 33, 1917.

Conference

Congres International de Geographie, Compte Rendu, Le Caire, April 1925.

Thesis

Huzayyin, S. A. "Arabia and the Far East; their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times." (Thesis, 1933).

فهرس عام

- ب -

- ت -

- خ -

- د -

- ش -

- ص -

- ك -

- ل -

- م -